

سيادة القانون

في ظل الثورة والاشتراكية

بقلم: د. محمد عصفور

القى السيد رئيس الجمهورية كلمة في حفل افتتاح المؤتمر التاسع لاتحاد المحامين العرب تناول فيها موضوعين أساسيين :

اولهما - وحدة القوى الثورية العربية .

وثانيهما - القانون والثورة .

وقد قال السيد الرئيس في كلمته ان الموضوع الثاني - وان لم يكن مدرجا في جدول أعمال المؤتمر فهو مطروح دائما في أى اجتماع للمحامين - وقال كذلك ان هذا الموضوع من أخطر ما يواجه الثورة العربية وبالتالي فهو جدير بمناقشة جدية .

وقد طرح السيد الرئيس ثلاثة أسئلة هي :

١ - كيف نستطيع ان نجعل القانون يعبر بصدق عن المجتمع ومطالبه ، فان القوانين ليست صياغات بعيدة عن القوى الفاعلة في المجتمع او عن حركة هذه القوى ؟

٢ - كيف يستطيع القانون ان يعبر عن روح التطور ذاتها ، فان الشرعية ليست هي مجرد الأمر الواقع ، والا كان معنى ذلك ان الشرعية قد أصبحت مادة جامدة لا ينص فيها على احسن الأحوال أو استبدادا من طبقة أو سلطة تتصور خطأ أنه بوسعها ان توقف الزمن نفسه ؟

٣ - كيف نستطيع أن نحقق الوفاق بين حرية المجتمع وحرية الفرد في هذا المجتمع ، وكيف يمكن أن نحقق انسجاما بين الديمقراطية السياسية وبين الديمقراطية الاقتصادية ، ولكم شهدنا من تجارب أهدرت فيها الديمقراطية الاقتصادية ، بدعوى الديمقراطية السياسية أو العكس ؟

ان الأسئلة السابقة تدور في إطار حده السيد رئيس الجمهورية في خطابه أمام مجلس الأمة حيث قال :

« ان تقنين الثورة حصانة أكيدة للتطور الدستوري السليم ليظل القانون دائما أكبر من مراكز القوة وأعلى من ارادات الأفراد . وفي الوقت الذي يتدارس فيه الشعب بمختلف طبقاته الأسس التي يوضع عليها دستوره الدائم ، وهو أرفع قوانين الدولة وأعلىها ، تنشر « المجلة » هذا البحث الذي يناقش كتابه - وهو من كبار أساتذة القانون - هذه الأفكار الجوهرية ذات الصلة الوثيقة بمستقبل تطورنا في مختلف مجالات التشريع ، ونرجو ان ننشر في الأعداد القادمة مناقشات وابعاثا أخرى حول هذا الموضوع الهام »

المشكلات القانونية التي تواجه مجتمعا يتحول نحو الاشتراكية :

تمر الأمة العربية - في هذه الآونة - بمرحلة حاسمة من مراحل تطورها ، فبجانب الضغوط الشديدة التي يتعرض لها شعبها ، تنوزعه داخليا تيارات فكرية متباينة ، من الخطأ الجسيم أن نهون من شأنها بحجة أن التيار الفكري الغالب هو (التيار الذي يتقدم نحو الغايات السليمة ، وفي مجالات الفكر بالذات تساؤلات عديدة عن الاتجاه الجديد الذي يجب تبنيه ، وعن سماته المميزة ، وإذا كانت هذه التساؤلات قد ثارت في مجالات الفلسفة والفن والأدب ، فإنها قد ثارت بصورة أكثر حدة في مجال القانون ، فهناك دعوة عنيفة الى نظرية ثورية في القانون تنادي بهدم البنيان القانوني « القديم » بكافة طوابقه ، وكأننا الثورة لا تأتلف مع أي قانون ، وكان التنكر للاستغلال يعني كذلك التنكر للأفكار الأصلية في الحرية وكرامة الانسان وقد يكون حماس الشباب - ولا أقول اندفاعه - مسئولا عن الخلط بين نظرية ثورية أصيلة للقانون وبين أفكار انقلابية (منقولة عن مجتمعات تقوم بيننا وبينها قوة في التاريخ والفكر والتطبيق) . ليس فيها شيء من أصالة الثورة البناءة . . . وان كانت تتوارى خلف ما يسمى بنظرية اشتراكية القانون . .

واستنادا الى هذه النظرية نشرت مقالات كثيرة تعلن عدائها لما يسمى « بالانفكار التقليدية » أو « البورجوازية » ، وتدعو الى إحلال أصول أخرى محلها :

- فلقد تودى مبدأ « وحدة السلطة » بدلا من مبدأ الفصل بين السلطات .
- وانكر على القضاء استقلاله بعد أن كان ينظر الى استقلال السلطة القضائية على أنه دعامة من دعائم سيادة القانون .

- وبدلا من احترام القوانين القائمة الى أن تلغى بقوانين أخرى في نفس مرتبتها وقوتها ، دعى الى التحلل منها باسم « الثورية » وغايات الاشتراكية ، بل والشرعية الاشتراكية ! ولا يتسع المقام لعرض تفصيل لهذه المقالات ، وانما نكتفي بانتقاء نموذج واحد لها فحسب يوضح هذا الاتجاه .

- أما مبدأ الفصل بين السلطات - والذي برز في الدستور المؤقت - فهو لا يتسق في نظر بعض الكتاب الا مع نظام الدولة الذي يمثل مصالح الأقلية المالكة والحاضع لسيطرتها . . . وقد كان ضرورة لبقاء سلطة الدولة الحقيقية في يد الأقلية المسيطرة عليها ، بما تخلقه من وهم لدى الجماهير بأنها قد أصبحت تملك حريتها ممثلة في السلطة التشريعية ، في حين أن السلطات جميعها كانت في قبضة البورجوازية ، وأن الحريات السياسية كانت

مجردة من مضمونها الاجتماعي . ولهذا نودى
بمبدأ « وحدة السلطة بوصفه مبدأ اشتراكياً ،
ويدعى أنه » في نظام اشتراكي ديمقراطي
فإن سلطة الدولة واحدة تستمد من الشعب
العامل فالسلطة لا تنجز ولا تنفصل » (١) .
والنتيجة المنطقية ، بل والحتمية لانكار مبدأ
الفصل بين السلطات أن ينكر على القضاء صفته
التقليدية كسلطة من سلطات الدولة . فالقضاة
مستقلون لا يخضعون في قضائهم إلا للقانون ،
ولكن القضاء ليس سلطة مستقلة ، وأن القضاء
شأنه شأن القوات المسلحة كلاهما يحسن أن
يرد في الدستور كضمان للشعب وحماية له ،
لأن القضاء « في النهاية يستمد وجوده من
سلطة الشعب ، مما يستوجب ربطه بالإرادة
الشعبية وفق ما يسمح به تطور الظروف
الاجتماعية » فهو عندئذ وعن طريق المحاكم
الشعبية - التي تضم عنصراً شعبياً منتخباً إلى
جانب القاضي المتخصص - يمكنه أن يقوم
بجانب هام من اختصاصات سلطة الدولة في
حماية التحول الاشتراكي ، وعندئذ يمكن عند
تقنين نظام الحراسة أو الحرمان من الحقوق
السياسية أن يوكل تطبيقه إلى هذه المحاكم
الشعبية التي تمتاز فيها النظرة السياسية
بالنظرة القانونية الغنية » (٢) .

وعلى الرغم من أن من بين التوجيهات التي
انتهى إليها تقرير لجنة الميثاق عندنا إنشاء
محكمة دستورية عليا يحدد الدستور الجديد
طريقة تشكيلها واختصاصاتها ، يرى بعض
كتابنا أن هذه التوصية : « اقتراح مخفوف
بالمخاطر فسلطة الشعب التي يمثلها المجلس
الشعبي لا يجوز معها للقاضي أن يتصدى للحكم
على قانون أصدرته ، وأن ينفرد بتقرير مخالفته
للدستور ، فإن ذلك قد يعنى إخضاع إرادة
شعبية لسلطة تقديرية للقضاء ، لذلك فانه
يجب البحث عن الوسيلة الملائمة التي تجعل
رقابة هذه الدستورية للمجلس الشعبي ذاته
في لجنة تشكل من بين أعضائه ويضم إليها

(١) جريدة « الإهرام » في ١٦/٢/١٩٦٧ مقال للدكتور
جمال العليفي بعنوان « تعليق على مناقشات الدستور
الجديد »

(٢) جريدة « الإهرام » في ١٦/٢/١٩٦٧ مقال للدكتور
جمال العليفي « تعليق على مناقشات الدستور الجديد »
تحت عنوان « الاتحاد الاشتراكي »

بعض قضاة المحكمة العليا وخبراء القانون (٣) ،
وجدير بالملاحظة أن نفس الاتجاه الذي ينكر
على القضاء الامتناع عن القانون المخالف للدستور
أو الميثاق يطالب المشرع « بأن يصدر قانوناً
صريحاً يمنح القضاء سلطة عدم تطبيق الأحكام
القانونية التي تناقض مبادئ التحول
الاشتراكي ، وأن هذا القانون .. يمكن القاضي
من ألا يقف عاجزاً أمام نصوص تناقض مع
التحول الاشتراكي ، وهو في نفس الوقت
يشرك القاضي في مسئولية حماية مبادئ
المجتمع الجديد » .. وإلى أن يصدر القانون
المطالب به .. اقترح على وزير العدل أن
يحول (١٩) محكمة النقض إلى محكمة عليا
تشرف على حسن تطبيق القانون وتعمل على
تحقيق وحدة وتجانس النظام القانوني
الاشتراكي بأن تبادر (دون انتظار لظن يطرح
عليها) إلى تقديم تفسير متجانس موحد للقانون
يحول دون اضطراب أحكام المحاكم وتضاربها ،
وأن « هذه المعالجة الواجبة لشئون العدالة »
على التي تدعم - في نظر الكاتب - « سيادة
القانون وهي التي تحمي للثورة شرعيتها » ..
غير أن ما هو أخطر من ذلك تحديد موقف
القضاء من « القوانين » التي مازالت تعبر عن
علاقات كانت سائدة في ظل النظام الرأسمالي
وما زالت قائمة رغم التحول الاشتراكي وتعديلها
يحتاج إلى وقت .. ويتساءل الكاتب : « فماذا
يكون موقف القاضي من مثل هذه القوانين ؟
أيقف عند حرفية النصوص ويطبق مفاهيم
نبلها الميثاق ، ولم تعد تتفق مع طبيعة الثورة
الاجتماعية والاقتصادية ومراميها ؟ أم أن القاضي
الملتزم (١٩) يمكنه أن يضفي على النصوص
مفهوماً يتفق مع أهداف المجتمع الجديد ، ويمكنه
أن يقدم حلولاً تواجه التغيير الثوري ؟ »

يرى أصحاب هذا الاتجاه أنه يجب على
القاضي أن يضفي على النصوص تفسيراً يجعلها
متشعبة مع مرامي المجتمع وأهدافه ، وأن
القاضي وهو يجتهد لا يصدر في اجتهاده عن
تفكير ذاتي خاص ، بل انه يصدر عن اعتبارات
موضوعية جسدها مبادئ الميثاق ، ولا يجد

(٣) مقال الدكتور جمال العليفي - سبلت الاشارة

اليه في جريدة « الإهرام » في ١٥ من فبراير ١٩٦٧

من سلطته في هذا الاجتهاد الا المبدأ الذي أكدته دستور سنة ١٩٦٤ من أنه « لا جريسة ولا عقوبة الا بنص (٤) » .

والواقع أن هذه الدعوة الى تفسير القوانين بما يجعلها متشبية مع مرامي المجتمع وأهدافه، هي دعوة الى التحلل من أحكام القوانين القائمة ولهذا السبب فانه وإن أعاب بالقضاء أن يتقدم معبرا عن القيم الجديدة للمجتمع حازما عليها، يرى أن تحميله مسئولية مواجهة العلاقات الاجتماعية الجديدة هو تحميل له بأكثر مما ينبغي ، في حين أن المسئولية الأولى تقع على المشرع .

هذا .. هو نموذج واحد لكثير مما كتب لمواجهة المشكلات القانونية التي تعرض لمجتمعا الذي يتحول نحو الاشتراكية ، وهي مشكلات دقيقة وخطيرة ، وعلى الرغم من تعسدها وتسميها ، فانها ترتد الى مشكلة وحيدة مثقلة الشعب ، وهي « سيادة القانون » : ما هو مفهومها ، وكيف تتواءم مع ثورة اجتماعية، وعلى أية صورة تتحقق في نظام اشتراكي .. وكيف تحل هذه المشكلة ؟

إن الحلول التي اقترحها بعض الكتاب ، والتي قدمنا نموذجا لها هي في نظري حلول غير سديدة ، لما فيها من تشويه « لمبدأ سيادة القانون » كما ورد في الميثاق ... ولأن مظهرها نابع عن افكر والنظام السوفيتيين على الرغم مما يقوم بينهما وبين فكرنا ونظامنا من فوارق عميقة الجذور .

فيمبدأ وحدة السلطة : يعد مبدأ من مبادئ الماركسية اللينينية التي ترفض مبدأ الفصل بين السلطات . لأنه يؤدي في واقع العالم الحديث ، الى أن يزيد من اضعاف دور القانون الحقيقي - الذي هو ثمرة البرلمان - لصالح سلطات أخرى وبصفة خاصة السلطة التنفيذية أو الادارية . ويعتبر الشراح السوفيت أن نمو أسلوب المراسيم بقوانين ، والتمييز بين القانون واللائحة ، واستقلال السلطة القضائية حيال السلطة التشريعية في دول الشريعة العامة أو القانون القضائي (Common Law) - يرى

(٤) مقال للدكتور جمال الطيفي ، « الاحرام » في ١٩٦٦/١٢/١٥ . بعنوان « الوجه الثوري للقضاء » .

الشراح السوفيت أن هذه الصور كلها مظاهر لتشويه مبدأ سيادة الشعب ولهذا السبب يؤثم الاتحاد السوفيتي مبدأ الفصل بين السلطات ، مؤكدا مبدأ وحدة السلطة . لأن الأمر ليس أمر فصل أو تساوي بين السلطات وانما هو أقرب الى توزيع الوظائف بين مختلف الهيئات أو المنظمات .. (٥) وهذا هو نفس ما يتنادى به الاتجاه الذي نقلنا بعض فقرات له تكاد تكون مصاغة بنفس الأسلوب !؟

وانكار صفة السلطة على القضاء هو كذلك مبدأ من مبادئ التنظيم السوفيتي ، فاستنادا الى مبدأ وحدة السلطة تتركز جميع السلطة تشريعية وتنفيذية بين أيدي مجلس السوفيت الأعلى (طبقا للمادة ٣ من دستور سنة ١٩٣٦) وليست هناك سلطة قضائية تقف على قدم المساواة مع مجلس السوفيت الأعلى ، وانما هناك قضاء فحسب ، يخضعون للقانون (م ١١٢ من الدستور) ولهذا السبب لا يمكن التسليم بأن تقوم جهة الادارة (ويمثلها مجلس الوزراء) الذي يعد مسؤولا أمام مجلس السوفيت الأعلى (أو القضاء على قدم المساواة مع مجلس السوفيت الأعلى الذي يعد - من الناحية الدستورية الشكلية - قمة السلطة بل ومستودعها) . (٦)

وانكار فكرة الرقابة على دستورية القوانين وإن كان مأخوذا في بعض الديمقراطيات الغربية الا أنه سمة من السمات المميزة للنظام السوفيتي الذي يبرر انكار هذه الرقابة بحجة أنها نظام قصد به أساسا حماية مصالح وسلطة الطبقات المالكة ، وأنها تقيد من القضاء حكما سياسيا ، وتؤدي الى احوال حكومة للقضاء محل حكومة الشعب . وإن مثل هذا الحلول خطير لأنه يتخفى وراء نقاب قاعدة القانون وخلف قناع الموضوعية والحيطة اللتين تصوران على أنهما من خصائص الوظيفة القضائية .. في حين أن قاضي الرقابة يفرض رأيه السياسي وذلك يقاوم التمثيل الشعبي بوضع العراقيل في وجهه . رقابة القضاء على دستورية

(٥) R. David : Les Grands Systèmes de Droit Contemporain, Paris, Dalloz 1964, pp. 207 - 208.

(٦) للصدر السابق نبذة رقم ١٥٧ من ٢٠٧ ، ٢٠٨

بتركيز السلطة ، وبالتالي تؤثر وحدة السلطة
و « دكتاتورية البروليتاريا » ..

وإذا لم يتم لدينا شبهة في أن مبادئ
الميثاق لا بد وأن تكون أطرا للدستور الجديد
الزمع اعداده ، فاننا نعجب كيف تهاجم -
باسم الاشتراكية والثورة - المبادئ
التقليدية في شأن الفصل بين السلطات ،
وتأكيد سلطة القضاء ، وسيادة القانون ،
نعجب كيف تهاجم هذه المبادئ وقد تضمنها
الميثاق الذي يعد دليل العاملين الثوري
والاشتراكي في المرحلة الراهنة .. ؟

يضاف الى ما تقدم أن الانجاء الذي
يناهض المبادئ التقليدية خاطيء في تديله،
متناقض في نتائجه ، وخطير في عواقبه .

لما أنه خاطيء في تعليقه فظاهر من مطالعة
الحجج الواهية التي ساقها لتبرير العدول
عنه .

فلقد قيل إن مبدأ الفصل بين السلطات
يتفق مع نظام الدولة الذي يمثل مصالح
الأقلية في حين أن سلطة الدولة في نظام
اشتراكي ديمقراطي لا يجوز أن تنجز أو
تفصل ولكن اختصاصات هذه السلطة هي
التي توزع .

وإذا كانت لمبدأ الفصل بين السلطات جذور
اقتصادية ، الا أننا لا نرى ما يمنع النظام
الاشتراكي من أن يعتنق هذا المبدأ
الديمقراطي الاصيل والذي يعد - بدون
شك - ضمانا أساسية للحريات . كما أننا
لا نفهم كيف يفسر مبدأ الفصل بين السلطات
تفسيرا حرقيا على نحو يومهم بأن هذه
السلطات متنازعة وأن مردها كلها الى
الشعب ، في حين أن جميع دساتير
الديمقراطيات الغربية تنص على أن الأمة هي
مصدر السلطات وهو ما يؤكد أن ما يقوم
في الحقيقة - حتى في ظل مبدأ الفصل بين
السلطات - هو توزيع للاختصاصات أو
الوظائف ، لا ينال من سلطة الأمة .

القوانين - في نظر الفقه السوفيتي - هي نظام
«أوليغاركي» يسطع بدور طبقي ، ولا يستقيم
مع ديمقراطية حقيقية مؤسسة على سيادة
الشعب . ومعنى ذلك أن الفقه السوفيتي يؤثر
الرقابة القضائية على دستورية القوانين لسببين

أولهما - الطبيعة السياسية الحتمية لهذه
الرقابة .

والسبب الثاني - ممارسة هيئة غنيح
ديمقراطية لهذه الرقابة تقاوم إرادة الهيئتها
المنتخبة (V) .

وتحريض القضاة على اهدار القوانين
القائمة - بحجة أنها تعرقل مهام التحول
الاشتراكي والدموية الى صدور تشريع بهذا
المعنى ، هو تقليد لما جرى عليه العمل في فترة
الشيوعية الأولى ، من تخويل القضاء سلطة
الفصل في المنازعات وفقا لضميره الاشتراكي
وقد ثبت للسلطات السوفيتية نفسها كيف
أدى هذا النص الى اضطراب لا مزيد عليه ،
دفع هذه السلطات الى حذف النص، والعودة
الى التقليد الاصيل بالتزام القاضي بنصوص
القوانين القائمة الى أن تلتى أو أن تمحل بأداة
في مثل قوته .

وإذا كان من المفيد في مرحلتنا الراهنة :
أن نرجع الى تجارب الدول الاشتراكية
الأخرى لأفادة منها ، الا أنه من غير المعقول
أن نجعل من نظامنا القانوني نسخة مكررة
من النظام السوفيتي على الرغم من قيامه
على فلسفة سياسية في الدولة والقانون ،
تغاير فلسفتنا السياسية كما صورها ميثاق
العمل الوطني :

ففي الميثاق تأكيد لسيادة القانون على
نحو يناهض التصوير السوفيتي للقانون على
أنه مجرد أداة من أدوات الإكراه مصيرها
الدبول مع سلطة الدولة ذاتها ..

وفي الميثاق فقرات واضحة وقاطعة تندد

(V)
Mouskely : La nation Soviétique de Con-
stitution.

مجلة القانون العام - سنة ١٩٥٥ ، ص ٨٩٤ ، ٩٠٨

متخصصة تضطلع بمهامها لابد وأن يكفل استقلالها لضمان حيدها ، وفي انكار سلطة القضاء في الرقابة على دستورية القوانين بحجة احترام الارادة الشعبية اطلاق لارادة ممثلين للشعب لفترة معينة على نحو قد يناهض الدستور أو الميثاق نفسه .

فالدعوة اذن الى نبذ المبادئ التقليدية - في الفصل بين السلطات ، وتأكيد ان القضاء سلطة ، وتأكيد حقه في الرقابة على دستورية القوانين .. دعوة خطيرة واجبة الرفض . والحلول الصحيحة - في نظري - للمشكلة التي نواجهها يجب أن تبدأ بتحديد واضح وقاطع لمبدأ سيادة القانون ، وتحديد واضح وقاطع لصفة هذا المبدأ بكل من الثورة والنظام الاشتراكي .

اولا : هل « سيادة القانون » هي الشرعية الثورية أو الشرعية الاشتراكية ؟

إننا لانستطيع أن نحدد كيف تتحقق سيادة القانون في الثورة أو في الاشتراكية الا اذا حددنا أولا ما اذا كان ما يسمى بالشرعية الثورية ، أو الشرعية الاشتراكية هو شيء آخر أو شيء مماثل لسيادة القانون .

وأبدر الى القول بأنه اذا قصد بتعبيري الشرعية الثورية والشرعية الاشتراكية ما يقصد بهما في الفكر والنظام السوفيتيين ، فاننا نكون بعيدين تماما عن المعنى المتعارف عليه لسيادة القانون :

- سيادة القانون أو دولة القانون في نظر بعض الكتاب السوفييت هي فكرة غير علمية قامت في الادب القانوني البورجوازي . تصور الدولة البورجوازية كما لو لم يكن فيها مكان لاستبداد السلطة التنفيذية ، ويزعم أن السيادة فيها للقانون والشرعية ومما يميز نظرية سيادة القانون هذه تأكيدها لأولية القانون على الدولة ، بمعنى أن القانون شيء مستقل عن الدولة ويعلو عليها ، ويقصد بهذا التصوير اضعاف قناع على الطبيعة الطبقيّة للدولة وتقوية سلطان البورجوازية ، ليس

وأكثر على القضاء صفة كسلطة من السلطات ، بحجة أن القضاء يستمد وجوده من سلطة الشعب . ولسنا نجد أي تعارض بين أن يكون القضاء سلطة وأن تكون هذه السلطة ذاتها مستمدة من سلطة الشعب ، اما اشراك الشعب في القضاء بحجة أن من شأن هذا الاشراك الربط بين القضاء والارادة الشعبية ، فهو أمر مفرق في الخيال ، ومن شأن الأخذ به اقام غير المتخصصين في امور أثبتت التجربة - حتى في الدول التي أخذت بنظام المحاكم الشعبية - أنهم في الحالات التي لم يكونوا فيها عبأ على القاضي المتخصص ، يناثرون بصلاتهم ودوافعهم الشخصية أكثر مما يثاثر بها القاضي الذي تدرب على التزام الحيدة . وقد دفعت مساوئ نظام المحاكم الشعبية الكثيرين من النقاد الى أن يصوموا هذه المحاكم بأنها « محاكم الظلم » .

وليس الاتجاه الذي يناهض « المبادئ التقليدية » خائفا في تدليه فحسب وإنما هو كذلك متناقض في نتائجه : ذلك أنه في الوقت الذي ينكر فيه على القضاء حقه في الرقابة على دستورية القوانين ، يعطى هذا القضاء سلطة أوسع في مداها من هذه الرقابة وهي سلطة اصدار ما يسميه بالقوانين التي تناهض التحول الاشتراكي ، على الرغم مما تنطوي عليه هذه السلطة من خطورة بالغة ، لأنها لا تحتكم الى نص في الدستور أو مبدأ من مبادئه (كما هو الشأن في الرقابة على دستورية القوانين) ، وإنما تحتكم الى تطفل في النوايا والمقاصد والغايات ، وهي بطبيعتها أمور مرنة وتفاوتت فيها وجهات النظر .

والاتجاه الذي يناهض المبادئ التقليدية ، بجانب خطئه في التدليل وتناقضه في النتائج - خطير في عواقبه .. لأنه في دعوته الى نبذ مبدأ الفصل بين السلطات يحرم المواطنين من ضمانات أساسية لحرياتهم ، وانكاره لسلطة القضاء ، وفرض غير المتخصصين على المحاكم يشوه العملية القضائية برمتها كعملية

المبادئ الديمقراطية ، فإنها تستهدف وضع الضمانات للمحكومين في كافة المجالات ، سواء في مجال تعامل الأفراد مع الإدارة ، أو فيما يرتكبه من جرائم ، أو فيما يثور بينهم من منازعات ..

ومن الواضح أن الفرق كبير بين مفهوم « سيادة القانون » بمعناه التقليدي ، وبين الشرعية الثورية أو الاشتراكية بمفهومها السوفيتي .. وإذا كان من الحق أن المعنى التقليدي لسيادة القانون ، قد ولد في كنف الليبرالية السياسية والليبرالية الاقتصادية ، وأنه كان لقيام الطبقة البورجوازية دور كبير في تأكيد المبدأ لحماية أوضاعها .. فهل يعني ذلك اعتبار هذا المبدأ مبدأ « بورجوازي » يجب أن ينبذ في كل نظام اشتراكي ، أم أن « سيادة القانون » صيغة فنية للعلاقات بين الحكام والمحكومين واجبة التطبيق في أي نظام اجتماعي طالما أنه يمتثل الديمقراطية مذهباً ؟

الذي نؤمن به أن « سيادة القانون » - كضمان للحريات وكرامة الإنسان - ظاهرة لا شأن لها بنظام المذهب الفردي كما أنها لا تنهار بزواله - وإنما هي معنى قانوني يؤكد التزام سلطة الحكم باحترام النظام القانوني الذي يضمه الشعب ، فهي إذن فكرة معيَّنة ، لأنها لا تعدو أن تكون في جوهرها وضوح الوسائل التي تنظم العلاقات الاجتماعية - مهما تنوعت صورها واختلفت أسسها وغاياتها ..

ونحن نؤمن كذلك أن « سيادة القانون » يمكن أن تقوم في نظام اجتماعي لا يقدس الملكية الفردية على نحو ما يفعل النظام الرأسمالي .

كرامة الإنسان كمنطلق لسيادة القانون في الشرق والغرب

وهذا هو السبب في أنه على الرغم من الخلاف العميق بين مفهوم سيادة القانون والشرعية في كل من الغرب والشرق ، فإنه تبقى في تقديرنا حقيقة أكيدة تقرب من بعيد بين المفهومين هي أن نقطة الانطلاق في

هذا فحسب ، وأما تعتبر المذاهب المتنادبة بسيادة القانون موجهة إلى الحركة الثورية للطبقة العاملة وبالذات بعد انشلاء الدول الاشتراكية على هذا الأساس (A) . وحتى إذا لم تعتبر هذه النظرة هي النظرة السائدة في الفقه السوفيتي ، فإن الذي لا شبهة فيه أن الشرعية الاشتراكية - ومن باب أولى الشرعية الثورية - لا تعترف بالقانون قيّداً على سلطة الدولة على نحو ما يؤكد مبدأ سيادة القانون .. إذ فضلاً عن رفض النظرية السوفيتية للتصوير القانوني للسلطة ، فإنها لا تصور القانون إلا مجرد أداة في خدمة هذه السلطة والتي تقبله أو ترفضه حسب تقديرها المطلق أنه يحقق الغايات البعيدة للاشتراكية .

وفي حدود هذا الفهم ، لا تعتبر « الشرعية الاشتراكية » قيّداً على سلطة الحكم وإنما هي قيد على غيرها من السلطات وعلى المحكومين .

- أما سيادة القانون - بمعناها التقليدي - وعلى الرغم من تنوع صورها في العالم الغربي - فإنها تركز على فكرتين أساسيتين : سياسية وقانونية :

- أما الفكرة السياسية : فهي أن الحكام والمحكومين مقيدون على حد سواء بالنظام القانوني القائم ، وأن هذا الخضوع الكامل من جانب الجميع لأوامر القانون ومذاهبه هو نتيجة حتمية للديمقراطية التي تنكر أن تكون إرادة الحكام قانوناً في المحكومين ، والتي تؤكد - على النقيض من ذلك - أن الشعب هو صاحب السلطة في أن يضع القوانين التي يخضع لها ويخضع لها حكمه على حد سواء ، على أن تكون « حقوق الإنسان » قيّداً على سلطة المشرع نفسه :

- وأما الفكرة القانونية : فمستمدة من

(A)
Juridical Dictionary, edited by : P. I. Kudryavtsev.

وكان وقتئذ نائباً لوزير العدل في الاتحاد السوفيتي ؛
الطبعة الثانية موسكو ١٩٥٦ - ص ٢ من ١٩٦ نقلًا عن
The Rule of Law & Socialist Legality.
في نشرة اللجنة المالية لرجال القانون رقم ٦ - ديسمبر
١٩٥٦ .

يفرض قيودا على حريات الرأي والاجتماع والجمعيات الا الى المدى الذى تكون فيه هذه القيود ككل ضرورية لكفالة وضع وكرامة الفرد ، ويتسائل « نورمان مارش » ... ما الذى تعنيه بوضع أو كرامة أو قيمة الفرد ؟ وهو يجيب عن ذلك بقوله : « ان هذا لا يمكن تأكيده الا في حدود واقع ما ، والمرشد الوحيد لتحديد المقصود به هو « العقل والضمير » اللذين يزود بهما كل انسان على نحو ما تنص عليه المادة الاولى من الاعلان العالمى لحقوق الانسان وهذا هو السبب في أنه توجد نقطة معينة يكون من غير المجنى عندها وضع صياغة عامة للقيم التى تقوم عليها سيادة القانون ، وإذا كان صحيحا أنه من المهم عزل العناصر التى يجب أن يحسب حسابها غير أنها لن تتخذ مادة وتقود حقيقة الا عندما توضع - بعقل ووعى - فى الاعتبار والتقدير وذلك فى صلاتها بظروف مجتمع بذاته » .

ويصبر عن هذه النزعة الفردية - التى تقوم عليها فكرة « سيادة القانون » - كثيرون من كتاب الغرب نكتفى هنا بأن نذكر بعض الأمثلة :

يقول نورمان مارش Norman Marsh ان عليها فكرة « سيادة القانون » - كثيرون من مختلفة فى النظم القانونية المختلفة غير أن هذه النظم القانونية المختلفة تشترك فى غاية واحدة هى تحقيق حرية السكان الانسانى الفرد والمحافظة عليها ضد أوجه العدوان التحكيمية من جانب السلطة ، فحرية الانسان فى أن يفرد شخصية فردية وأن يبقى واحدا لا توجد الا حيث يحوز مجالا قانونيا للتصرف مكفولا له ، وحيث يكون قادرا على الدفاع عن هذا المجال القانوني ، فالقانون والنظم التى تقام للمحافظة عليه تعوض الفرق فى القوة بين الفرد الضعيف وبين الجماعة القوية وذلك بخلق مجال تتسلاقى فيه الدولة والفرد على قسم المساواة وليس هناك أمام الفرد سوى باب واحد ينفذ منه الى التحقيق الكامل لذاته من أجل مصلحته هو ومن أجل مصلحة المجتمع من أجل شيء أسسى ، وهذا الباب هو الفرد نفسه » .

الفلسفتين تكاد تكون واحدة .. وهى الاعتداد بالانسان وقيمه وكرامته .. وهذا هو وجه الخطأ فيما يذهب اليه بعض الماركسيين فى دحضهم لفكرة كرامة الانسان كمنطق لسيادة القانون .. فنحن لانتك في أن ثمة فكرة مهيمنة على الفلسفتين الديمقراطية والمركسية وهى الانسان وحقوقه .

ففى الغرب :

تعتبر سيادة القانون عن قيم تكاد تتفق جميعا على احترام كرامة الانسان اخر .. ففى مؤتمر عقد فى شيكاغو سنة ١٩٥٧ عن « سيادة القانون كما يفهم فى الغرب » ، كان هناك افتراض بالتسليم بقيم معينة ، وأن لم يتفق على ترتيبها بحسب أهميتها ، فلقد أشار تقرير وضعه المؤتمر الى أن القوى والدوافع أو الرغبات التى أدت الى أن تظهر النظم الضرورية لسيادة القانون الى الوجود ، والاغراض التى خلقت هذه النظم لاشباعها ، والقيم والافكار الكامنة فيها - تنتهى الى أن « سيادة القانون » كما تتحقق فى الغرب - تظهر نتيجة أو ثمرة لتلك القوى والافكار والقيم ، وتبلورها فى نظم متسقة .. وأنه داخل نطاق هذا التعميم الواسع كانت إحدى المسائل التى أثرت هى الصلات بين سيادة القانون وبين الاعتراف بحقوق الانسان التى أعلنت فعلا فى اتفاق روما فى ٥٠/١١/٤ أو اعلان الامم المتحدة والسناتير المكتوبة (والدستور الالماني يبلغ فى هذا الشأن درجة عالية من التحديد) . ولقد أكد بعض المشاركين فى هذا المؤتمر أن سيادة القانون تكون غير مفهوم بدون اعتراف بمدى لهذه الحقوق . وليس يبدو أن هناك من ينكر - سواء اعترف أو لم يعترف بذلك صراحة - أن سيادة أمثال هذه الحقوق داخل نظام بذاته كانت مظهرا لسيادة القانون » .

ولقد كان الاستاذ « كايجي » محقا عندما وضع كرامة الشخص الانسانى أساسا لمبدأ سيادة القانون ، وقد كانت هذه هى نفس الفكرة التى صدر عنها مؤتمر دلهي لرجال القانون عندما قرر أنه لا يجوز للشرع أن

ولقد قال الدكتور « صمويل جونسون »
بحق : « ليس للمنظمات أرواح تسمى لانقاذها
أو اعماق تصل إليها ، والمجتمع الذي يتكون
من أفراد عاجزين عن أن يقيموا ويؤكدوا
أنفسهم كأفراد يتزايد انزلاقهم إلى حاوية
الأوامر الأيديولوجية » .

**وأما القيم التي تعبر عنها سيادة القانون في
الشرق فهي - بحسب بعض الآراء - كرامة
الإنسان أيضا**

ولقد كشف المؤتمر الذي عقد في وارسو
سنة ١٩٥٨ - والذي اشترك فيه مراقبون
من الغرب - عن اعتراف عام من جانب
المشاركين في هذا المؤتمر ، بأن « الشرعية
الاشتراكية » ليست مجرد أمر صياغة شكلية ،
وإنما هناك إصرار تام على أن أهم عنصر وأكثره
حسما في الشرعية الاشتراكية ذاتها « بما
تنطوي عليه هذه الاشتراكية من قيم والسؤال
الذي يثور عندئذ هو ما إذا كانت هناك في
فكرة الاشتراكية هذه قيم تماثل القيم التي
يعتبرها رجال القانون في الغرب مفترضة في
فكرتهم عن « سيادة القانون » ؟ ونستطيع أن
نجد في هذا الصدد آراء فقهاء فردية في مؤتمر
« وارسو » تعد ترديدا لآراء فقهاء الغرب ،
ومنها على سبيل المثال ما ذكره الأستاذ
تشكيفاديز من : « أن الشرعية الاشتراكية
تحمي حقوق المواطن السياسية وحياته ،
وهي تحمي حقه في العمل وفي السكن وكذلك
المصالح والحقوق الأخرى التي تمس أشخاص
المواطنين وأموالهم وحياتهم وصحتهم وكرامتهم
الإنسانية ، فحماية الحقوق والحريات المدنية
هي إحدى المكونات الأساسية للشرعية
الاشتراكية » .

غير أن هناك من جهة أخرى آراء أخرى في
تقرير المؤتمر ، وإن كانت تعترف بمسكان
لحقوق الإنسان ، إلا أنها تعتبرها مشتقة في
النهاية من مبدأ الاشتراكية ذاتها والذي يعد
لذلك أهم العناصر وأكثرها حسما في الشرعية
الاشتراكية . وهو يقول إن الشرعية الاشتراكية
لا تنكر حماية الحقوق الفردية لأن هذه الحقوق

مستمدة من مبادئ الاشتراكية في حين أن
الرأي الآخر يعطي الأولوية للحقوق الفردية .
وهذا يعني أن « سيادة القانون »
والشرعية الاشتراكية لا تعبران في الغرب
والشرق عن قيم إنسانية مختلفة ، وإنما هما
هما تعبران - إرادتا أو لم تريدا - عن قيم
إنسانية مشتركة تتجاوز الحدود القومية
والمذهبية ، ولكن الاختلاف الجوهرى هو في
الأساليب المختلفة التي تضطلع بها سيادة
القانون والشرعية موضع التنفيذ، ولعمق هذا
الاختلاف تظهر وكأنها تعبر عن اختلاف في
القيم .

سيادة القانون في الثورة

ما هو المقصود بالثورة ؟ وما هو مداها ؟

في تحديد الصلة بين الثورة وسيادة القانون
نرى من الضروري أن نبين أولا ما الذي نعنيه
بالثورة ، وما هو مداها .

ونحن نستبعد من نطاق هذا البحث
الانقلابات ونعصر حديثنا على الثورة بوصفها
التغيير العنيف عن معنى جديد من معنى
القانون . ولقد كان الأستاذ « ليفي بريل »
موقفا كل التوفيق عندما عرف الثورة بأنها
حركة اجتماعية عنيفة تقوم بقوة الشعب دون
مراعاة الأشكال القانونية بعصد إحلال نظام
قانوني محل نظام آخر ، فالهدف الأول
لثورة إذن هو القضاء على نظام قانوني قائم
وإحلال نظام قانوني جديد محله .. ولهذا
السبب تختلف الثورة عن الانقلاب اختلافا
واضحا من حيث صلات كل منهما بالقانون ؛
فالثورة تنطوي على معنى واضح ومحدد
للعلاقات السياسية والاجتماعية أولهما معا .
أما الانقلاب فهو عمل مادي صرف لا
يستهدف سوى قلب نظام أو تغيير أشخاص ،
وإذا هو مس النظام القانوني فإلى القدر الذي
يمكن الانقلابيين من تقلد السلطة ..

وفي حديثنا عن الصلة بين سيادة القانون
والثورات لن نتناول سوى ثورة تكون قد
أعلنت في صراحة عن برنامج معين يستهدف
تحقيق الديمقراطية أو الاشتراكية - أي

الحريتين السياسية والاجتماعية - ويكفل سيادة القانون ..

غير أن اعلان الثورة عن التزامها بتحقيق الحريتين السياسية والاجتماعية وسيادة القانون ليس من شأنه تجنب مشكلات دقيقة يثيرها التغيير الثوري في العلاقات الاجتماعية، ولعل من أهم هذه المشكلات :

أولاً : هل هناك تغيير في الوضع القانوني للحكومة الثورية قبل الثورة وبعدها وكيف تستطيع مثل هذه الحكومة متابعة سلطاتها في اطار من التنظيم القانوني يحميها ويحمي كيانها ؟

ثانياً : هل يستطيع القانون أن يوفق بين الأمان الذي يجب أن يتوافر للفرد وبين متطلبات الجماعة أم أن القانون يعجز عن هذا التوفيق ؟

ثالثاً : إلى أي مدى يستطيع القانون أن يلاحق التغيير الذي تشهده الثورة ؟ وهل هناك تعارض حقيقي بين مطالب الاستقرار كما يمثلها القانون وبين مقتضيات التغيير الثوري ؟

إن المقام لا يسمح بمواجهة بعض المسئلة للمشكلات السابقة ولذلك نكتفي بوضع خطوط عامة لها .

الوضع القانوني للحكومة الثورية قبل الثورة وبعدها ، ومدى خضوعها لتنظيم قانوني

لا يثور أي شك في أن القانون الذي يخضع له نظام ثوري يكافح من أجل وجوده، يختلف اختلافاً جوهرياً عن القانون الذي يجب أن يخضع له نظام تولد مركزه ، ولا جدال كذلك في أن ضمانات الأفراد وحرياتهم في ظل ثورة محتدمة ، أقل بكثير من ضماناتهم وحرياتهم في ظل أمن مستتب .. وإذا كان من المبادئ القانونية المقررة أن حماية السلطة لقيامها أمر حيوي ومشروع ، ألا أن هذه الحماية لا بد وأن تتم في نطاق اطار قانوني واضح ومحدد، وإذا كان من الواجب أن يلقي المذهب جزاءه ،

فإنه من الواجب ايضاً أن يتم ذلك وفقاً للقواعد الشرعية العادية في العقاب ومحاكماته . إن الدعوة إلى تقنين الثورة قد ارتبطت بالدعوة إلى أن يظل القانون دائماً أكبر من مراكز القوة وأعلى من إرادات الأفراد ، وحتى يتحقق ذلك لابد وأن يكون القانون صادق التعبير عن روح التطور لا عن السيطرة الواقعية لطبقة من الطبقات إما كان الاسم الذي تتسمى به .. ولن يكون القانون كذلك ما لم يتحرر من الوصف المهيمن الذي يطلق عليه في بعض الدول وهو أنه مجرد « أداة » في يد سلطة الحكم شأن أدوات القهر الأخرى، وما لم ينظر إليه على أنه المنظم لكيان الثورة في سعيها لتحقيق الحرية والرخاء للجمهير . ولا سبيل إلى هذه النظرة ما لم تفسح الثورة المنتصرة إيمانها في القانون ، فتبدد وهما خطيراً يقيم التعارض والعدا بين القانون والثورة .. في حين أن الثورة - في نهاية الأمر - فكرة قانونية على نحو ما ، وليس في خضوع السلطة الثورية للقانون انتقاص من قدرها ، ذلك أنها لا تجد مبررها إلا في تحقيق كرامة الإنسان وهو نفس الهدف الذي يجب أن يكون غاية أي قانون جدير بهذا الاسم ، والجدير حقاً بأن يطلب أن تكون له السيادة في السلم والحرب ، وفي الظروف العادية والثورية على حد سواء . ونود أن نؤكد أنه ليس في احترام سيادة القانون ما يهدد أمن الثورة أو سلامتها ، فالإجراءات التصفية - ولا يفر من وصفها هذا أن تفرغ في صورة قانون - ليست السبيل لحماية النظام الثوري ، وإنما يستمد هذا النظام حمايته من داخله وليس من خارجه ، وحماية النظام الثوري من الداخل تعني أن تلتزم الثورة بمبادئها وألا توجد هوة بين ما تعلنه وبين ما يجري عليه التطبيق ..

مدى قدرة القانون على التوفيق بين أمان الفرد وحقوق الجماعة

ليست هناك شبهة في أن مشكلة التوفيق بين حقوق الفرد وسلطة الجماعة مشكلة من

انتقاما وانما يستهدف توفير الكرامة الانسانية للملايين وبلا استثناء ، ذلك أن الثورة الحقيقية لا يمكن أن تستهدف تصفية اشخاص ، وانما هي تصفى فحسب الأوضاع المناهضة لنظامها الاجتماعى .

مدى ملاحقة القانون للتغير الثورى ومشكلة التعاون بين جمود القانون ومقتضيات التغير

نطالع فى الكثير من الكتابات وجهة نظر تدعى أن القانون أداة عاجزة عن ملاحقة المفاهيم الثورية ، وعن تحقيق أهدافها .. ولاشبهة فى أن مبدأ سيادة القانون - حتى فى أضيق تفسيراته - يوجب أن تحترم أن القوانين القائمة الى أن تُلغى بأداة تعادلها فى القوة ، وليس من حق القضاء أو السلطة التنفيذية أن تتدخل من هذه القوانين أو أن تعطى تنفيذها ، ولا يجدى فى الدفاع عن هذا التعطيل القول بأن القانون متخلف عن مفاهيم الثورة ، أو أن هذا القانون صار متروكاً مع بداية الثورة إذ فضلا عن البهالة التى سوف تترتب على الأخذ بهذا النظر - نتيجة للتفاوت الكبير فى تقدير ما إذا كانت القوانين المناهضة أو غير المناهضة لمبادئ الثورة - فإن أخطر ما ينطوى عليه هذا الاتجاه هو أنه يسمح لرجل الإدارة أو للقاضى بأن يعلن تقديره الشخصى فوق قاعدة قانونية عامة لم تر الحكومة الثورية نفسها الغامعا بالطريق المرسوم .

على أن مشكلة التعارض بين الاستقرار القانونى والديناميكية الثورية لا تثار فى صدد تعطيل بعض التشريعات التى توصف بأنها معادية للمفاهيم الثورية ، وانما تثار المشكلة بكل قوتها فى تحديد موقف القانون من التغيرات الثورية الحتمية فى العلاقات الاجتماعية ، وبالتالى امكان التوفيق بين مطالب الاستقرار التى يمثلها القانون وبين مقتضيات التغيير كما تمثلها ارادة الثورة . وربما بدا أن هذا التوفيق أمر مستحيل ، إذ كيف يتصور أن تقيد « ديناميكية » الثورة فى « قوالب » القانون ؟ ومن أسف أن وجهة

عقد المشكلات فى النظرية السياسية وهى أكثر تعقيدا فى نظام اجتماعى يتحول نحو الاشتراكية :

لقد كان التعارض - فى الديمقراطيات التقليدية - قائما بين سلطة سياسية (تحجم عن التدخل فى النشاط الاقتصادى) وبين حقوق سياسية يمارسها الافراد .. وكانت الحلول السياسية والقانونية كافية فى هذا المجال .

أما التعارض فى نظام اجتماعى يتحول نحو الاشتراكية ، فهو تعارض بين مقتضيات التنظيم الاجتماعى الاشتراكى وبين الحريات السياسية ذاتها .. ولقد واجهت الديمقراطيات الاجتماعية نوعا من هذا التعارض بين الحقوق الاجتماعية والحريات السياسية ، إذ كان من شأن اعطاء المزيد من الحقوق الاجتماعية الأساس بكثير من الحريات السياسية .. غير أن التعارض فى نظام اجتماعى يتحول نحو الاشتراكية أكثر حدة ، لأن الامر لا يقتصر عندئذ على مجرد انتقاص من حق الملكية ، وانما هو يتجاوز فى بعض الاحيان الى انتزاع هذا الحق كلية حيث يقدر أنه ينطوى على الاستغلال .. ليس هذا فحسب ، وانما قد يعالج الحريات السياسية من زاوية جديدة غير مألوفة فى الديمقراطيات الغربية ، يكون من شأنها التضييق على هذه الحريات ..

والامر الجوهرى فى التنظيم القانونى لهذه المسائل كلها ، هو أن يحاول القانون أن يوفق بقدر الامكان بين ما يجب أن يتوافر للفرد من امان وطمأنينة وبين ما تقتضيه متطلبات الجماعة من اتساع وعمق فى تثبيت معانى الحرية ..

وإذا لم يكن من حق قلة من الافراد أن تنسحب بما قد تلعبه من حريات لها - فى حقيقتها امتيازات تتنافر مع الصفة العامة للحرية - الا أنه من واجب المجتمع الاشتراكى أن يجرى عملية انتزاع هذه الامتيازات فى حدود تنظيم قانونى يتسم بالعمومية والتجريد ، وفى رحاب نظام لا يستهدف

النظر هذه قد اعتنقها جانبان متطرفان : يرى أحدهما أن أزمة الحضارة المعاصرة هي في « انهيار القانون » أو سقوطه ، ويرى الجانب الآخر أن في قيام الاستقرار القانوني تهديدا لكاسب الثورة .

أما وجهة النظر الأولى : فتعبر عنها جبهة من فقهاء الغرب البارزين ، فالفقيه «دروبييه» يوضح في نظريته العامة عن القانون أن القيمة الاجتماعية الأولى التي يجب على القانون أن يحققها هي « الأمان القانوني » - ويقول أنه إذا اختلفت هذه القيمة الأساسية ، فلن توجد قيمة أخرى يمكن أن تبقى - حتى أن لفظ التقدم نفسه سوف يفقد مثار سحرية ، كما تزايد المظالم القاسية مع الفوضى ، يترك القانون مكانه لما أسماه أحد المعاصرين «الفكرة السياسية» أي مجرد اعتبارات السلامة ، وعندئذ لن يكون أمام الفقيه ما يقوله ... واعتبر الفقيه « Ripert » أن غلة التشريعات المعاصرة هي أنها فقدت القدرة على تحقيق غايتها الأولى وهي الاستقرار ، بل اعتبر أن الأنظمة القانونية تعاني أزمة عنيفة أسماها « انهيار القانون » أو سقوطه ، وأن مصير هذا الانهيار هو القوانين ذاتها التي لم تملجأ العدالة ، أو التي عجزت عن المحافظة على النظام . وانهيار القانون مرتبط في نظر « ريبير » بأغفال « قانونية عامة » هي غاية ما انتهت إليه الحضارة . وهو يرى أن الأمر في حاجة إلى دفاع عن « ثبات القانون » Statisme du droit ، وأنه للمحافظة على الحضارة ، يجب أن يفرض على المشرع احترام المبادئ القانونية التي تركز عليها هذه الحضارة (٩) .

ولا شبهة في أن الاستقرار أو الأمان القانوني هو إحدى الغايات الكبرى التي يجب أن ينشدها أي تنظيم قانوني جدير بهذا

الاسم ، ولايشد عن ذلك «نظام ثوري» غير أنه لا يجوز أن تكون الدعوة إلى هذا الاستقرار ستارا لتجميد الأوضاع الاجتماعية كما هو شأن بعض رجال القانون الذين يتجاهلون مطالب العصر الثوري الذي نعيش فيه ، والذين يصنق عليهم وصف الاستاذ « ليفي بريل » أنهم « ينظرون بجزع إلى الثورة لا بسبب طبيعتهم المحافظة فحسب ، بل لأنها تهدم أسس عالمهم » ، وإن كان يعيب رأي « بريل » تعميمه حين زعم أن رجل القانون محافظ بسبب طبيعة مهنته ، فهو يعيش في عالم ساكن وكل حركة تفزع لا بسبب أنها « تزيل الحدود » حسب وصف « بودلير » لها ، بل لأنها تمس حقوقه ، ولذلك يتجه رجل القانون اتجاهها طبيعيا إلى أن يكون شعاره « السكون لا الحركة » ومثله الأعلى هو عالم آل لا يتغير ، ولهذا نستطيع أن نفهم سر تجمعه للثورة ، سواء في لفظها أو في معناها (١٠) .

أما وجهة النظر الثانية : فهي تنطرف في إقامة العداء بين الثورة والقانون منعدة بجمود القانوني - واذل كان مما يناهض روح القانون أن تستحيل الدعوة إلى استقراره لتجميد العلاقات الاجتماعية فإنه لا يقل عن ذلك عدوانا على فكرة القانون ، رفع شعار الثورية للانقلاب من كل قانون ، ودون تمييز بين الرغبة المشروعة في الأمان القانوني وبين مناهضة صارخة لروح التطور . ومن أسف أن الفقه السوفيتي قد رفع هذا الشعار منذ الثورة الروسية ، فأقام العداء - منذ البداية - بين الثورة والقانون . وقد كانت نقطة الانطلاق في هذا الفقه أن سلطة الدولة - في فترة دكتاتورية البروليتاريا - سلطة مطلقة لا حدود لها الاتخضع بطبيعتها لأي قيد قانوني تأسيسا على تمثل هذه السلطة فعلا ماديا عنيفا لا يحده قانون وعلى أن دكتاتورية الطبقة العاملة هي حكم الطبقة المسيطرة اقتصاديا التي تملك حق العنف وهو مصدر السلطة والقانون . وقد انتقلت هذه النظرة من الفلسفة السياسية

(٩) يراجع في هذا مؤلفي الاستاذ دروبييه

Ripert : Le Declin de Droit.
Les Forces Créatrices de droit.

طبعة ١٩٤٩ للنسخة من جال د - طبعة ١٩٥٥ ص ٩٢ ،

٤١٥

Abbé, Jean Boulter : The Law above the Rule of Law, 1958.

(١٠) نقلا من مؤلف الابن فوجان بوليين

الى النظرية القانونية ، فقصي معنى العنف على مستقبل النظام القانوني .. والا فأي معنى لقانون يعلوه العنف في مراتب القيم ؟!

لقد كان من شأن هذه الدعوة ، ومن شأن التفسير الماركسي للقانون على أنه مجرد بناء فوقى لخدمة المصالح الاقتصادية ، أن يجرّد « القانون » من كل احترام وأن لا ينظر اليه الا على أنه مجرد أداة لخدمة سياسة الحكام .. وانه لأمر مؤكد أن التجارب التي ترسبت في أعماق الفكر الروسي هي التي قوت الاتجاه الأطلسي في الفلسفة السياسية السوفيتية ، وكذلك كان للنظام الاستبدادي (الذي عاشت روسيا في طله قرونا طويلة) أثره الواضح في طبع الفلسفة السوفيتية للقانون بهذه الصفة المطلقة في إنكار أي قيد على سلطة الدولة .

والأمر الذي لا شبهة فيه أن « ثورة اجتماعية » تأخذ بمبدأ « سيادة القانون » سوف ترفض الحلين المتطرفين السابقين :

— فهي مدفوعة — تحقيقاً لأمانى الجماهير — الى أن تغير « بالقانون » المبادئ الاجتماعية ، فالقانون المتحرك أذن هو اهتمامها في التغيير .

— غير أنها ملزمة — بحكم تعهداتها باحترام الحرية — بأن ترحي للقانون حرمة ، ولن تكون للقانون حرمة أو سيادة اذا نظر اليه على أنه مجرد أداة في يد السلطة ، فمثل هذه النظرة تهدد النظام القانوني بالانهيار .. وحسبنا ماقرره الأستاذ « رينيه دافيد » — وهو أحد الثقاة الذين أنصفوا النظام السوفيتي — من أن نظرة السوفيت الى القانون على أنه مجرد أداة ، خطر على مكانة القانون وتبعاً لذلك خطر على مبدأ الشرعية .. فمبدأ الشرعية يعني — كما لا مفر منه — من واقعة أن القانون لم يعد يعتبر قيمة مطلقة ، بل حتى لا يربط بقيمة مطلقة ، ويزيد من هذا الخطر أنه اذا اعتبر « القانون » مجرد أداة بسيطة في خدمة سياسة الحكام ، فإن مؤدى ذلك أن يوضع الحكام أنفسهم فوق القانون . في حين أن المعنى الأول لسيادة القضاة القانونية أن تكون ذات قيمة مطلقة تحل على

الحكام سلوكهم ، وتحول دون أوجه التصسف التي يطوع ارتكابهم لها استحوادهم على القوة وتصرفهم فيها وفرض ارادتهم عن طريقها .. ولقد أظهرت التجربة السوفيتية أن الضمانات التي اقترحتها الفقه السوفيتي بديلة عن مبدأ سيادة القانون — لم تكن فعالة ، وأن أوجه التجاوز في عهد « ستالين » — التي ندد بها « غروشوف » في المؤتمرين العشرين والثاني والعشرين للحزب الشيوعي — تشهد بأن هناك خطراً في أن يفرض الحكام سيادتهم بحجة حماية النظام .. وأن الاعلان بأن القانون خاضع للمصالح الاقتصادية والسياسية ، من شأنه المساس باحترام القانون ، وأنه لم يغب عن الفقهاء السوفيت الخطر الكامن في الربط بين القانون والسياسة ، وهم وإن لم ينكروا المبدأ ، الا أنهم اجتهدوا في أن يستخدموا بعض الصيغ التي تصوروا أنها تعالج هذا الخطر (١١) !

إن النظرة الاشتراكية السلمية — المبراة من العقد النفسية التي أورثها الحكم القيصري للشيء الروسي — توجب أن تكون للقانون السيادة التي هي له في نظام ديمقراطي غربي وأن تكون هذه السيادة الحائل المنيع بين السلطة المتزايدة حتماً في نظام اشتراكي وبين الانحراف .



سيادة القانون في نظام اشتراكي

الزعم بارتباط سيادة القانون بقيام الملكية الخاصة

اذا كانت دولة القانون قد ارتبطت تاريخياً بقيام الفرد ، فهل تندثر سيادة القانون بانقراض الفردية الاقتصادية ؟

إن التيار الغالب في الفكر الغربي يؤكد أن النظام الاقتصادي الفردي — الذي يقدر

(١١) يراجع في هذا كله مؤلف الأستاذ René David عن المصدر السابق النشرات من ١٤٥ - ٩٤٧ ص ١٩٣ - ١٩٦ .

الكسب المادى للسلع أو الثروة .. ولذلك يكون من الخطأ تصوير حق الملكية على أنه مجرد تعبير عن امتياز اقتصادى ، لأنه لو كان الأمر كذلك لما أدى اختفاؤه إلى الاضرار بأفراد ، ولذلك نستطيع أن نقول دون خجل أن الملكية الخاصة مقدسة إلى المدى الذى تكون فيه شرطاً لنمو الفرد والدفاع عنه وإلى الحد الذى لا يقيم حقه فحسب ، وأيضاً وظيفته الاجتماعية » .

ويسائر كثيرون من الفقهاء الغربيين هذه النظرة ويصلون إلى أقصى مداها حيث يقررون أنه لن تقوم سيادة للقانون سواء فى نظام ديمقراطى موجه أو فى نظام اشتراكى .. فبرى الاقتصادى « هايك » أن التوجيه يفرض نظاماً من العمل الرسمى يجعل من المستحيل تنبؤ الفرد بما سيحدث له ، وهو يرى أن انعدام التنبؤ يعنى اهدار سيادة القانون ، لأن سيادة القانون تعنى فى نظره تقييد الحكومة - فى جميع تصرفاتها - بقواعد محددة ، ومعلنة من قبل ، وهذه القواعد تجعل من الممكن التنبؤ بتأكد تام أية سلطة هى التى سوف تستخدم قوة الإكراه فى ظروف معينة ، وهذه المعرفة هى الأساس الذى يجرى عليه تنظيم أمور الفرد » .



والذى نراه أن الربط بين سيادة القانون أو الحرية من جهة وبين النظام الاقتصادى الرأسمالى من جهة أخرى ، تحكم لا يقبله المنطق ذلك أن الاعتراف للفرد بحقوق معينة فى مواجهة الدولة وكفالة هذه الحقوق قانوناً أمر لا شأن له بالنظام الاجتماعى ، وما إذا كان فردياً أو اشتراكياً :

أولاً - فمن الخطأ البالغ التأكيد بأن سيادة القانون بتطبيق مذهب اقتصادى معين ذلك أنه لا يترتب على الأخذ بمبدأ المشروع الخاص فرض سيادة القانون ، كما أنه لا يترتب حتماً على التوجيه الاقتصادى أو الاشتراكى اهدار هذه السيادة .. وبعبارة أخرى أن سيادة القانون ليست مرتبطة بشكل خاص من أشكال التنظيم الاقتصادى فالجميع الذى يقوم اقتصاده على

حق الملكية الفردية - هو وحده الذى يسوده حكم القانون ، وأن الحريات المدنية والمشروع الخاص توأمان غير منفصلين وأنهما لا يمكن أن يعيشا إلا فى وحدة غير قابلة للانقسام ، ويساق للتدليل على صحة هذا الفرض أن الحريات المدنية بلغت أقصى نموها فى الفترة التى اتسع فيها المشروع الخاص إلى أقصى حدوده ، وأن الصناعة الحديثة تبعت من نفس الثورة ضد سلطة الدولة الاستبدادية تماماً كما فعلت النزعة الديمقراطية الحرة وأنه لا ينقض من قيمة هذا التدليل مسلك الصناعة العمل حيث تهرد - فى الغالب - الفضائل الديمقراطية فى حياتنا العملية ، والواقع أن جبهة الفقه الغربى قد ربطت منذ وقت بعيد بين سيادة القانون وبين مذهب اقتصادى يقوم على أساس عدم تدخل الدولة فى المجال الاقتصادى وتقديس الملكية الفردية ، واعتبرت أن هذه الفردية الاقتصادية هى الأساس الوحيد لقيام الحريات وسيادة القانون ، بل ولا يزال الجانب الأكبر من الفقه الغربى حتى الآن يرد الحريات التقليدية كلها إلى حق الملكية رابطاً مصيرها بمصير هذا الحق ويصعب أن نضمن هذه المسألة آباء هؤلاء الفقهاء كلهم ، غير أننا نكتفى بتسجيل بعض الآراء التى تعبر عن هذا الاتجاه فلنقتصد رأى الأستاذ Reuter مثلاً أن المشكلة التى تواجه عصرنا هى : « إلى أى حد يمكن أن تستمر الحريات الدينية والثقافية بعد اهدار حرية التملك ؟ » وقال « هو ريو » أن الحرية الفردية هى عملاحية المشروع الخاص ودافع الأستاذ Trostky عن فكرة أن حق الملكية حق مقدس ومنبع الكرامة الانسانية حيث يقول :

« ان اعلان الحقوق لا يرى فى الملكية المزايا المادية والثروة بقدر ما يعدها وسيلة للدفاع عن الفرد وحمايته ، فيجب أن يكون الفرد قادراً على أن يكتسب بابتكاره وعمله سلعة تكفل وجوده واستقلاله ، وبالتالي تمكنه من أن ينمو وأن يحترم ، وأن هذا الاحترام للكرامة الانسانية سواء من جانب الأفراد الآخرين أو الدولة هو الذى يدعو إلى قيام حق الملكية وتبريره ، أكثر مما يدعو إليه

وما تفرع عنه من حقوق تتعلق بالنشاط المادى والتجارى لا يمكن أن تبلغ فى أهميتها أو قداستها أو استقرارها مبلغ الحريات الصميقة بشخص الانسان والى بعد المساس بها مساسا بكرامته واعتباره، ومن المعقول أن يتطور وضع حق الملكية مع تطورات الجماعة ومطالبها وأن يتحدد مضمونه وفقا لهذه المطالب دون أن يدعى أن سيادة القانون قد أهدرت لأن الدولة أرادت أن تقلم أظافر الملكية الطاغية .. وهى هذه الملكية التى يضفى عليها - المدافعون عن الرأسمالية - قداسة مبالغا فيها ، وقد فاتهم أنه يجب ألا ينظر الى « حق الملكية » فى ذاته وإنما من حيث أنه أداة لرفاهية الانسان وغيره فهو وسيلة وليس غاية ، وإنما الغاية الجديرة بحماية القانون هى حق الانسان فى الحياة ، فإذا كان حق الملكية فى صورته المطلقة ينتهى الى قيام الاستغلال والتسول والبطالة والربع من المستقبل الفاض بالنسبة للملايين، فكيف يقال بعد ذلك أنه مصدر الكرامة الانسانية ؟ لقد تنبه الى هذه الحقيقة اقتصاديون غير اشتراكيين - مثل الاقتصادي الملكى Villenae Bargement - وسجلوا فى دراساتهم أن الحريات التى تكفلها الحرية الاقتصادية هى حرية الموت جوعا ، ولذلك لا يجوز أن يقال عن النظم الاجتماعية أو المذاهب الاقتصادية التى تريد أن تحصى الملايين من لعنة هذه الحرية أنها نظم لاسودها حكم القانون ، لأنه اذا كان الأمر كذلك فهو إذن قانون غير مشرف وغير انساني ، لأنه قانون الغاب .

فسيادة القانون إذن أمر مستقل عن طبيعة النظام الاجتماعى ، وما اذا كان اشتراكيا أو رأسماليا ، بل وهى ظاهرة مركبة ومعقدة لا تتوافر بالنظام الاجتماعى الذى يوصف دون غيره بالحرية أو الديمقراطية ، وإنما هى تتوافر بالمرج بين النظامين والتزاوج بين الاساسيين الاجتماعى السياسى .

ثانيا - والمخطا الثانى الذى يرتكبه المنكرون لسيادة القانون فى ظل نظام موجه أو اشتراكى هو تصورهم أن لسيادة القانون صورة واحدة لا تتغير ، وهو أمر غير صحيح

المنافسة والمشروع الخاص لا يحتكر الحرية وسيادة القانون ، كما أن النظام الاشتراكى لا يكفل بذاته الحرية وسيادة القانون ، وإنما يتوقف الأمر فى النهاية على أسلوب الحكم وإرادة المحكومين وتصميمهم ، فتتوافر الحرية وسيادة القانون فى أى نظام للحكم يعترم آدمية المحكومين ، ويصر المحكومون من جانبهم على التمسك بالحرية وسيادة القانون ويقاومون بصلابة أى اعتداء عليهما .

وحتى اذا نحن اعتبرنا سيادة القانون متوقفة على الاعتراف بالحريات التقليدية ، فإن اهدار حق الملكية أو التضيق عليها لا يؤدى بداهة الى اهدار سيادة القانون طالما احترمت الحريات ، ووجه المبالغة فى موقف الرأسمالية أنها تضخم حق الملكية الى حد يتلعب معه سائر الحريات والى حد يجعلها تعتبر المساس به مهذرا للحريات كلها ! وإذا كانت الآراء التى تمثل التيار الغالب فى الفكر الغربى تنتهى الى نتيجة واحدة هى أن النظام الذى يقدس حق الملكية هو وحده الذى يسوده حكم القانون ، فإن كتابا محايدين قد أوضحوا أنه اذا كان هناك أمر مشترك بين الاقتصاد الحر والليبرالية فهو فقط الرغبة فى التحرر من انقياد الحكومة، غير أن المذهبين يختلفان اختلافا عسيفا فى الفرض من هذا التقييد : « فالليبرالية » تريد الحرية التى تحقق ازدهار الأفراد وتكفل حرية التعبير عن الراى .. أما « الاقتصادى الحر » فلا يربد الا تلك الحرية التى تكفل تشغيل رأس المال تشغيلا مربحا دون مبالاة بالنتائج العملية لهذا الربح ، ولذلك يكون من المحتوم قيام التعارض بين التيارين، لأنه حيث يسيطر مذهب الاقتصاد الحر ، فإن يسمح بالحريات التى تجرؤ على مناقشة الأسس المادية النفعية التى يقوم عليها نظام اقتصادى حر ، ولقد سجل الكتاب المنصفون أن « العمل الكبير » قد عاق حرية التعبير وعاقب الفكر الجريء المستقل (وظهر ذلك سواء فى الأوساط العلمية أو الصحافة العالمية) وأنه آمن لسنوات كثيرة بأن مصلحته تقتضى أن تكون جماهير الشعب طيبة وغير منطقة .

يضاف الى ما تقدم أن « حق الملكية »

ولكن اذا فهم القانون على وجهه الصحيح وهو « أنه تعبير حي ومتطور عن المعاني والقيم السائدة في مجتمع ما » ، فإنه لا مانع يحول دون أن يتحرر معنى سيادة القانون . وإذا كان الأمر كذلك فإنه لا مانع يحول دون كفالة سيادة القانون في نظام موجه .



وإذا كان من الخطأ الربط بين « سيادة القانون » ونظام اجتماعي يمينه هو النظام الرأسمالي الذي يقوم على أساس تصوير خاص لوظائف الدولة ومهامها ، فإنه لا يقل عن ذلك خطأ نفى قيام سيادة القانون لمجرد اعتناق النظام فكرة التوجيه الاقتصادي بحجة انعدام الأمان والتنبؤ في ظلها .

فوجهة نظر الدوائر المالية الواسعة النفوذ تروج للفكرتين مما ، حيث تماثل بين سيادة القانون وبين وجهة النظر الرأسمالية في وظائف الدولة ، كما وأنها تصم كل اتجاه معارض للرأسمالية ، ولا سيما التوجيه الاقتصادي . بأنه إهدار لسيادة القانون وعلى الرغم من أن هذا التصور « يعبر عن سيادة القانون بمقتضاها المعارف عليه - بل يعبر عن وجهة نظر اقتصادية فردية في وظائف الدولة - فإننا نود أن نناقش هذا التفسير الاقتصادي الرأسمالي لسيادة القانون لنرى ما إذا كان يمكن أن يثبت أمام فحص :

فهل تحرر الاقتصاد غير الموجه من عدم التبصر الذي يدعى أنه أساس التوجيه الاقتصادي ؟

وهل يتطابق عدم التبصر هذا والاستبداد أم أن هذه الإجراءات التي تتم والتي ما كان يستطيع أن يتنبأ بها قد تحقق سيادة القانون كمنى شعبي وان خرجت على معاصها التسلبي الذي تريد الرأسمالية فرضه عليها ؟

لقد أجاب « فريدمان » على السؤالين بتفصيل فأوضح أولا أن « هايك » ومن شايعوه ينفون أن المجتمع غير الموجه لا يخلو هو أيضا من انعدام التبصر . فالعديد من الحقوق والمصالح الحادة تهدرها تصرفات غير

حتى بالنسبة للنظم الديمقراطية الغربية ذاتها ، وإنما الصحيح أن فكرة سيادة القانون تأخذ مظاهر مختلفة باختلاف النظم القانونية وباختلاف الأزمنة ، ولا يهدر الفكرة التحويرات التي توجب إدخالها ظروف قاهرة ، طالما لم ينافر في جوهرها ، وهو خضوع سلطة الحكم للقانون الذي يضمه المحكومون أو ممثلوهم ، وسيادة القانون قيمة من القيم الديمقراطية يجب أن تتخذ من الصور ما يتفق مع الصور الجديدة التي تتشكل فيها سلطة الحكم على خلاف ما كان سائدا في القرن التاسع عشر ، ولا يستطيع منصف أن ينافر اليوم في أن « دولة الرخاء » قد صارت حقيقة من حقائق العصر الذي نعيش فيه (وهي حقيقة راسخة لن تزول ، بل ربما كان الأكثر احتمالا أن تزداد سلطة دولة الرخاء نتيجة الزيادة الحتمية لوظائفها) ولهذا كان لزاما أن يتحدد معنى سيادة القانون في ضوء هذه الحقيقة ، ولقد كان الفقيه Friedman محقا عندما قال : « إن محاولة العودة إلى نظرية التسبب الاقتصادي المحض وانقاص نشاط الدولة إلى وظائف العهد القديم كجاذبية للضرائب وكثير إلى ومارس في هذه المحاولة هي في الحقيقة رفض الاتجاه المضادة الحديثة بكل قوتها نحو تزايد سلطة التشريع التفويضي ونحو تزايد قوة البيروقراطية ، ونحو تناقص سلطة البرلمان ، ونحو تركيز سلطات الدولة سواء في الضرائب أو الاشراف على عديد من الصناعات الأساسية هذا الاتجاه حقيقة لا يمكن انكارها ، ولا يمكن التخلص منها » .

ولقد اعتبرت مظاهر هذا الاتجاه عند Keeton ومن تابعوه وتابعوه دافعة للنظم الديمقراطية إلى حافة الدكتاتورية ، أو متجهة بها في الطريق إلى موسكو ، والواقع أن هذه المظاهر ليست في ذاتها وجهها للدكتاتورية ، وإنما هي تعبيرات عن القوى الاجتماعية ، التي لم يعد الحكام في حل من تجاهلها ، أو لم يعودوا يستطيعون تجاهلها ، وهي بدون شك تضغط كثيرا على الدساتير والقوانين التي وضعت في ظروف العالم المعاصرة ، وبذلك تحول دون عملها على وجهها القديم .

الحرية للمشروعات القوية في أن تتدخل في هذه الأمور . والفرق بين التدخل عن طريق التصرف العام والتدخل الذي يتم عن طريق المشروعات الخاصة القوية هو أن التدخل العام يخضع لنوع من الرقابة العامة والسياسية ، وكذلك يخضع للالتزامات واسعة في التفويض المالي . في حين أن التدخل الخاص يتقدم ويتحكم دون رقابة ودون تعويض ، ولهذا طالب الأفراد والجماعات بحماية الدولة عن طريق القوانين المناهضة للاحتكارات لتقييد أوجه التعسف في الاختراعات وفرض العقود الجماعية في الصناعية وغير ذلك من الوسائل .

ويقول « فريدمان » أننا لو سألنا « هايك » في وجهة نظره لتركنا المصالح الخاصة نتحكم في شئون الجماعة باسم سيادة القانون التي لا معنى لها عند « هايك » سوى كفالة استمرار هذه المصالح وثباتها ! ولكن أي انتهاك للقانون في أن تعرض هذه المصالح لبعض من عدم الاستقرار والتضحية في سبيل تحقيق مصلحة عامة أسيمى : كتوفير مستوى معين من الصحة للمجموعة أو التنمية الاقتصادية أو فرض رقابة على مصادر الثورة القومية ؟

ويرى « فريدمان » أن هناك مبادئ يمكن باتباعها المحافظة على أسس القانون والحرية الفردية في مجتمع موجه . وهذه المبادئ ، أي نظره هي :

أولاً - تأكيد رقابة القضاء الإداري لمنع التدخل غير المشروع أو التعسف في التقدير من جانب السلطات العامة وهو يشير إلى السبل العديدة التي يمكن انتهاجها في تحقيق هذه الغاية تبعاً لاختلاف النظم القانونية . فللدول الخيار في أن تتبع النظام الكامل للمحاكم الإدارية على غرار النظام الفرنسي ، أو تنتهج نظاماً يوفر حماية المواطن عن طريق الرقابة العادية من جانب المحاكم العادية ، أو الجمع بين النظامين ، بأن تكون الرقابة في الأصل للمحاكم العادية ، على أن يرفع الطعن في نطق القانون إلى محكمة إدارية عليا . ويرى « فريدمان » أن الخيار بين أي من هذه النظم هي مسألة

متنبأ بها وبدون تعويض ، ويوضح أحد الأحكام الصادرة من المحاكم الإنجليزية سنة ١٨٩٢ كيف يستطيع اتحاد أقوى اقتصادياً أن يعظم عملاً مشروعاً منافساً دون أي جزاء قانوني . كما أنه قد تحطمت مصالح واختراعات مشروعة نتيجة التكييف القانوني « لبراءات الاختراع » وتفسيرها على أنها لا تخول الاستثناء باستخدام اختراع ما ، بل وأيضاً السلطة في عدم استعماله ، كما أن الاتحادات القوية داخل صناعة ما (عن طريق نظام التراخيص المتبادلة أو المشتركة واستناداً إلى سلطتها في أن ترهب مخترعاً غير مقتدر مالياً وأن تخرجه من النزاع تستطيع أن تكره هذا المخترع على بيع اختراعه أو أن تضع قيوداً على الإنتاج .

هذه الأمثلة القليلة - وأكثر منها يحدث في العمل - توضح أنه إذا كانت سيادة القانون تنافراً حقيقة مع انعدام التبصر لوجب أن يعتبر الاقتصاد الرأسمالي مهدداً لسيادة القانون ، لأنه لا يمكن أن تنظم في ظل أمور الأفراد على أساس تنبؤ واضح ومؤكّد ، بل ربما كان انعدام التبصر في الاقتصاد الرأسمالي أفدح في ضرره : فمستوى المثل في اقتصاد موجه - الذي قد تزج ملكيته بسبب توسيع مدينة ما ، سوف يعرض استناداً إلى قوانين ولوائح توضع مقدماً في حين أن رجل الأعمال الذي يكره على تصفية أعماله بسبب تصرف اتحاد ما مضاد له ، لن يجد تعويضاً . ففي الاقتصاد الموجه تضع القوانين واللوائح - مقدماً - معايير لما يعتبره « هايك » أمورا لا يمكن التنبؤ بها وتجعل هذه الإجراءات أقل ضرراً من تلك الأمور التي تحدث في اقتصاد رأسمالي .

وأوضح « فريدمان » ثانياً أن الإجراءات التي يتخذها الاقتصاد الموجه (والتي تعد في نظر « هايك » مهددة لسيادة القانون لأنه لا يمكن التنبؤ بها) أكثر تحقيقاً لسيادة القانون من مسلك النظام الرأسمالي ، فلقد تحطمت المصالح المشروعة في ظل هذا النظام الأخير نتيجة انعدام الإشراف العام (فيما عدا التقليل) على الأمور الخاصة ، في حين تركزت

قانون ادارى ولا يعبر عن نظرية قانونية
اساسية .

ثانيا - غير أن فرض رقابة على تصرفات
الادارة لن يحقق غرضه ما لم يتوسع في وضع
معايير محددة لضبط التدخل العام في الحقوق
الفردية .

ثالثا - يجب على المشرع أن ينتهج سياسة
كريمة في الضمانات ، فيتوسع في مبدأ
التعويض المعقول عن التدخل في المصالح
الفردية المشروعة وأن يكفل تنفيذ هذا المبدأ
عن طريق إتاحة الفرصة للظعن في التقدير
أمام معاكم متعددة الدرجات .

رابعا - لا يستقيم مع سيادة القانون فرض
آية حصانة على تصرف من تصرفات الادارة ولئن
كانت التطورات التشريعية الحديثة قد قطعت
شوطا بعيدا في هذا الاتجاه إلا أنه لا تزال
بعض أوجه الشذوذ قائمة .

خامسا - المناقشة والعلمية والإشراف
السياسي عن طريق البرلمان والرأى العام إذا
هى تضافرت مع الوسائل الادارية (من
تفتيش تمارسه سلطات إدارية عليا)
من شأنها أن توفر للمواطن الحماية الضرورية
في مجتمع موجه . (١٢)



وإذا كان من الممكن وضع ضوابط عامة
لنظام قانوني حر يكفل « سيادة القانون »
- يعمل في ظل اقتصاد موجه - فهل يمكن أن
توضع ضوابط ليقوم مثل هذا النظام في ظل
اقتصاد اشتراكي أم أنه يمكن أن تتحقق سيادة
القانون في صورة نظام قانوني آخر ؟ أم أن
النظام الاشتراكي يتنافر بذاته مع سيادة
القانون ؟

لقد قيل أنه مهما شاب النظام الاقتصادي
الخاص من عيوب ، وحتى لو وجدت نزعة
مناهضة للحرية ، فإنه يخضع مع ذلك لمؤثرات
المنافسة وتأثير الرأى العام . ومثل هذه القوى

(١٢) يراجع في هذا كله مؤلف

Friedman : Legal Theory

ص ٥٠٧ - ٥٠٩

الطبيعية سوف تختفي في اقتصاد جماعي
تسيطر فيه الحكومة على الجهاز الاقتصادي كله
ولا تكون فيه حكما ، وقد ضرب النظام
السوفيتي مثلا لذلك ، وبهذا نسب الى
الاشتراكية انعدام الشرعية استنادا الى انهيار
الحريات في النظام السوفيتي .

غير أن هذا النظر ظاهر التحامل لأنه على
الرغم من الانقراض الشديد في الحريات التقليدية
في النظام السوفيتي ، فإن متصفا لا يستطيع
أن يغفل مكاسب الشعب في مجالات أخرى .
وفضلا عن ذلك فإن النظام السوفيتي لا يمكن
أن يعد نموذجا لكل نظام اشتراكي يقوم في
المستقبل . وليس من طبيعة السيطرة
الاقتصادية للدولة على وسائل الانتاج الأساسية
أن تصاحبها سيطرة على الرأى أو الحريات ،
فضلا عن أن المظهر الخاص للحريات التقليدية
في روسيا هو نتاج تاريخها السابق الذي لم
يعرف قبل الثورة حريات بالمعنى الصحيح ،
ومصائب الحرب الأهلية ، والحصار الدولى
المفروض من حولها . لذلك فإنه ليس هناك
ما يمنع من احتفاظ الشعب - في ظل نظام
اجتماعي - بسلطاته الكاملة على الحكومة
وكفالة الحريات كما وأنه مع التسليم بأن هناك
عناصر موازنة في النظام الاقتصادي الحر
تجعله محتلا فإن اختفاء هذه العناصر في نظام
جماعي ليس من شأنه حتما اختفاء
الحريات (١٣) .

ويذهب « شليز نجر » نفس المنهج مشيرا
الى أنه لا يمكن أن ينظر الى القانون على أنه
أكثر من وسيلة اجتماعية - ضمن ومساند
أخرى - لتنظيم السلوك البشرى ، وأنه
بالتأكيد ليس أسمى مما يظلم هو بتنظيمه
.. وهو لذلك يعيب على الذين يتحدثون عن
انهيار « سيادة القانون » في النظام الاشتراكي
أنهم لا يتحدثون عن القانون بصفة عامة ، وإنما
هم يتحدثون عن « نموذج معين من القانون
الذى ألفوه » ، وهم بهذا يناقشون - ضمنا -
المزايا المقترضة في نوع معين من المجتمعات

(١٣)

Freenkel : Our Civil Liberties pp. 257-9.

ويجب أن تحل هذه المسألة في ضوء القوى واحتقائق القائه في المجتمع المعاصر : فالمجتمع الحديث يختلف تماما عن هذا التركيب «الطري» لمجتمع وهمي يتكون من أفراد مستقلين يوازن بعضهم البعض . فالمجتمع المعاصر مجتمع منظمات ولم تعد للفرد فيه - والعامل بصفه خاصة - «السيادة» التي يجدها يواجه احتكارا للصلب الأمريكي ، أو مشروعاً من المشروعات العامة في روسيا ، ولذلك تعتمد كفاءة حقوق الفرد والعامل على قوة منظماته ونصيبها في ادارة الدولة ، وليس هناك سبب يمنع قيام منظمات طائفية ونموها في ظل المجتمع الاشتراكي ، وأن تبلغ هذه المنظمات من القوة ما يكفي لاستخلاص الحقوق التي يمنحها هذا المجتمع .

ويقول « شليزنجر » ان مسألة شرعية الضرورات العاجلة أظهرت الدولة في روسيا أن لها مصلحة في ان تمنح مواطنيها الشعور بأن حقوقهم مكفولة عن طريق التنظيم القانوني وهذا التنظيم يختلف عن التحكم في أنه يقوم على «حقوق توازن معين» ، غير أنه ليس بشرط أن يقوم التوازن بين «الأفراد» بعضهم وبعض (كما تصورت الليبرالية مغللة أثر تدخل السلطة الاقتصادية وخصوصا الاحتكارية في عمل الاداة القانونية) فقد يقوم هذا التوازن بين جوانب مختلفة للمصلحة الاجتماعية تمثلها هيئات متميزة عن الجماعة ، كما هو الشأن بين الأفراد الذين أضحت سلطتهم الفعلية في موازنة بعضهم الآخر محل شك في الظروف الراهنة التي قامت فيها احتكارات واسعة النطاق سواء كانت احتكارات خاصة أو ملكا للدولة . أما ما هو هذا القانون (الذي يقوم بهذا التوازن في الظروف المعاصرة ويؤمن الفرد على حريته في نظام اشتراكي) وما إذا كان يتطابق أو يختلف عن القانون التقليدي فتلك مسألة أخرى (١٤) نرجو أن نعود الى بحثها في مقال قادم .

لا يختلف موقف هؤلاء عن موقف المؤيدين للاشتراكية أو المعارضين لها في ذاتها . فقد يرفض الناس الاشتراكية بغض النظر عن توافقها مع حكم القانون لأنهم يخشون أن يكون التنظيم القانوني في مجتمع اشتراكي ضيقا للحرية ، ومن ناحية أخرى قد يقبل الناس الاشتراكية رغم تعارضها المفترض مع سيادة القانون لأنهم يعتقدون أن الاشتراكية تتطلب وسائل جديدة لتنظيم السلوك البشري تكون أسسها من القانون التقليدي الذي تأثر بضمرة القوانين الطبيعي ، ولذلك فإنهم يأملون أن يطبق المجتمع الاشتراكي - في مراحله العليا - أسسكالا من التنظيم الاجتماعي أسسها من القانون ، وذلك بتجنب النظرة القانونية الآلية للقضايا ، التي وإن تساهلت في شكلها تختلف في جوهرها . هذه المسألة العاطفية أو العقيدية لا شأن لها بقيام سيادة القانون أو بانهياره في ظل النظام الاشتراكي ، ولذلك يجب أن تفصل فصلا تاما بين هاتين :

المسألة الأولى - هي صواب الاشتراكية أو خطؤها ومدى تقبل الناس لها أو رفضها كمذهب .

المسألة الثانية هي اذا ما كانت الاشتراكية تنفق أو لا تنفق مع تطبيق الشكل القانوني للتنظيم ، أو بالأحرى هل يمكن أن يقوم القانون - في مجتمع اشتراكي - كأداة لتنظيم العلاقات البشرية وكيف سيكون شكله ؟

ويقول « شليزنجر » ان مسألة شرعية النظام الاشتراكي لا تقتصر على اذا ما كان هذا النظام في حاجة الى أداة أخرى غير القوانين (تكفل بصفة آلية العمل المنتظم للتنظيم الاقتصادي) ، وإنما هي تثير بصفة أساسية مسألة ما اذا كان المواطن يستطيع أن يتمتع ، على الأقل بالنسبة لحاجته بالاستقرار والأمن ، الى المدى الذي يتمتع به في مجتمع رأسمالي .

الدراسات التاريخية ومناهجها الحديثة



يقام : محمد أحمد حسين

people with the po- litica left out».

والتاريخ السياسي/ قلما يعنى بتاريخ الحركات
العمالية والعوامل الاجتماعية التي ألثرت في
الشئون السياسية .

على ان كثيرا من المؤرخين قد حددوا مدلول

التاريخ الاجتماعي . Social history.
بتاريخ العمل والحركات العمالية ، وما قصده
مؤرخو القرن التاسع عشر من مدلول
الاصطلاح «Die Sociale Frage» la Question Sociale.

وليس من شك في ان الثورة الفرنسية قد
رجمت أنظار المؤرخين الى العوامل الاجتماعية
والاقتصادية واثرها في تطوير الانسان ، كما
ان الفيلسوف أوجست كو . Auguste Comte .
(١٧٩٨ - ١٨٥٧) قد وجه اهتمامه الى الاثر
البعيد لهذه العوامل على الحوادث التاريخية .
ولا يفوتنا ان نذكر نمو الطبقة العاملة ، ودورها
الكبير في تطوير المجتمع وانتشار المبادئ
الاشتراكية منذ منتصف القرن التاسع عشر
من العوامل التي دعت المؤرخين لدراسة الماضي

اذا اردنا ان نحدد اتجاهها باريا في الدراسات
التاريخية الحديثة ، فلن نكون ضالين اذا قلنا
ان معظم البحوث التاريخية هي بحوث في
التاريخ الاجتماعي والاقتصادي Social History
والتاريخ الاجتماعي له مدلولات واسعة ، فهو
تاريخ الثقافة ، وتاريخ الحياة اليومية لشعب
من الشعوب في عصر من العصور ، وهو لا
يعنى بتاريخ العمل والحركات العمالية فحسب،
بل يعالج حياة الاسرة وتاريخ الديانات التي
سيطرت على الشعوب، وتاريخ الثقافة والحضارة
التي كونت الحياة في حقبة من الحقب . فهو
تاريخ الانسان . تاريخ العلاقات التي شكلت
طبقاته ، وتطور هذه العلاقات على مدى العصور
فالتاريخ الاجتماعي يعنى بتتبع الحوادث
التاريخية ، ويتحدث عن اصولها طبقا للمذاهب
الاقتصادية والاجتماعية . وقد حاول المؤرخ
الانجليزى تريفليس ان يعرّف التاريخ
الاجتماعي في جملة واحدة فقال « انه تاريخ
الشعوب في جميع المجالات مع حذف ما يتصل
بالتاريخ السياسي » The history of a

من النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، والتركيز على ما يتصل بالانسان وعلاقته الاقتصادية والثقافية ، ومدى تأثير هذه العناصر على السياسة وشؤونها .

لقد كتب المؤرخ الفرنسي لاروي لادوري Emmanuel Le Roy Ladurie التيمز بتاريخ ٨ سبتمبر سنة ١٩٦٦ بجريدة from Waterloo to Celyton

يوضح فيه كيف تغيرت الدراسات التاريخية من دراسة المارك الحربية طوال القرن التاسع عشر الى الدراسات التاريخية المتصلة بأحوال السكان الاجتماعية في العصور الماضية . فبدلاً من اهتمام المؤرخين بمعركة مثل معركة « رنبرو » أصبحوا يدرسون أحوال القرى مثل قرية كوليتون ، تلك القرية المجهولة في جنوب إنجلترا ، وليس من شك في أن هذه الاتجاهات الحديثة قد ساعدت على إحياء الماضي في أذهاننا في صورة تمس الحياة الحقيقية للانسان في العصور المختلفة . وقد كان للاحصائيات التي جمعها العلماء عن السكان في البيئات المختلفة العون الكبير للبحوث القومية للدراسات السكانية مثل المعهد القومي للدراسات السكانية بباريس : Institut National d'Etudes Démographiques.

لقد تناول المؤرخون في أبحاثهم أحوال الاسرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر فيما يتصل بمراسم الزواج وكذلك المواليد والوفيات . فأنبت المؤرخون امثال لويس هنري Louis Henry وجوبرت Pierre Goubert . ان كثيراً من المقاطعات الفرنسية لم تعرف شيئاً من تحديد النسل ايام لويس الرابع عشر مع استثناء بعض النواحي في الجنوب الغربي من فرنسا ايام لويس الخامس عشر . فمن الناس من حاول تحديد النسل بالرغم من انتشار الكاثوليكية في هذه المناطق والغريب ان بعض المؤرخين الانجليز امثال رجل E. Wrigley.

قد برهن على ان الناس في قرية كولتون Colyton.

قاموا بتحديد النسل منذ عام ١٦٥٠ ، على انه

يلاحظ من دراسات المؤرخين واحصائياتهم عن السكان في فرنسا ان الطبقات الفقيرة منذ ايام لويس الرابع عشر لم تكن بتحديد النسل ، بينما اتخذ النبلاء الوسائل لتحديد نسلهم . على انه منذ أواخر القرن الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر بدأ الناس في الريف الفرنسي باتخاذ وسائل تحديد النسل ، ويرجع المؤرخون ذلك الى ضعف الشعور الديني ، اذ ان الثورة الفرنسية قد ساعدت على العموم - على اضعاف سلطة الكنيسة ودحض كثير من آراءه الدينية ، على أن بعض المؤرخين قد طلع علينا برأى جديد ، وهو ان الفرنسيين في الريف كانوا يعيشون عيشة تقشف بينما كان الانجليز في القرن السابع عشر طبقاً لاحصائيات رجل Wrigley.

ولست Peter Laslett نثر حرية ، ويقولون ان فرنسا كانت متقشفة بينما كانت إنجلترا اباحية .

«In a sense it is France that is austere

and England that is Libertine».(١)

لقد درس المؤرخون ما يتصل بالوفيات ، وانهم صنف الانجاب وانتشار الأبرشة في المقاطعات الفرنسية والانجليزية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر واستخلصوا نتائج تستدعي التأميم ، فقد اثبتوا ان إنجلترا قبل الثورة الصناعية كانت قليلة السكان وكانت نسبة الوفيات أيضاً قليلة . وكان الناس يتزوجون في سن متأخرة ولا يتقيدون كثيراً بالمحافظة على قواعد الزواج . اما فرنسا فكانت تعاني من كثرة السكان وكانت نسبة الوفيات مرتفعة ، وكان الناس يتزوجون في سن مبكرة ويميلون الى التقشف والتزمت ، أي ان الناس شمالي المانش كانوا على شيء من الاباحية بينما كانوا في جنوبه اكثر صرامة وتزمت ، وهكذا استعار المؤرخون وسائل حديثة في دراسة البيئات في القرون الحالية ، واعتمدوا في بحثهم على العلوم الاجتماعية ، كما استخدموا وسائل علمية طبقت في مجال العلوم الطبيعية ونحن نذكر ان ماركس قد استخدم قواعد الرياضيات

(١) Ladurie, Emmanuel Le Roy : From Waterloo to Celyton, T.L.S., 8th. September, 1966. P 792.

وعى اقرب صلة بالدراسات المتصلة بعلم
Cultural Anthropology.

والمنحى الثقافى لعلم الانسان « اى علم الانسان
الثقافى » .

ان التاريخ الاجتماعى فى كثير من الدول
يقوم بدراسة العمل وشئون العمال وليس من
شك فى ان الثورة الروسية فى اكتوبر سنة
١٩١٧ كانت مبدءا عصر جديد فى كتابة تاريخ
العمل والعمال ففي ديسمبر سنة ١٩٢٠ اسس
الحزب الشيوعى بالاتحاد السوفيتى معهدا
لدراسة آراء ماركس ولسى فى اول الامر
معهد ماركس وانجلز اما الآن فهو يسمى معهد
الماركسية اللينينية . Institute of Marxism
Leninism.

ويضم المعهد مكتبة تحوى مؤلفات عن الحركات
العمالية فى اوربا ، وقد اصدر المعهد طبعة
لجميع مؤلفات ماركس وانجلز مع شروح علمية
Historische kritische Ausgabe.

ولكنهم عدلوا عن الاستمرار فى اصصدارها
عام ١٩٣٥ وقد ظهرت طبعة روسية تحوى جميع
مؤلفات ماركس صدر منها حتى الآن ٣٣
مجلدا .

وقد انتهت معاهد على نسق هذا المعهد
لدراسة اجواله العمل فى وارسو وبلجسراد
وبودابست وبراج وبرلين الشرقية ، ولكن
معهد امستردام الدولى للتاريخ الاجتماعى الذى
اسس عام ١٩٣٤ يحوى الجزء الاكبر من
مؤلفات ماركس وانجلز وقد حصل المعهد على
مايربو على ١٥٠٠ خطاب تبودلت بين ماركس
وانجلز كما يضم محاضرات المؤتمرات العمالية
الدولية وهو بمحتوياته التى تبلغ ٤٠٠.٠٠٠
مجلد يعد اكبر معهد فى تاريخ العمل والتاريخ
الاجتماعى . هذا وقد قام معهد امستردام بنشر
كثير من مكاتبات ماركس وانجلز مع ليبكنشت
Liebeknecht. وكذلك مكاتبات بوكاتين .

كما يقوم منذ عام ١٩٥٦ باصدار مجلة
International Review of La-bour.
History المجلة الدولية لتاريخ العمل .

اما المعهد الفرنسى للتاريخ الاجتماعى
Institut Français d'Histoire Sociale.

فيقوم بجمع مايتصل بالحركات العمالية فى
فرنسا ، فجمع مكاتبات مونتات Montate.
الذى قام بثورات كان لها الاثر الكبير فى

فى تحليل الاحصائيات المتصلة بالسكان
والتطوير الاقتصادى . لقد تمكن المؤرخون
عن طريق جمع الاحصائيات وتحليلها طبقا
لاصول الرياضيات وبوسائل الكثرية من
الوصول الى معلومات عن الماضى فقدنا مصادرنا
الاصيلة ، وليس من شك فى ان الوسائل
الاكترونية قد ساعدت على استخلاص كثير من
المعلومات التاريخية ، كما ان هذه الدراسات
قد ساعدت على بيان مدى ترابط العلوم وان
هذا النهج التاريخى قد ساعد على التقريب
بين فروع العلم ، كما برهن على وحدة
المعرفة . وعلينا ان نلاحظ ان اصول
الرياضيات لا يمكن تطبيقها فى قياس مسائل
انسانية كثيرة مثل القيم الثقافية فى الصور
المختلفة ، كما انه يصعب قياس تأثير المذاهب
الاجتماعية على الطبقات المختلفة فى عصر من
العصور .

ان العلوم الاجتماعية تسير على العموم فى
نفس الطريق الذى سارت فيه كثير من العلوم
الطبيعية فى تطبيقها لاصول الرياضيات الا
ان العقل الاكترونى لابد هو خاضع للعقل
البشرى (١)

لقد نادى كثير من المؤرخين لبعث
Lucien Febure.

ان تاريخ الانسان يجب ان يكون شاملا لنشاطه
فى جميع المجالات ، اى ان الدراسات المتصلة
بالانسان تكون وحدة لا انفصام بين اجزائها ،
ولكننا نعلم كيف تسير المناهج التاريخية فى
الجامعات وفقا لحطوط لا تساعد على تطبيق هذه
النظرة الشاملة .

لقد اصبح التاريخ الاقتصادى والتاريخ
الاجتماعى من الاسس القوية للتاريخ العام ،
غير انه من الصعوبة بمكان ان يعنى المؤرخ
بتاريخ العلوم والفنون ، وقد حاول بعض
المؤرخين ان يدرسوا التاريخ الثقافى للشعوب
ومراعاة تطور نماذج الثقافية

Kulturgeschichte.

فى العصور المختلفة ، ولكن مثل هذه الاتجاهات
يشق امرها على المشتغلين بالتاريخ الاجتماعى

Kahk, J., Mathematics and Complexity (١)
T.L.S. 8th September, 1966 p. 304.

ويقوم المعهد باصدار مجلة في شئون العمال
تسمى Le Mouvement Social. ويقوم
ما ترون. Jean Maitron

باصدار معجم ضخم عن الحركات العمالية
الفرنسية منذ عام ١٧٨٩ - ١٩٣٩ باسم
Dictionnaire Biographique du Mouvement
Ouvrier Français de 1789-1939.

وقد ظهر من هذا المعجم اربعة مجلدات تحوى
ما يتصل بالتراجم منذ ١٧٨٩-١٨٦٤ وميصدر
ثلاثة مجلدات اخرى تحوى ما يتصل بالفترات
من ١٨٦٤-١٨٧١، ١٨٧١-١٨٧٦، ١٨٧٦-١٩١٤،
١٩١٤-١٩٣٩ .

والخلاصة ان هذه المعاهد تختص بدراسة
المسائل التي تتصل بالاشتراكية وتاريخ الحركات
العمالية على الصعيد القومى والمولى .

لقد عقد في ستراسبورج في العام الماضى
مؤتمر لدراسة ما يتصل بالتاريخ المعاصر
واقترح تشكيل لجنة دولية لدراسة شئون
هذا التاريخ . وقد لوحظ ان للاعضاء لم يرغبوا
في وضع تعاريف دقيقة ، وكان هناك اتفاق
بينهم ان المؤرخ الذى يعنى بالتاريخ المعاصر
يمكنه ان يرجع الى عام ١٧٨٩ اذا كانت
الموضوعات التي ترجع الى الثورة الفرنسية
ذات اتصال بموضوعات معاصره وقد رفض
بعض الاعضاء ان يعد دراسات التاريخ المعاصر
دراسات اكاديمية علمية بحجة ان كثيرا من
الوثائق والمصادر لاتزال على الكتمان ، ولو ان
كثيرا من مؤرخي القرن التاسع عشر تناولوا
موضوعات معاصرة . ذلك ان ظروف حياتهم
العملية كانت تضطرهم الى ذلك ، فكان منهم
رجال دين ورجال قانون وسياسة . اما الآن
فالامر بخلاف ذلك ، فمعظم المؤرخين اتخذوا
التاريخ مهنة وبدأوا حياتهم الجامعية وتدرجوا
في وظائفهم العلمية ونحن نلاحظ ان كثيرا
من المؤرخين قد جعلوا القارة الاوروبية محورا
لدراساتهم وتقسيم التاريخ من قديم ومتوسط
وحديث على اساس التاريخ الاوربي مع ان لكل
من الصينى والهندي والبرازيل تاريخه وحضارته
وكيف يمكن ان تكون حدود التاريخ الصينى
مثلا هي حدود فرضتها الحضارة الاوروبية ،

والمؤرخون الاوروبيون انفسهم غير متفقين في
آرائهم من حيث التوقيت فيبترفيلد
Butterfield.

يعد الفترة من ١٦٨٥ - ١٧١٥ مبدأ التاريخ
الحديث ، بينما يعتقد بعض المؤرخين ان الثورة
الفرنسية هي مبدأ هذا التاريخ وليس من شك
في ان ظهور الولايات المتحدة الامريكية على
مسرح الحوادث التاريخية قد اوجب اعادة النظر
في تقسيم العصور التاريخية . فاذا كنا نرى
المؤرخين مختلفين في تحديد مبدأ التاريخ
الحديث فكيف يتفقون فيما يتصل بدراسة
التاريخ المعاصر ، ولا تزال الدول تتباين في
تحديد الوقت الذى يسمح فيه بالاطلاع على
الوثائق الرسمية ، فقد نادى فريق من المسؤولين
الانجليز بوضع حد مدته خمسون عاما ويسمح
بالاطلاع على الوثائق فيما قبل ذلك ، ونادى
فريق آخر بان تكون الفترة مدتها ثلاثين عاما
واتفق اخيرا ان تكون هذه الفترة اربعين عاما .
وقد سبق القول ان اوروبا لم تعد محور الحوادث
التاريخية ، فقد ظهرت بعد الحرب العمالية
الثانية قوميات ودول نامية في افريقيا وآسيا
والامريكا اللاتينية . وكان المؤرخون قبل ذلك
يكتفون عن حقبة الفترات وهذه الدول من وجهة
نظر اوروبية . لكن الحال قد تغيرت وبدأوا
يكتبون من وجهة نظر جديدة يبحثون ماضي
هذه الدول نفسها من داخلها ويشرحون كيف
اثر هذا الماضى نفسه على التاريخ الاوربي وقد
تغيرت مناهج الجامعات الاوروبية نفسها ،
فأسست معاهد لدراسة تاريخ افريقيا وآسيا
وغيرهما . والاتجاهات الحديثة في الدراسات
الخاصة بالدول الافريقية والآسيوية هي الاهتمام
بالشئون الاجتماعية والاقتصادية ، ونحن نعلم
انه منذ القرن التاسع عشر اهتم المستشرقون
بالدراسات اللغوية والادبية ولكن منذ الحرب
العالمية الثانية بدأ المؤرخون يدرسون الشئون
الاجتماعية والاقتصادية للدول الافريقية
والآسيوية . فهم يدرسون مثلا المجتمع الصينى
وتطوره اقتصاديا وثقافيا غير متأثرين بتطور
الثقافات الاوروبية ومذاهبها .

لقد كان لاستقلال الدول الافريقية والنضال
على الاستعمار وانشاء الجامعات اثر كبير في
تطوير الدراسات المتصلة بهذه القارة حيث
كان الاستعمار يعمل على طمس تاريخ الدول

الأفريقية حتى أن بعض المؤرخين كان يرى أن تاريخ هذه الدول قبل الاستعمار لا أثر له ولا قيمة ترجى من دراسته .

لقد نشأت مراكز للدراسات الأفريقية في لندن وأدنبره وبرمنجهام وأكرا ودار السلام والحرموط والقاهرة وأديس أبابا ، وعقدت في مدرسة اللغات الشرقية الأفريقية بجامعة لندن مؤتمرات منذ عام ١٩٥٢ لدراسة مايتصل بأفريقيا ، وصدر عام ١٩٦٠ مجلة التاريخ الأفريقي *Journal of African History* .
وعلى أن نلاحظ أن تاريخ القارة يجب أن يدرس من وجهة نظر الأفريقيين ومصالحهم كما أن المصادر يجب أن تشمل الوثائق الأوروبية والعربية والتركية ، ودراسة الوثائق العربية المتصلة بقرى أفريقيا وانتشار الإسلام في هذه الجهات أمر ذو أهمية كبيرة ، وقد جمع في غانا كثير من المخطوطات العربية تعد مصادر أصيلة لدراسة تاريخ القارة في القرن السادس عشر ، وقد أسس في نيجيريا مركز للتوثيق العربي على صلة وثيقة بمعهد الدراسات الأفريقية بجامعة إيدان ويقوم هذا المركز بجمع صور المخطوطات عن غرب أفريقيا سواء باللغة العربية أو باللغات الأفريقية التي تستخدم الأبجدية العربية ، وتوجد مصادر أخرى لدراسة تاريخ غرب أفريقيا أهمها مؤلفات المؤرخين والجغرافيين العرب وكذلك ماكتبه الرحالة الأوروبيون ، ووثائق البعثات الدينية والوثائق الهولندية والألمانية والإيطالية ووثائق الفاتيكان كل ذلك مصادر أصيلة لها أهميتها في كتابة تاريخ أفريقيا على منهج جديد .

أن استقلال الدول الأفريقية والقضاء على الاستعمار قد أثر في المناهج التعليمية أيضا فقد أصبح لزاما على المدرسين أن يقوموا بأعداد الكتب التاريخية التي تؤرخ للدول الأفريقية طبقا للمصادر الأفريقية ، فتحسن تعلم أن كثيرا من هذه الكتب التي ألقت في عهد المستعمرين كانت تهتم في الغلب الأحيان بشرح ما قسام به هؤلاء المستعمرون من إصلاحات وما أناروه من حروب في سبيل الغزو والتوسع . كما نعلم أيضا أنه لا يزال في تاريخ أفريقيا فترات

غامضة تحتاج إلى الدراسات والبحوث ، وعلى الأخص مايتصل بأحوال التجارة قبل الاستعمار وأثر الحكم العشائري في شمال أفريقيا على التجارة والثقافة والعلاقات مع العالم الإسلامي ومعلوماتنا عن وسط السودان والجزء الغربي منه في القرنين السابع عشر والثامن عشر محدودة ، ولا يقتصر الأمر على دراسة المصادر الأصلية بل أن تفسيرها من وجهة النظر الأفريقية هي أهم ما يشغل المؤرخ في عصرنا الجديد ، ولا يمكننا أن نغفل عن الاستعانة بمراكز البحوث في الدول الأوروبية وعلى الأخص مركز الدراسات الأفريقية في باريس *Centre d'Etudes et de Documentation sur l'Afrique et l'Outre-Mer* .

هذا وقد قامت كثير من الجامعات الأوروبية والأمريكية بإنشاء مراكز للتوثيق للدراسات الأفريقية حيث تجمع المصادر وتصنف وترجم النصوص وتعد للباحثين .

لقد سبق القول أن المناهج الحديثة للدراسات التاريخية قد ساعدت على ترابط العلوم واتساع مدى الاستفادة من البحوث في جميع العلوم الاجتماعية والطبيعية فلم يغفل المؤرخون عن الاستفادة من البحوث في علم النفس فأراد فرويد وإيوانج وأدلر في التحليل النفسي كان لها الأثر الكبير في تفسير بعض حوادث التاريخ وعلى الأخص ما يتصل بالعقل الباطن (Id) وكان لكتاب فرويد الذي أصدره عام ١٩٢٣ «*The Ego and the Id*»

وكذلك كتاب «*Ego and the Mechanism of Defence*» لولفه إنا فرويد *Anno Frued* .
الأثر العظيم في تحليل بعض الشخصيات التاريخية وفي تفسير كثير من مظاهر عقلية الجماعات وقد بدأ بعض علماء الاجتماع وبعض الاختصاصيين في العلوم السياسية بالتدريب في معاهد التحليل النفسي في نيويورك وبوسطن ، وعلى المؤرخين الآن أن يقرأوا مراجع عن التحليل النفسي مثل *Facts and Theories of Psychoanalysis* لـ Ives Hendrick .
هذا وقد كتب *Fitz Schmidt* مقالا ممتعا

عن « التحليل النفسي والتاريخ » في مجلة «*The Psychoanalytic Quarterly*» .

نؤرخون العلوم الكيميائية الذرية لتاريخ آثار ما قبل التاريخ ونال العالم الأمريكي ولاردلي Willard Libby الأستاذ بجامعة شيكاغو جائزة نوبل لاكتشافه (كربون ١٤) وتمكن من استخدامه في تحديد تاريخ آثار ما قبل التاريخ ونحن تعلم كيف اختلف علماء الآثار في تحديد آثار ما قبل الاسرات ، واخذ بعض علماء الآثار المصرية بالتاريخ الطويل (حوالي ٤٣٠٠ سنة قبل الميلاد) كميّدا للأسرة الاولى وعلى رأس هؤلاء فلندرز بيتري * E. H. Petrie.

وقد اخذ فريق آخر بالتاريخ القصير (حوالي ٣٢٠٠ سنة قبل الميلاد) كميّدا للأسرة الاولى وكان على رأس هؤلاء المؤرخ ادوارد ماير E. Mayer.

وقد ظل المؤرخون مختلفين في توقيتهم للتاريخ المصري القديم الى ان تمكن ليبي Libby من كشف (كربون ١٤) وقاس مدة اشعاع ذرة هذا الكربون ووجد انها تفقد نصف رزنها الذري بعد ٥٥٦٨ سنة ثم يوضح اويشمس نصف ما تبقى اي نصف النصف بعد ١١١٣٦ سنة وعن طريق فقدان الوزن الذري للكربون ١٤ في وقت محدد وتطبيق نظريته على بعض الآثار يمكن من قياس الزمن وتحديد عمرها ، وقد تمكن من تحديد زمن قطع خشبية من مركب جنازية في الاسرة الثانية عشرة وقطع خشبية من مقبرة زوسر وقطع من آثار الوزير حكما من الاسرة الاولى (٤)

هذا اتجاه هام في تطبيق العلوم الطبيعية للكشف عن حضارة الانسان ارضيه *

ونحن نرى كيف اصبحت الدراسات التاريخية طريقا وسيلة لفهم الماضي كوحدة متكاملة وتحليل العناصر المكونة لحوادث هذا الماضي * ولهذا اعتمدت الدراسات التاريخية على شتى العلوم والفنون التي تسهم في تصويره والعلوم الاجتماعية هي بلا شك محور هذه الدراسات *

١٠. Psychoanalysis and History.

وقد لفت النظر الى اهمية تطبيق قواعد علم النفس في الدراسات التاريخية المؤرخ الأمريكي وليم لانجر William Langer. في مقاله الافتتاحي في اجتماع الجمعية التاريخية الامريكية بعنوان (٢) The next Assignment وتزخر الدوريات العلمية مثل The Psycho-Analytic Review.

بالمقالات المتصلة بتطبيق مبادئ علم النفس على البحوث التاريخية وتراجم رجال السياسة وقد عكف كثير من المشتغلين بالتحليل النفسي على دراسة هتلر رجال الرايخ الثالث وذهب كثير من العلماء الى سجن نورمبرج وتعادوا مع جورج ، واصدر جيلبرت G. Gilbert.

كتابه المشهور عن الدكتاتورية ، واصدر المؤرخ تولته Ernest Nolte.

عن الفاشية ، وحلل فيه شخصية هتلر (٣)

وقد بالغ بعض المؤرخين في مدى تطبيق مبادئ علم النفس على البحوث التاريخية حتى اعلّى بعض النقاد ان مؤرخي الغرب قد اعتنقوا

مبادئ فرويد بدلا من مبادئ ماركس ، ولحق

بعض المؤرخون الانجليز والامريكيين بتطبيق هذه

الطرائق بينما وجه المؤرخون الفرنسيون عناية

كبيرة للاستفادة من علم النفس والتحليل النفسي

والاحل معقود على الجامعات في ان يقوم العلماء

برعاية هذا النوع من الدراسات ، فيضيف

المؤرخون اتجاهها جديدا في بحوثهم ، فلا يقتصر الامر على الاعتماد على العناصر الاجتماعية والاقتصادية في تفسير الماضي بل يعتمدون ايضا

في ايضاح غوامض النفس البشرية على مبادئ علم النفس الحديث *

لم يقتصر الامر على الاستمانة بعلم النفس في تفسير حوادث التاريخ بل لقد استعمل

(١) Marlich, Bruce, Inside the Whales, T.L.S. 28th July, 1966, P. 667.

(٢) Langer, William : The next Assignment American Historical Review LXII No. 2 Jan. 1958).

(٣) Nolte, Ernest : Der Faschismus in seiner Entstehung und Entwicklung, Epoche, 1963.

(٤) انظر البحث القيم الذي كتبه الاستاذ احمد على ابراهيم عن ويلارد ليبي وطريقته لتاريخ ما قبل التاريخ في قافلة الزيت ، أغسطس ١٩٦٢ -

عام ١٩٢٣ قام بتشكيل لجان لدراسة ما يتصل
بكتابة التاريخ ونشر عام ١٩٤٦ تقريرا بعنوان
« النظر والتطبيق في الدراسة التاريخية »
وانتار هذا التقرير جدلا كثيرا ، فدعى المجلس
لجنة ثانية لدراسة ما يتصل بالاتجاهات الحديثة
في الدراسات التاريخية ووجهت اللجنة عناية
المؤرخين للاستفادة من اساليب البحث التي
اخذت بها العلوم الاجتماعية الاخرى ونشرت
تقريراً بعنوان « دراسة التاريخ وعلاقته بالعلوم
الاجتماعية »

وقد اسهمت مؤسسة فرنكلين للطباعة
والنشر (بيروت) في ترجمة هذا التقرير الى
اللغة العربية .

ليس قصدي ان اتقدم بمقترحات فيما يتصل
بدراسة تاريخنا القومي على هدى من فلسفتنا
الاشتراكية ، فالامر يجب ان يقوم به المجلس
الاعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
وله لجانته الكثيرة المتخصصة التي تصدر على
تنسيق البحوث في العلوم الاجتماعية .

ان الامر يهم وزارة الثقافة وقد سبق ان
شكلت لجان لإقامة كتابة تاريخنا القومي ولا
نعمل على ما قامت به هذه اللجان من
اعمال .

ان الامر يهم أيضا وزارة التربية والتعليم
وهي تقوم الآن بالنظر في المناهج والمخطوط
والمؤلفات التاريخية التي يقرأها الطلبة .

ان الامر يهم أيضا الجامعات وهي تعمل على
تطوير الدراسات وتعديل المناهج ، وقد سبق
القول ان الجامعات الامريكية والبريطانية قد
عدلت من مناهج التاريخ واصبحت الدراسات
الاfrقية والآسيوية تنال قسطا كبيرا من الرعاية
واخذت المعاهد والهيئات العلمية تنشر البحوث
المستفيضة عن افريقيا وآسيا من وجهات نظر
جديدة .

ان وثائقنا ومصادر تاريخنا القومي لاتزال
مشتتة في دور الوثائق الاجنبية والامر يقتضى
رسم المخطط لتجميعها والعمل على نشرها حتى
يتسكن المؤرخون من القيسام بالدراسات
التاريخية الاصيلية »

ان أية حادثة تاريخية هي نتيجة لتفاعل
عدة عناصر وعوامل ، والامر الصعب المثال
هو ان ندرك كيف تم هذا التفاعل بين العناصر
المتعددة ، وكثيرا ما يلجأ المؤرخ الى استنباط
عوامل محددة يدها المحور والسبب الرئيسى
للحادثة التاريخية ويختلف المؤرخون في
العصور المختلفة في طريقة اختيار هذه العناصر
والعوامل فطورا تكون دينيسا وطورا تكون
اقتصاديا او فكريا .

والامر الذى لامراء فيه ان التاريخ لم يعد
سجلا لاحوال الملوك والسلطانين بل اصبح
سجلا للحياة اليومية للشعب .

وكثير من مؤرخي العرب مثل ابن تفرى بردى
في كتابه « النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة » وعبد الرحمن الجبرتي في كتابه
« عجائب الآثار في التراجم والاخبار » ومحمد
بن احمد بن اياس في كتابه « بدائع الزهور
في وقائع الدهور » قد كتبوا التاريخ على نظام
الحوليات ومزجوا السياسة بالدين والاقتصاد
بعلم الاجتماع .

لقد استفاد المؤرخون كثيرا من تقدم علم
الانسان ، فعلم الانسان البولوجي يدرس
تطور الحياة والتغيرات السلالة للانسان ، وعلم
الانسان الثقافى يدرس نشوء الثقافات وتطورها
ونحن نعلم ان الجزء الهام من عمل المؤرخ هو
تحليل التغير في المجتمع ودراسة التسلسل
الزمنى وتفسيره .

ان العلوم الاجتماعية تساعد المؤرخ على فهم
سلوك الجماعات ، والمؤرخ الذى لا يفهم سلوك
الجماعات في عصره لا يستطيع فى الغالب ان
يفهم الحياة في فترة ماضيه ، وليس من شك
في ان معرفة الحاضر تزيد من فهمنا للماضى .

ان النظريات في العلوم الاجتماعية هي
مجرد وسائل لتوجيه البحث ، تقدم العون
في عملية التحليل والتفسير وهي ليست
قوانين كقوانين العلوم الطبيعية بل هي بيانات
تساعد المؤرخ فى الوصول الى الحقائق
التاريخية .

ان مجلس البحوث فى العلوم الاجتماعية
بالولايات المتحدة الامريكية الذى اسس منذ



والبكاء على العمود الخالية

بقلم فتحي رضوان

يصححت هذه الجاهلون الأغرار بغير علم أو في طيش وبؤس .

ولقد قدرت سلفاً كل هذا ، وأنا أخط
فصول كتاب (عصر ورجال) ، وقدرت أن
الكثيرين سيفضضون أو سيتظاهرون بالغضب ،
أو سيتعرضون غضب سواهم ، وأن العديد من
ينقدون شفوياً ، أو تحريراً ، سيجلسونني
منهم أما مجلس المتهم من القاضي ، أو التلميذ
من الأستاذ ، أو المدين من الدائن ، ولكن ذلك
لم يردني عن مواصلة الكتابة ، إذ ما اتفه
الحياة الفكرية ، من غير متاعب ، ومشاق ،
ومن غير مرارة تجرع النقد .

والحق أن النقد الذي شغلني هو النقد
الشفوي ، فما أكثر ما اسمعني أصدقائي ،
وأصدقائهم وأفاضل جمعتي بهم الصدفة ،
فصحوا لي تاريخاً أو اسماً ، وناقشوني في

يمكن دائماً أن يجسد الناس دموها في
عيونهم يستكونها على أي عهد من العهود التي
خلت ، ويمكن أن تصبح عنب الدموع فيصا
متدفقا ، إذا كان العهد المبكى عليه ، قريباً
من الباكين ، شهدوا بعض أيامه ، واتصلوا
برجاله ونسائه وتأثروا بهم .

وفي الناس ميل إلى البكاء ، لأن لكل منهم
الما ظاهراً أو دقيناً ، ملنا أو مضراً ، كما
أن في أكثرهم ميلاً إلى استدرار العطف على
أنفسهم أما بظهورهم في مظهر المنكوب
المحزون أو في ثوب الحواسي المطوف ، أو في
دور (المخلص) الذي لا يناله لقاء حسن
نيته ، وعظيم أريحيته إلا تمزيق الفصال من
أثوابه ، وفي الناس آخر الأمر ، من يسره أن
يبدو عادلاً ، يقيم موازين الحق ، ويكره أن
يعتدى معتد على حرمان الماضي المقدس ، أو
الماضي المهيبض الجناح ، أو الماضي المجهول الذي

الاحكام التي أصدرتها في الكتاب بين ساطع غاضب ، ومجامل ملاطف ، وراض مشجع ، ومؤيد متحمس .

وقد بدا لي أن ما تجمع لدى من هذه الملاحظات الشفوية ، وما تفضل على به النقاد الأدباء في أربع أو خمس تعليقات قصيرة سريعة ، وطويلة شاملة (١) ، قد يكون خليقا ، بأن يسرى مقالا قائما بذاته ، لا يعني أول ما يعني بالدفاع عن (عصر ورجال) بقدر ما يعيد الحديث في شأن هذا العصر من الزوايا التي أثارته الملاحظات الكريمة التي سمعتها من الأصدقاء ، والسادة النقاد .

وأعرب ما في هذا الأمر ، أن ما كتبت عن عصر ما بين ثورتَي ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، وقع في نفس بعض الذين قرأوه موقع الإشادة المسرفة بافضال وخيرات وأيادي هذا العهد ، فقالوا اني نسبت له ، ما ليس فيه من مناقب ، ووصم بعض هؤلاء ، انني فعلت ذلك ، لاني خشيت أن أنهم بالتجاهل عليه ، فكنت كالفضاة الذين حكموا بالظلم ليشتهروا بالعدل .

في حين أن آخرين ، ذهبوا إلى النقيض تماما ، فقالوا انني وضعت في جاني الفساد العهد ، ولهم أياد في اصفاء ، ولهم العدل الأقل فضل الاجتهاد ، في ظل ظروف ، شادة وقاسية ، وضغوط ساحقة وصارمة ، وضعت هؤلاء وكل ما كتبوا ، وكل ما قالوا ، وكل ما فعلوا في (زكية) قديمة ، وألقيت بهم في البحر ، من ورائهم حذاء قديم .

وقد يدفعنا هذا إلى القول بأن الحكم على عهد من العهود وعلى عهد كامل برجاله ونسائه ، وأحداثه وتطوراته ، وافكاره وآرائه ، وأعماله ومنجزاته ، وخيره وشره ، من أشق الامور ، على الانسان سواء كان هذا الانسان مؤرخا يصطنع أسلوب العلم ، أو أدبيا ، يعبر عن خلجات وإحساسات نفسه ، ولكني لست من هذا الرأي في شيء . فما أيسر أن تحكم على العهد ، بجوهر أعماله ، أو بالحساب الختامي ، لكل ما صدر عنه ، وما صدر فيه . فما خلا عهد من الخير ، وما خلا عهد من الشر ، بل

(١) انظر مقال الأستاذ فتحي خليل عن كتاب « عصر ورجال » في العدد السابق من « المجلة »

ما من فرد ذهبت حياته وكلها حسنات ومناقب ، أو ذهبت حياته وكلها شؤر وآثام وقد وجد - على مر الحقب - الطفلة والجوايسيس ، والجلادون ، ومدبرو الجرائم الكبرى - ومرتكبوها ، ثم وجد من يكشف عن جوانب خيرة في حياة هؤلاء ، ولكل عهد أقيسته ومعاييره التي تقيس بها الخير والشر ، والتي تقيس بها العظمة والانحطاط والتي تقيس بها الشرف والعار ، ولكن تبقى للانسانية ، بعد كل هذه الفروق ، أقيسة خالدة تطرح بها وتجمع ، الميوس والحسنات ، ثم تخرج بنتيجة ، ان لم تكن العدل كله ، كانت أقرب الاشياء إلى العدل الانساني .

هذا شيء ، وشيء ثان لا يجعل أن يقب عينا ، هو أن الحكم على عهد من العهود ، يتأثر بانزوية التي ينظر بها الانسان إليه ، فقد يشغل النقاد ، وهو يقوم عهدا بالاعتبارات السياسية ، فإراء عهد خيانة وانحلال ، ثم يعود فينظر إليه ، متأثرا بالاعتبارات الفكرية والفنية ، فإراء عهدا ذهبيا جديرا بأن نحسره له وروسنا ونحني الهامات .

خذ مثلا عهدا ما قبل الثورة الفرنسية ، وعهدا ما قبل الشيوعية ، بل خذ عهدا ما قبل الاحتلال البريطاني ، تجد جيشانا وثورانا ، وتجد أسماء ضخمة ، وعماقة فكر ، وفي ما قبل ثورة ١٧٨٩ ، كان فولتير وروسو ، ديدرو ومونتسكييه والموسوعيون ، وكان هناك ميرابو ، وتيرجو ونكر ، ومدام رولان ، وخطباء شبان وكهول ، وكان التحضير للثورة ، والاستهداف لخطر مواجهة الملكية والقطاع .

ولكن إلى جانب هؤلاء جميعا ، وإلى جانب هذا كله ، كانت الخطابات المفلقة ، ومسجن الباستيل ، وطفيان الحكومة واللائحة الاقتصادية والروحي ، وفضائح القصر ، ومخازي الاشراف ، كان الجبن والخوف ، ومن ناحية أخرى كان يجري شيثان متناقضان حتى في الجانب السياسي : فقد كانت الملكية الطاغية ، تستبد بالشعب الفرنسي ، وتنتهك حقوقه الأساسية ، ثم تمد يدها في الوقت نفسه لمساعدة الثورة الامريكية الجمهورية ضد الملكية البريطانية ، وترسل المعونات العسكرية

والمالية لهذه الجمهورية ، التي سميت حتى جمهورية الفرنسيين •

وقبل سنة ١٩١٧ ، ازدادت سملة الفكر الروسي بهذه الكواكب الساطعة ، تولستوى ودوستيفسكى وتشيسيكوف وتورجنيف وبوشكين وجوجل ، وكان تشيسيكوفسكى كورساكوف وليرمانتوف ، والمفنى شليابين ، والراقصة أنا بافلوفا ، وكانت فنون المسرح والباليه ، تزدهر وتنمو . ولكن كان العهد آخر الأمر عهد طغيان ورجسية ، وكان عهد فقر رجسود ، كان فى كلمة عهدا ينتهى ويسلم انفاسه •

والامر الذى لا يشك فيه احد ، والذى يقرره العلم ، ان مامن عهد ينتهى بشورة ، الا وكانت تلك الحاتمة دليلا على أنه بلغ الغاية فى الافلاس • فالثورة هى العملية الجراحية التى تلجأ اليها الحياة فى الامة ، بعد ان تسد فى وجهها السبل الطبيعية للتدفق والانسياب فالحياة كالمياه ، تشقى لنفسها المجرى والجدائل ، فان وجدت عقبة دارت حولها ، فان تعذرت كل محاولة لغايتها وحطمت الجسور ، واغرقت ما حولها ، حتى تشقى طريقا طبيعيا •

وعهد ما بين سنتى ١٩١٩ و ١٩٥٢ بدأ بشورة ، وانتهى بشورة ، فورت مساوى ، ما قبله ، ولم يتغسل عنها ، بل اعتبرها الاساس ، واقام عليها بناء وجوده ، فما زالت الشروخ والصندوح ، تعمل فيه وتؤثر عليه ، حتى انهار انهيارا مروعا ورجال ما قبل الثورة ، يمكنهم ان يعيشوا الثورة ، قبل ميلادها • يمكنهم ان يعيشوا بها ، وينشروا بذورها ، ويؤكدون وقوعها ، ويضربون فى صروح العهد الذى يعيشون فيه ، ويعملوا على هدمه ، فيكونون بهذا - خير اعتدرا للعهد ، وخير تكثير عنه ويلحقون بصوف الثوار ، وان عاشوا مع الكافرين الظالمين ، واعمدوا الحردة وخصوم الشعب • لقد حضر روسو وفولتير للثورة ، وحضر تولستوى ، وتورجنيف لها ، ولكن ماذا فعل كبار كتابنا ؟ ماذا كان موقفهم من الذين ناضلوا ضد الملكية ، وضد الانجليز واين كانوا وعناصر الثورة تتجمع ، وفى جهد

بذلوه فى التمهيد لها ، وفتح الطريق امامها ، ورفع الويتها والتفخ فى يوقها ؟ •

بهذا المقياس ، حاولت ان اقيسهم ، وفى هذا الميزان وضعتهم واعمالهم • فانا لم اقصد الى تقويمهم بالمعايير الادبية البحتة • بل نظرت الى اديهم • كتصوير وانصاح عن موقفهم من حياة امتهم ومشكلاتها • ولذا لم انكر عليهم انهم كتبوا وترجموا ولخصوا وخطبوا واذاعوا بل لم انكر عليهم حرفا قالوه ، او سطرنا خطوه ، او خطوة خيرية ، سسعو بها ، او بارقة شجاعة لمحت فى حياتهم ، او نوبة مفاداة وتضحية ، شملتهم فاخرجتهم عن منهج الحرص الذى يبلغ فى الاحتياط حد الجمود • لم اجد فضيلهم ولم انكره •

ولم يكن ثمة سبيل الى ذلك ، وقد تعلمت على ايديهم ، وفتحت العين على ما كتبوا ، وأطرب سمعى ما قالوا ، وخلصوا لى فى صياي وشبابي ، وجريت وراهم املا عقل مما يقولون واملا عيني بالنظر الى وجوههم ، ماخوذا مجيبا •

ولكن كحما يهملناهم فلا سبيل الى انكار الحق • الذى لا يُنقذه اليوم قاله الذين سيأتون بعدنا • ونحن جديرون بان نقوله لان فرص الحياة ، اتسعت امامنا ، ولن تبلغ ما نسمى اليه ، ونطمح فيه ، ما لم نتسلح بالصرحة ، ومالم تقتحم من مجالات القول والفكر ، ما توامينا واتفقتنا على ان نتحاشاه ونتقى الاقتراب منه فضلا عن الدوس فيه •

ولقد كان الاقتناع يملا نفسى ، طوال سننى ما قبل الثورة ، ان قادة الفكر والرأى عندنا شاخوا قبل الاوان ، ونفدت بضاعتهم مع اشتداد الطلب ، وكثرة الحاجة • لقد قالوا ما عندهم - كل ما عندهم من فى السنين الاولى للشباب ، ثم ظلوا يعيشون انفسهم حتى ملوا القول ، فاصبحوا ابراقا لغيرهم ، فتداولتهم الاحزاب ، فقالوا باسمها وحسابها ، ما انكروه فى شبابهم ، وما عملوا ضده طوال سنين عديدة • ولا ادل على ذلك من انهم تركوا المراكزين الكبيرتين : معركة الشعب مع الملك ومعركة الشعب مع الانجليز • فلم يشوضوا

الانجليز بأن يؤلف زعماء هذه الاحزاب جبهة لتقوم الجبهة في الحال ، وليوقع كل اعضائها على معاهدة واحدة ، ليثبت لكل ذي عينين انهم جميعا من طينة واحدة .

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، وبدا واضحا جليا ان علما جديدا بهم بالخروج من احشاء هذا العالم القديم الذي تهاوى تحت ضربات آلاف الطائرات اولا ثم القنبلة الذرية اخيرا ففزت جميع المشكلات التي اراد العالم القديم ان يحجبها ويخفيها عن الانظار . فتح موضوع حريات الافراد ، وكيف تصاغ وتحمى من جديد ؟ ماذا تكون ؟ وفتح موضوع حريات الشعوب وكيف لا تصبح سلعة في ايدي الاقوياء ، يتداولونها ، ويكسبون منها ، ولا يصيب الشعوب اصحاب هذه الحريات الا الحسران . فتح موضوع السلام العالمي ، وعلى أي أساس يقوم ، فتح موضوع التكتلات الاقليمية وكيف تعمل . ولدت مشكلة فلسطين ، ومشكلة الوحدة العربية ، وفي الداخل تكاثرت المشكلات ، مشكلة الحكم ، وصير الدستور ، ومعنى الحرية الفردية ، وطنية الديمقراطية وهل تبقى سياسية ليبرالية أم تصبح اجتماعية اقتصادية ، وصلاتنا بالمسيكرين الغربي والشرقي ، وصلاتنا بأفريقيا والعرب .

ومعنى هذا كله ان منابر جديدة اعدت ليرقاها اساتذتنا الكتاب الكبار ، وان يقولوا في هذا كله كلاما جديدا ، وان يقودوا الشباب في مفترقات الطرق ، وان يتحدثوا اليه بصراحة وصنف وشجاعة ، ونظر الشباب الى هؤلاء ، فاذا هم هم ، يجرون على نفس المنهج ، ويقولون نفس الكلام ، هذا يسب زعيما ، وذلك يسب زعيما آخر ، ويكتب كل منهم مقالا في هذه الجريدة أو تلك حسبما اطلق . مرة في الشرق ، ومرة في الغرب ، وتخرج الكتب في المناسبات وفي غير المناسبات عن سنن يات سنن ، وجناح ، وأبي نواس ، وبيكون ، وكلها عجالات تكاد تكون تلخيصا أو تضييما آمينا . كما كان يقول الامتاذ أحمد الصاوي محمد . لكتاب أو كتابين أوروبيين . ثم حلت فجأة شيء غريب . أصيب الكتاب الكبار ، بهوى الاسلام .

قتالا ولم يمتشقوا سيفا ، بل انهم وقفوا في الجانب الآخر ، يمدحون الملك ، ولا يحسبون الانجليز بحصاة فما أسوأ الحاتمة ، وما اتبعها !

ولكن ما أشد حزننا لهم ، انه حزن مساو لحبنا لهم ، أو هو أكبر . وما أكثر حيننا لهم ، وما أعظم اعترافتنا بالفضل لهم .

ولسنا نقول القول هنا على عواهنه اذ ما على الذي يكذب هذا القول ، أن يضع أيدينا على الدليل الذي ينقضه . ولا يكفي في هذا المجال ، البكاء أو التباكي .

لقد دار أكثر هؤلاء المفكرين الكتاب على الأحزاب حزبا حزبا ، وتبادلوا مواقفهم . فمن كان يدافع عن الوفد ، هاجمه وخرج عليه ، ومن كان يهاجم الوفد ، انضم اليه ، وتحمس له ، وأصبح من غلاة المدافعين عنه . ومن كان يهاجم الملك ، تغزل فيه ، وحرق البخور بين يديه . وفي أي وقت ؟ بعد أن تدهورت سمعة الملك ونفوذه !

ولسنا نحسب أن نسمى هذا الشخص « حسيك » أن تعلم أن فلانا كان « دستوريا » « ق » اتحاديا ، ثم دستوريا ، ثم وفديا ، ثم وفديا ملكيا .

وأن فلانا كان نحاسيا ثم نحاسا للنحاس ، ثم دستوريا أو صديقا للدستوريين ثم سعديا ، ثم سعديا ملكيا .

ثم انظر الى هذه الاحزاب ، فاذا هي جميعا - وبغير استثناء - تؤمن بالمفاوضة مع الانجليز ، ثم هي تنفذ المعاهدة البريطانية بحماسة ، ثم تستنكر تزيف الانتخابات ثم تريفيها ؛ وتستنكر الأحكام العرفية ثم تعلنها وتطيل فرضها ، ثم تتسابق على رضى الملك في الحكم ، وتزعم زجيرة مكتومة ، عندما تطرد منه .

فهو اجزاء من كل ، وهذا الكل هو حزب الامة ، ثم حزب الوفد بعد ذلك . هذا هو التاريخ الذي لا سبيل الى انكاره . ولذلك فقد كان من السهل اليسور دائما ، أن يامر

فهيكل والمعاد وطه حسين لاعمل لهم الا تاريخ الاسلام وتاريخ حياة نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام ، وحلفائه وصحابته : كتابا اثر كتاب ، ومجلدا وراء مجلد .

لو كنت اجنبيا عن هذا الوطن ، لظننت ان هؤلاء قد انتهوا آخر الأمر ، بعد طول المطاف الى الايمان بأن العودة الى الاسلام هي سبيل النجاة السياسية والاجتماعية والروحية لبلادنا . ولكن الذين يعيشون في مصر ، كانوا يعلمون ان هذه الكتب ، لا تزيد عن ان تكون حلقة في سلسلة الكتب التي كانت تصدر عن هؤلاء الكتاب أنفسهم بلا متع ولا هدف ، وانها اقرب ماتكون من الحديث عن يكون ، ونيتشه ، وتولستوى ، وعن تلخيص المسرحيات الفرنسية ؛ والدراسات السريمة الموجزة عن اليونان والرومان ، وبلاد تروكب الاقبايل .

وقد تعترض على ، فتقول انك تكلف الابداء والمفكرين شططا ، حين تطلب منهم ان يتأثروا بكل كتاب يكتبون ، فمن كتب عن **فاندى** وجب ان ينضو عنه ثيابه ويكتفى بـ **هيسبة** ، ومن كتب عن موسوليني **بـ رجب** **الـ براندي** القميص الامسود ، ويدعو الى القوة ، ومن كتب عن مصارع ثيران تحتم عليه تعلم المصارعة ، والبحث عن حلقات القتال . .

والحسب اننى لم اكن لأريد من هؤلاء الاساتذة ، ان يفعلوا هذا أو بعضه ، وانما اريد من هؤلاء الذين ينتابح انتابحهم فى اتجاه واحد ، ان يكون هذا الاتجاه ، دليلا على تحول فكرى ، وان يكون لهذا التحول الفكرى ، اثره فى نشاطهم السياسى - وفى أسلوب حياتهم .

خذ مثلا تولستوى كان قصاصا فلما اضطربت نفسه ، ثم ثابت الى الايمان بالمسيحية ، انقلبت حياته رأسا على عقب ، وتأثرت أفكاره فى الكل والتفاصيل ، واصبح العمل الادبى ثانويا بالنسبة لدعوته الجديدة . وهجر بيته وأمرته ، وغير ملبسه ومأكله .

وليس تولستوى الا مثلا صارخا ، وليس كل الابداء والمفكرين فى مثل مزاجه وحيويته

ولكن هذا المثل المتطرف يرينا كيف يأخذ الكتاب ، مايكتوبه ، مأخذ الجد . فهم لا ينظرون الى أنفسهم نظرة الانسان الى الطبيعة التي تخرج كتبها فى الرياضة والفقه وحساب المثلثات والشعر ، تنشر للمصنكر الغربى والشرقى ، وللمسلمين والمحدثين فاذا كان الكاتب زعيما سياسيا ، ينتخب للمجالس النيابية ويشارك فى الحكم ، فى الوزارة ، او يكون مستشارا للوزراء فتبعته تريد ، ومسئوليته تكبر ، ويصبح من حق القراء عليه ان يحسبوا ان التحول الى الكتابة فى موضوع معين ، ثم المثابرة والاصرار عليه ، والتنوع فى أسلوب التحدث فيه تارة بالكتابة التاريخية وأخرى بكتابة التراجم ، وثالثة بكتابة القصص ورابعة بالدفاع السياسى - من حق القراء ان ينتظروا من وراء هذا التحول ، نتائج الطبيعة فاذا وجدوا ان الامر ليس الا ثمرة صدفة مضى حولت دفة القارب الادبى فى بلادنا الى هذا الاتجاه ، وان رواج الكتب اوكسب المادى ، هما صاحبا الفصل فى نشوء هذا الاتجاه ولا شيء غير ذلك ، كانت خيبة الامل فادحة . .

هذه هى جملة الراى ، فى هؤلاء الكتاب ، هو راي لا يبنى فى قليل أو كثير ، ان ينتقص قدر ما اخرجوه لنا من كتب ، وما نظموه من شعر ، وما ترجموه أو حصوه أو غلقوا عليه ، نقد كان ذلك كله زادا لجيلنا .

الوارث لا يكون جاحدا ان هو قرر ان مورثه ترك له بيتا ، ولم يقبل انه ترك له مصنعا للحديد والصلب مثلا ، اذا كان المورث قد ترك بيتا بالفعل ولا يكون ناكرا للجميل ، ان قال ان البيت كانت تنقصه الابواب ، أو الشبائيك ، وأنه لم تصل اليه المياه أو الكهرباء ان كان البيت كذلك .

على ان الوارث لا يليق به ان يعدد عيوب تركه آبيه حتى ولو بالحق ، الا ان اراد ان يرمم ما تصدع من بناء عقارها ، وان يحسن فى صقع اراضيها ، وان يسد ديونها ، ولم يكن هذا التصديد لمجرد التنديد بالآباء والاجداد أو ليشكر الحظ ، فما أجدد الابداء بان يسمع منهم التناء على الآباء .

وأولئك خيل اليهم أنهم قديرون على نقل صور الأدب الغربي الى الشرق كما هي . فخيّل اليهم أن في الشرق كنيسة ككنيسة الغرب ، وأن ما انتهى اليه النضال بين الدولة والكنيسة في الغرب يجب أن تبدأ عنده حملتهم على هذه الكنيسة الموهومة في الشرق ، وخيّل اليهم أنه يجب الفصل بين الكنيسة والدولة على نحو ما حدث في فرنسا ، وأعترف أن خواطر كهذه جالت بنفسى في أوقات متفاوتة .

ولكن كتابنا الإعلام ، هي فترة اللادينية أو القتال ضد الكنيسة الموهومة ، في الاسلام ، ما كادوا يمتشقون سيوفهم ليحققوا الإصلاح الدينى المنشود ، وليحرروا العقول من رقة (الكنيسة) ، ويدعوا الى فصل الصلح عن الدين ، مما عبر عن بضه كتاب « في الشعر الجاهل » حتى أحسوا أنهم داعبوا أسدا عسورا نائما ، فتقهقروا بفجر انتظام عما قالوه ، بل عن كل ما كان في نيّتهم أن يعلنوه وما أعلنوا بالفعل بضه وثابوا وأثابوا ، ولم يعد أحدهم يقول شيئا من هذا حتى ولو حسا ، فقد نكسوا لهيكلهم من قبلهم السياسي سيديهم ، وأن يستطيعوا أن يحققوا مآحقوه فيما بعد من المكانة المادية والأدبية ، فيصبحوا وزراء ، وزعماء ، ويقعدوا مركز القيادة الأدبية ، ويواصلوا تحرير هذه المقالات اللطيفة السريمة ، التي تلم بكل شيء ، فتتحدث في الأدب والفن ، والسياسة والتاريخ ، وتلخص المسرحيات والقصص ، وترجم للأحياء وللأموات ، وتؤنن وتهنى ، وتنقد وتزكى أصحاب الاسماء التي صنعت تاريخنا الادبي الحديث .

وليس حتما أن تفهم بالضبط ماذا وراء هذه الأشتات المتناثرة ، فإن كلا منها على حدة شيء طريف ممتع ، وليس هناك كثيرون ينافسون السادة الإعلام في جمال ما يكتبون ولا حسن وقعه في النفوس .

وجملة القول أن هذا العصر ، كان لا يؤمن بشيء ، وإن كان يهم بالايامن بأشياء ، وأنه عصر يحسن التخلي عن أفكاره ، عند أول بادرة

وقد قلت في هذا المسلك من كتابنا الكبير في صفحة ٢٥ : « ولك أن تتسائل بعد أن تفرغ من قراءة هذه الكتب الكثيرة ما الفارق بين هيكل والعقاد وغيرهما حينما لم يكونوا يذكرون الاسلام الا نادرا وهيكل والعقاد وزملاؤهما حينما وجهوا جهدهم الأدبي ووقفوا دراساتهم أو كادوا على الاسلام وإبطاله وأحكامه وقد لا يروقك أن تعلم أنه لا شيء مطلقا أولا شيء تقريبا » . فسا من شيء في حياتهم تغير بتغير موضوع دراساتهم وكتاباتهم ، وما من شيء تأثر في أسلوب تفكيرهم ، وكان الطبيعي ، وقد بلغ الإعجاب عندهم بالاسلام الى هذا الحد الكبير ، أن ينعكس على مسلك في الحياة العامة وعلى تفكيرهم السياسي .

ولذلك تولاني عجب شديد حينما وجدت أن التعليق على هذه الالفاظ الواضحة ، والمعاني الجليلة ، هو اننا نكون متصفين اذ نعتبر الصودة الى التراث العربي على يد طه وأحمد أمين ، وأمين الخولى نكوصا على الاعقاب أو ردة .

نكوص ورده ؟

من الذى ذكر النكوص والردة ؟ ولو من بعيد ، وهل يكون مثل أن يعتبر العودة الى التراث العربى والتراث الاسلامى نكوصا ورده ؟ اذن ماذا تكون النقاوه والتماثل للشفاه الصلحة والعافية !!؟

على أنه مما يزيد من غرابه هذا الغرام الاسلامى المفاجيء أنه جاء في أعقاب فترة كان فيها كتابنا الإعلام (علمانيين) أو (علميين) أو (لا دينيين) ، واختار لنفسك اللفظ الذى يروقك .

ولقد كان لعلمانييتهم أو لادينييتهم هذه آثار فيما يقولون وفيما يكتبون ، أشار الدكتور محمد حسين هيكل الى بعضها في صفحة ٢٣٦ من كتاب « ثورة الادب » فقال :

« والحريون والشرقيون الذين لم يغطنوا بما يجب من الدقة الى هذا الاتصال التاريخي بين الدين والصلح والفلسفة والأدب في الغرب ، والذين فتنوا بأدب الغرب ؟ هؤلاء

فى رأسى .. لا لأن ما كتبت فيه حق بالضبط
ما أردته ، بل لأنه أتاح لى أن أعيش مع
أصحاب الاسماء التى صنعت تاريخنا الادبى
الحديث ، وان أزداد منهم قربا ، ولهم فها
وفى صفحة ٧ من الكتاب عدت أقول :

« والوفاء يقتضى أن أعبر مرة أخرى عن
شعورى بالدين العميق لهذا الكتاب الذى جمع
أرواح وعقول هؤلاء الكبار حولى ، والذى أتاح
لى أن أتأملهم واحدا واحدا ؛ وأن أتأملهم
جميعا ، وأن أبعد عن صورتهم لأراها أكثر
وضوحا ، ثم لأقترب منها لأدقق النظر فى
تفصيلات الصورة ، وأنا بين الابتعاد
والاقتراب ، وبين النظر اليهم مجتمعين والنظر
اليهم متفرقين ... نشأت بينى وبينهم مودة
أكثر ادراكا ومعرفة ، فليس ادعى الى نشوء
الصداقة من الاقتراب الودود ، ومن التأمل
الذى يبحث ليفهم لا ليقنع على العيوب ،
ولا ليخضع المين عنها »

ثم قلت :

ولقد استطعت أن أرى هؤلاء الكتاب وهم
يسألون أنفسهم وينون وطنهم : منهم من كان
يحمل الأعباء الثقيلة فوق كتفه ، ومنهم من
كان يحصل بين كفيه حفنة من تراب ...
ولكنهم جميعا كانوا يودون أن يعيشوا حتى
يروا بأعينهم بناء شامخا لأمتهم »

وفى عشرات أو مئات من المواضيع ترانى
أثنى على العصر ، حيث يستحق فى نظرى
الثناء ، وأعد حسناته حيث أجد هذه
الحسنات .

وقد تساءلت أمر حقيقة عصر ذهبي كما
تردد على خاطرى فترة وأنا أنهى فى الكتابة
عنه ؟

أمر عصر عمالقة الشعر وكبار الكتاب ،
ويذر ينور النهضة والتحضير لها واعداد
شماثرها ؟

أمر عصر اضطراب وقلق وتمرد ، حاول
أن يتور على الاستعمار والملكية ، وعلى حكومات
الأقلية ، واحتضن ما استطاع قضية العمال -

حطري ، ولعل أحسن مثل يضرب على ذلك مارواه
الدكتور هيكل عن سعد زغلول فى موضوع
الخلافة الاسلامية بعد سقوطها فى استامبول
على يد مصطفى كمال (أتاتورك) سنة ١٩٢٤ -
فقد قال الدكتور هيكل ان سعد زغلول وعده
بحديث لجريدة السياسية يؤيد فيه رأى
الاحرار الدستوريين فى أن الخلافة كانت عبئا
على تركيا ، أثقلها فى نهاية أيامها ، وأنها
تكون كذلك على مصر ان هى نهضت بها ،
فلا يصيبها منها الا الوبال - ولكن سعدا أدرك
أن وراء ذلك اثاره لغضب الرأى العام ، فامسك
لسانه وأثر السلامة فى حين كان مركزه
يقتضيه أن يقود متحملا المسئولية ، لا أن يقاد
فارا من التبعة .

هذه سمة العصر الأصيلة ونقلوها للمرة
الثانية أو الثالثة ، نقص فى الايمان ، ونقص
فى الشجاعة ، واتقاء للمكاره ، واخذ للأمور
من أيسر السبل ، والتخلى عن الأفكار ،
والثقل بين الأحزاب ، ومصالحة متجذرة مع
الانجليز والمملك .

لكننا لا نستطيع أن نقول انه عصر بلا ايمان
ولا عصر بلا شجاعة ، ولا عصر بلا مكاره
جزئية ، ولا عصر خلا من التوثب على الانجليز
حينما ، وعلى الملك حينما ، ومن مضارعة للأموال
الجديدة ، أو الدعوة إليها . ولكنه ايمان غير
ثابت - ان صح ان هناك ايمانا غير ثابت -
وشجاعة تخون أصحابها عند اشتداد الأزمة ،
ومخاصمة غير مشوبة بالتودد ، ومشارك مع
الملك تنتهى بلم عتباته الملكية .

لكن هذه الفضائل الجزئية ، للعهد أنتجت
أشياء ستبقى على الزمن ، أحصيتها فى كتاب
(عصر ورجال) .

ومن هنا كان أسلوبى فى تاريخ هذا
العصر ، وفى تقسيم دور زعمائه ، ينضج
بالحب والتقدير ، وفى الكتاب مائة دليل
ودليل على ذلك ؛ لا بفترة واحدة ولا بفترات
وأما بصفحات اليك مثلا :

استفتح الكتاب بهذه الفقرة :

« لكم أحببت هذا الكتاب ، وهو بعد فكرة

العصر ، كان له التحضير ، فلا أساس مطلقا للقول بأنى أنهته بأنه عصر بلا دور .

ثالثا - وبالتالي لم أزعج قط أن العصر ، انقطعت صلته بعصرنا وأفكارنا وأعلامنا ومحاولاتنا بل أكلت العكس بأكثر من عبارة .

وفي صفحة ٨٠ بعد تساؤلات كثيرة - كنت أضمتها دائما حسنات المهدي ، وأضرارها تساءلت ماذا فعل هذا العصر ، وماذا فعل رجاله ؟ ماذا يساوي هذا العصر ، وهل ذهب وكله أخطاء وآثام وعجز وحيرة ، أم كان لرجالها فضل لا يتكر ، ومقام لا يجحد ؟

وأجبت في صفحة ٨٣ :

« لقد تركوا شيئا له اثره ، وقيمته ، وقالوا كلاما نافعا ، وتعرضوا بين الحين والحين ، لبعض الاذى ، وأثاروا أحلاما في النفوس ، وخواطر في العقول ، ومشاعر في القلوب ، وتحسينوا عن الحرية والدستور ، وعن الادب والحياة ، وترجموا ولصوا .. »

كم قلت في ص ٨٥ :

« وكذا لا يمكن انفسنا من توجيه التحية لهذه الاستاذة ، ومن الاقرار لهم بالجهد ، والاعتراف لهم بالفضل ، فقد أعطونا أحسن ما عندهم .. »

ولم أحس ، بعد أن فرغت من الكتاب ، اني حاجت أحدا ، فقد كتبت فصول الكتاب كلها - كما قلت بروح الود والتقدير ، حتى الفصول التي اشتدت فيها نبرة النقد ، لم تخل قط من ذكر الفضل ، التنويه به ، والتأكيد عليه ، لا تلطيفا للهجو ، ولا تخفيفا للعنف - بل تعبيرا عن عاطفة صادقة ، وميل لا شبهة فيه .



أما منهج الكتاب ، فاعجب أن يخفى على قاريه فضلا على ناقد - فانا لم أعد ، لا بتاريخ حياة كل كتاب عصر ما بين سنتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ ، ولو فعلت لانتصر نصيب كل منهم على صفحة أو صفحتين ، ليصبح الكتاب ، مرجعا الى الاسماء وتواريخ الميلاد والوفاة ،

ودافع ما وسعته الدفاع عن الحريات الدستورية ، والحقوق الاسامية للشعب ؟

أهو العصر الذي ترجمت فيه الكتب الغريبة ، وبدأت حركة التنوير ، وتلاحقت على مدى سنتين مؤلفات لم يشهد العصر الذي قبله بل العصور التي سبقتة شيئا مما تلا لها ؟

أنحسبه عصر العظام - أعلن فيه الدستور ، وبنيت فيه الجامعة ، وكثرت فيه الصحف ، وبدأت الوحدة العربية تظن عن نفسها ، وتطل برأسها وعرضت فيه قضية مصر في الأمم المتحدة والغيت المعاهدة .. »

وعددت الشعراء الذين ازدحم بهم العهد وتساءلت من جديد : فهل عرفت مصر قبل هذا العهد مثل هذا العدد الكبير من الشعراء على اختلاف مدارى السفر ؟

ولم أكتف بكل هذا الاقرار بالفضل فالتسست لهم المعاذير فقلت في صفحة ٨٥ :

« وإذا كان الجيل الجديد قد تلقى هذه الرسالة فقد تلقاها مفتوحا الفهم مبدركا تمام الادراك كما تعثر فيه سلفه محيطا بنقص التركة التي ورثها ، عارفا لمزاياها ، منتفصا بالاضطراب ، وقد كان للذين سبقوه أكثر من عذر يعتدرون به ، كان الاحتلال جائئا على الصدور ، فارضا ثقله على الحياة السياسية والعقلية ، وكانت الملكية قائمة ، تسد أكثر من سبيل في وجوه المفكرين ، وكان دور بلادنا في الحياة الدولية لا يوحى بالطموح والتطلع الى المساهمة الجديدة .. الخ »

ومن كل هذه الفقرات التي لم أرد أن أزيد في التوسع في نقلها لكيلا أثقل على القاري يتضح :

أولا - ان الاقرار بفضل عصر ما بين التنويرين ، فاضت به عبارات الكتاب ، بمقدماته وفصوله ، فلم يرد هذا الاقرار في جملة واحدة تائهة وسط محيط غريب عنها .

ثانيا - أنني سجلت بغير مواربة أن هذا

وأسماء الكتب ، الى آخر ما يطلبه الراغب في مطالعة عجالة صغيرة .

ولكن ما وعدت به القارىء هو تصوير العهد من خلال تراجم بعض كبرسار كتابه وشعرائه . وقد تصورت أن وضع هذه التراجم الواحدة منها الى جانب الأخرى ، كقيل بأن تجتمع فيه صورة كاملة للعهد ، لأن كل ترجمة ستروى جانباً من حياة العهد ، ومنهجاً من مناهج العيش والتفكير فيه . فإذا كانت هذه غايى ، فليس من الانصاف فى شيء أن يقول لى قائل : ولقد تركت فلاناً - أو تركت بعضى من وعدت بأن تكتب عنهم ، ذلك بأن عدد الكتاب ، ليس شرطاً من الشروط التى فرضتها على نفسى ، ولقد كان اختياري لهؤلاء الكتاب والشعراء ، بقصد خدمة الغرض الذى صدر الكتاب ليحققه . وليس من حق الناقد للصورة أن يأخذ على مصورها ، انه لم يستعمل كل ألوان الطيف ، وإنما له أن يقول أن الصورة لأنها افتقدت لونا يعينه ، بدت كشيبة أو ضعيفة ، وأن اللون الذى استعمل فيها ، لا يتلق مع موضوعها .

وأنا أزمع أن الاثنى عشر ترجمة تأملات فى رسم مشهد عام لحياتنا الفكرية خلال هذه الفترة ، التى جعلتها موضوعاً للحديث ، ولما حضر لها واتصل بها اتصالاً مباشراً .

ويتصل بهذا النقد أننى وضعت الى جانب شوقي عبد الحميد الديب ، وإلى جانب هيكل الغاياتى ، وإلى جانب المازنى يوسف حلمى ، ومن أن التفاوت فى اقدار هؤلاء ، كبير ، الى

الحد الذى يقع معه فى نفس الانسان ، أن الاختيار وقع اعتباطاً . والواقع أن هذا الاختيار كان مقصوداً لذاته ، وقد فرضه موضوع الكتاب ، فالتاريخ لهذه الحقبة لا يكمل بترجمة حياة شوقي ، دون عبد الحميد الديب ، فعبد الحميد الديب ، يروى لنا بحياته ، جوانب من حياتنا فى تلك الفترة لا تروىها حياة شوقي ، فى حياة الغاياتى ويوسف حلمى ، ما اذا جهلناه ، جهلنا جوانب أخرى من تلك الحياة ، ليست أقل خطراً ، ولا أضعف أثراً من حياة شوقي وإن كان أكبر شعراء عصره ، وكانت الناس قد نسيت الغاياتى ، وكان الحظ لم يتح ليوسف أن يلعب الدور الذى تاق اليه ، وحلم به .

ولا تثريب على أن اشترطت على نفسى أن يكون الكتاب أو الشاعر من لحق بالرفيق الأعلى ، أو ممن عرفتهم معرفة شخصية أو ممن ترجموا لأنفسهم أو ترجم آخرون لحياتهم ، فهذه شروط لا تغير من النتيجة النهائية شيئاً ، إذ أنه أياً ما كانت الشروط التى اتبعتها فى اختيارهم للحديث عنهم ، فإن الشرط المرامى لى اختيارهم جميعاً ، هو أن يطلعونا من نافذة دنياهم على الدنيا التى عاشتها بلادنا خلال ثلاثين عاماً أو يزيد .

وقد كان بوى أن أتساول ملاحظات أخرى ، بيد انى أحس أن الكلام طال ، ويغفل الى أنه ستتاح بأذن الله مناسبات قادمة ، تكمل فيها القول ، عن عصر ، يستحق منا أن نكثر من الحديث عنه ، والتأمل فيما أهدى لبلادنا وما صنع لمستقبلنا .

عروس السماء

شعر: حسن كامل الصيرفي



يا عروس السماء ما كنت جسماً يتجلى في الناس، بل كنت نسمةً
 عبرتُ عالماً كثيرَ الرزايا عبرةً كلها سلامٌ ورحمة
 يا عروس السماء ما كنتِ إلاً أملاً باسطاً على الليلِ حُلْمَهُ
 لم يَدُم طيفه ، وأيقظ فيها شبحَ الحزن ، ثم عاودَ نَوْمَهُ
 يا عروس السماء ما كنتِ إلاً وَفْصَةً النورِ في كثيفِ الظلمه
 ضوأتْ خفقةً ، فلما انتبهنا لم نَجِدْ بيننا ضياءَ النجمه
 يا عروس السماء ما كنتِ إلاً بسمةً لآلآتِ كآفصرِ بسنمه
 ما فرحنا حتى توارت ، وغامت دمعَةٌ في العيون أقمَ غيمه
 يا عروس السماء ما كنتِ إلاً زهرةً فوحت بأطيبِ فغمه
 أين راح العبير ، أين تلاشى وشباب الربيع لم تستثمه ؟
 قُطِفَتْ زهرةً ، وغُيِبَ ضوء وتوارى في ليلةٍ مدلهمه
 كم بَنَيْتِ الآمالَ أوسعَ ما قد شادَ بانٍ من المنى وأثمه
 وترقبتي - والغيوم تغطي ما ترقبتي - في جلال وعصمه
 كنتِ أعلى من سنك الحق هدياً كنتِ أعلى من سنك الحق حكمه
 رقة كالنسيم يعبر بالفج - ر ، وفيه أصداه . أجمل نعمه
 وكتسبيحة المصلي إذا ما حرمته الأملاك والظهر ضمه



وذكاء كأنه النور يمضي في الظلام الكثيف حتى يعمه
يا عروس السماء كنتِ على الأر ض خيالاً يسعى لِيُسعدَ قومه

■ ■

إيه يا أرض يا طريق الرزايا زحمتنا الأقدار أحشد زحمة
لستِ أهلاً لأن تكوني مقاماً لعروس ، ولستِ أهلاً لنعمه
كم تحيلين فرحة الناس حزناً وتحيلين نعمة العيش نقمة
تبتلين الأجسام بالألم الدامى ، وترمين بالخطوب الملمة
ما رأينا السرور إلا مشوباً بدموع تمحو رؤاه ورسمه
تسكين الشراب صفواً زلالاً وتصبين مُرّه أو سمّه
ما عرفنا الطريق إلا صخوياً نعتليها فلا نرى بعدُ قمّه
الشكوك التى تطلسم حقاً هى أفقٌ نمضي إليه بهمة
فى فراغ ندور ، والكلُ وهمٌ وعجبٌ أن يرتضى العقلُ وهمه
الصراع الذى نخطم فيه هو السعى وراء زيف وريمه



° °

يا عروس السماء عودى إليها عانقها كالطفل عانق أمه
أنتِ منها ، وفيك منها جلال وسمو ، وفى السماوات رحمه
يا عروس السماء فارقتِ دنيا كل حى فيها يراقب يومه
نحن فيها صيدٌ سجين رهين للختول الذى يصوبُ مَهْمَه
قد حملتِ الآلام فيها ثقلاً ؛ أى قلبٍ يرضى أساه وسُقْمَه
لم يُطقْ قلبك الرقيق احتمالاً لضروب من المشاعر جمّه
فمضت خفقه ، وران سكونٌ ، واستردتْ وديعة الله ذمّه



مسح القصة العربية



[١] في مختلف العصور

بقلم : عبد الحميد ابراهيم محمد

القصة عمل فني معقد ، يحتاج الى عقلية تحليلية ، تستطيع المزج بين عناصر القصة المختلفة ، وتقدر ان توائم بين الشخصيات في علاقة بعضها مع الآخر ، وتلائم بين الشخصية وحوارها ومسلكها .. ثم توجه كل هذه العناصر لخدمة غرض معين وصهدف في ذهن الكاتب .

وهي عمل يحتاج الى خيال مبتكر خلاق . يحاكي الطبيعة في صنع الأحداث ، ويشاكل الحياة في ابتكار العلاقات .

وقد أذكر بعض المعاصرين على العرب قدرتهم على خلق قصة ، وحكموا بخلو الادب العربي من هذا الفن .

فالأستاذ الزيات يؤمن بقصور العرب في القصص ويرى أن هذا القصور استمر حتى « وضع ابن المقفع الفارسي مناصح النثر » ، وفكر في تكوين شيء من القصص ، فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو « كليلة ودمنة » و « هزار افسانه (آلف خرافة) » و « دارا والصنم الذهب » - حديا للعرب ونموذجا لهم في وضع ماوضعوه منها (١) .

ويجبل الأسباب التي أدت الى هذا القصور في ان مزاوله القصة تقتضى الروية والفكرة ، والعرب اهل بديهة وارتجال ، وتتطلب الإمام بطبايع الناس وهم قد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم .

وتفتقر الى التحليل والتطوير وهم أشد الناس اختصارا للقول وأقلهم تعمقا في البحث ، وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخبار الشديدة وحرمتهم طبيعة أرسهم وساطة دينهم وضيق خيالهم واعتقادهم بوحداية الهمم ... كثرة الأساطير ، وهي أغزر نتائج هذا القصور (٢) .

والأستاذ توفيق الحكيم يرى أن الادب العربي - في الفترة السابقة للإسلام - خلق فني ناقص التكوين ، فاذا تأملت الآداب القديمة ، وجدت أنه قد عاصرتها فنون كبرى ، فالمعابد العظيمة والتمائيل الرائعة في مصر القديمة ، والهند ، والافريق ، خليق أن يعاصرها أدب عظيم مثل الملاحم والتمثيل والقصص ، ولكن الادب العربي نشأ في بيئة قاحلة ، فكان أقصى ما عاصر لفظة امرئ القيس ، أوليبد - أو زهير تلك المسوخ والتهساويل لآلهة من الحجر أطلقوا عليها الهبل واللات والعزى .. (٣)

والدكتور أحمد أمين يمتد في تصوير العرب في هذا النوع من القول .. وإن كان يخفف الأمر فيرى أن هذا الضرب أحد مظاهر الخيال لا مظهر الخيال كله فالفخر والحاسة والفزل والوصف والتشبيه والمجاز - كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال . والعرب قد أكثروا القول فيه كثرة تسترعى الانظار ، وإن كان الابتكار فيه قليلا - كذلك ما ملأ به شعر العربي من الفزل وبكساء الأطلال وذكرى الأيام

منحه الله الدهشة نحو العالم وأفاض عليه العاطفة المشبوبة والخيال الواسع ، فأخرج للإنسانية القصص الرائعة والمسرحيات الذاتية . وذلك جنس سامي لم يوسع الله عليه ، فحرره الخيال المبتكر ، والعاطفة الخلاقة ، فلم يبتكر قصة ولم يخلق مسرحية .

وينحدر «حتى يوم» عن النظر العقل عند الساميين فيقول :

« لم تكن للعقل السامي قبل اتصاله بالفلسفة اليونانية ثمرات في الفلسفة وراء الألفاظ ، والأمثال الحكيمية . وكان هذا التفكير السامي يقوم على نظرات في شئون الطبيعة متفرقة ، لا رباط بينها ، ويقوم بوجه خاص على النظر في حياة الإنسان وفي مصيره . وإذا عرض للعقل السامي ما يعجز عن ادراكه لم يشق عليه أن يرده إلى إرادة الله التي لا يصجزها شيء ، ولا يدرك مداها ولا أسرارها ، ونحن نعرف هذا الضرب من الحكمة في العهد القديم ، ويدل على تكوينه لدى العرب ما جاء في التوراة من قصة ملكة سبأ ، وما يحكي عن شخصية لقمان الحكيم مما هو وارد في المأثورات العربية . » (٧)

واعتقد أن هذه الآراء كانت مظهراً للفرور الذي احتضن أوربا في القرن التاسع عشر وما بعده بسبب حركاتها الاستعمارية وقوتها الصناعية ، وانتصاراتها العلمية ، فخيّل إليها - وهي في تلك النشوة المشغلة - أنها جنس ممتاز ودم فريد من حقه ، بل من الواجب عليه ، أن يتولى أمور الأجناس الأخرى وأن يمتلك زمامها . وقد وقع الأستاذ جبب « Gibb » على سبب شبيه بهذا ، وهو يعمل لبعد العقل الغربي في القرن التاسع عشر عن استيعاب الشرق في آدابه ، إذ « شغلت الغرب يومئذ آراؤه الفلسفية الحديثة ، ومبادئه السياسية الجديدة ، والتطور الصناعي

والحوادث ، وما وصف به شعوره ووجدانه وما صور به تليانه وهيامه - لا يمكن أن يصدر عن عواطف جامدة ، ولكنه يجمل رأيه في عربي الجاهلية بأن « خياله محدود وغير متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيرا من عيشته ، وحياة خيرا من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف المثل الأعلى لأنه وليس له الخيال ، ولم يضع له في لفته لفظة دالة عليه ، ولم يشر إليه فيما تعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعري في عالم جديد ، يستقي منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب ... » (٤)

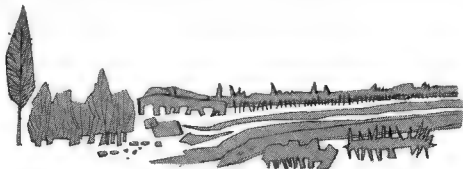
وغير هؤلاء كثيرون ممن يؤمنون بضيق الخيال العربي وعدم توفيقه في الشاء القصص أو خلق الأساطير (٥)



ولعل هؤلاء وغيرهم متأثرون بما احتفى به بعض الباحثين في القرن التاسع عشر وما بعده من **مناداة بالفروق بين الأجناس البشرية** ، أو بنظرية « العروق » كما يسميها « غوستاف لوبون » .

ويمكن تعريف العرق أو النوع البشري بأنه يدل على جماعات ذات أخلاق مشتركة ، تنتقل إليها بالوراثة المنتظمة . ويرى غوستاف أن أثنى البيئة أو التوالد يكاد يكون معدوماً في الظروف العريضة . فقد دلت حوادث التاريخ على أن العسوق إذا ما استقرت أخلاقه وسجاياه بالوراثة ، وبلغ من الكبر عتياً ، عجزت البيئة عن التأثير فيه ، وصار أهون عليه أن يتقرض من أن يتحول (٦)

وشرع بعض الباحثين يربطون الصفات العقلية والوجدانية لكل جنس ، فهذا جنس آري ممتاز ، ذاك جنس سامي أقل منه ، هذا جنس آري قد



العظيم الذي شمله فلم يعد بحالة يستطيع فيها -
الاصفاء الى الشرق ، يله العمل في صبر وأناة على
تفهم الروح الشرقي ، وقضى الشعور بالوطنية على
ذلك المثل الأعلى الذي كان يراه جوته في وجود أدب
عالي ... » (٨) .

ومن الطريف أن هذه النظرة الاستعمارية تصيب
- كما يدل التاريخ - كل قوم أقيمت على أيديهم
حضارة انسانية - فالصيريون القدماء كانوا يسمون
الشعوب الأخرى « بالبربر » ، والعلماء والكتّاب
اليونانيون كانوا يسمون كل من عداهم من الشعوب
« بالبربر » لا يستثنون المصريين ، ولا الكلدانيين ،
ولا الفينيقيين ، ولا الفرس ، ولا غيرهم (٩) .

وحين أتيج للحضارة الاسلامية أن تزدهر أصاب
الفرور العرب أيضا ، قرأوا أنهم أفضل الأمم ، وأن
حكمتهم أشرف الحكم (١٠) .

والحق أن هذه الآراء التعصبية - سواء كانت من
جانب الأوربيين أو من جانب العرب أو من غيرهما -
ينقصها التحيص العلمي الدقيق ، والنظرة التاريخية
الكلية .

أما النظرة التاريخية الكلية - فإنها تبيّن
الحضارات الانسانية لم تكن وفقا على جنس بل على حضارة
وأن كل حضارة هي مرحلة طبيعية ترتفع لما سبقها
من حضارات وترضع ما يلحقها من حضارات .



بعد هذا الاستطراء الذي كان لا بد منه لهدم
الأساس الذي بني عليه من رمى الأدب العربي بالمجب ،
وعدم التنوع في الأفانين الأدبية - أعود الى التكرين
للقصة في الأدب العربي فأعرض عليهم دليلا أقوى
مما سبق ، وهو **واقع الأمة العربية التاريخي** .

فالحقيقة أن القصة واكبت الأمة العربية في سيرها
التاريخي ، وفي كل عصر كانت أداة فتية ، تعب عن
حاجات العرب ، وتشفس عن ظروفهم التي كانوا
يمرون بها .

فالصحراء العربية صحراء رهيبة ، يشمر أمامها
العربي بالضالة ، فإذا ما هجم الليل ، لب العربي
وخيمته ، فلا يستطيع أمامه مهربا ، كما يومئذ النابتة
الى ذلك وهو يعتذر للنعمان ، والعربي أمام الصحراء
وليها يشمر بالرهبة والجلال ، يحيط به هزيع
الرياح ، وتتطلع اليه نجوم كأنها عيون ذات شرور

وتتساقط عليه شهب كالقصر - فماذا يفعل العربي
- في تلك الفترة المبكرة - أمام هذه المظاهر
الرهيبة ؟! لقد جسدها واضفى عليها الكثير من
الاساطير والقصص - فهناك الجان التي تتلصص على
الملوكوت الأعلى ، وتحاول أن تخترق الحجب عسى أن
تجد تفسيراً لهذه المتناقضات التي تحيط بالعربي
في صحرائه ، وقد جاء القرآن بإبطال هذا الصنيع ،
فقد امتلأت السماء حرسا شديدا وشهبا ، تمنع الجن
من الوصول الى أسرار الغيب « وأنا لمسنا السماء
فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا » وأنا كنا
نعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له
شهابا رصدا » (١١) والعربي في ضمه أمام مظاهر
الصحراء يلجأ الى الجن ، « فكان الرهط من عرب
الجمالية إذا أمسوا في واد أو قفر وخافوا من الجن ،
لجأوا الى الاستعاذة بعظيم الجن ، المسود فيهم .
فيقولون : تعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه .
ثم يبيتون آمنين » (١٢) وقد أشار القرآن الى هذه
القصيدة في قوله « وأنه كان رجال من الانس يعوذون
بجبال من الجن ، فزادهم رهقا » (١٣) . وقد حكيت
أفاميص كثيرة حول الجن ، فهناك رجال من الانس
يتزوجون من الجن ، وهناك عشاق من الجن للانس ،
ورد ذكر ابن الديم ستة عشر كتابا في أسماء
عشاق الانس والجن وعشاق الجن للانس (١٤) وهناك
رجل من بني عذرة يقال له وخرافة سيته الجن ،
وكان معهم ، فإذا استرقوا السمع أخبروه ، فيخبر
به أهل الأرض فيجدونه كما قال (١٥) . وقد كان
أبرهة ذو المناسر من أجمل الناس وجهها ففشتته
امراة من الجن ، ثم تزوجت منه ، وولدت له ولدين:
العبد ذا الاسرار ، وعمرأ ذو الاذعار (١٦) ، وكان
العبد اذا أضل طريقه استنجد بالجن لتعينه (١٧) .

وقد استفل الكهان والعرافون هذه العقيدة ،
فأشاعوا بين الناس أن مع كل واحد منهم رثيا من
الجن مثل حازي جهنمه ، وطريقة بنت الجذ المجورية
التي أتاهآ آت في المنام ، فخيرها بين العلم والولد
فاختارت العلم (١٨) . وورث العلم (١٩) من بعدها
سطيح وشق (٢٠) . وحاكوا الاساطير حول هذه
الشخصيات الجنية ، فشق نصف آدمي ، له يد
واحدة ورجل واحدة وعين واحدة (٢١) ، وليس له
مفصل ولا عظم يخرج ممسوحا ، وماله رأس ولا
عنق (٢٢) . أما سطيح فقد عمر حتى بلغ ثلاثمائة
سنة ، وجهه في صدره ولد هو وشق في يوم واحد ،

الحروب ، ولذلك يعدد المؤرخون « أيام العرب » (٢٥) .

وقد روى الرواة حول هذه الأيام قصصا ، وسواء كانت واقعية ، أم فيها شيء من المبالغة فإنها تعتبر من التراث القصصى ، وبعض هذه القصص تعد مأسى إنسانية رائعة ، وتكشف عن عواطف مختلفة ، وتصطرح فيها التناقضات في نفس إنسانية واحدة ، كقصة « حرب البسوس » ، فكليب بن ربيعة بنى وطني ، ودخله الغرور على قومه ، حتى أنه كان يحس مواقع السحب ، ويحس على الدهر ، ويحس الوحش في فلاتها ، ولا تورده أبل مع أبله ، ولا تود نار مع ناره . وفي يوم تسربت ناقة « للبسوس » يقال لها « سرب » ، ووردت الحوض مع أبل كليب فأرداها بسهم ، فاستغاثت بأبن أخيها « جسساس بن مرة » ، فأحسسته ، وتسارعت فيه عواطف النجدة والنخوة والدفاع عن أقربائه المقربين ، والتحرر من هذا الطفيل الكليلي ، فركب فرسا له ، مغرورا به ، وأخذ آتته ؛ وتبعه عمر بن الحارث ؛ حتى دخلا على كليب الحسي فقتلاه . . . وهنا تتأزم الأمور وتدور المارك الممولة بين بكر وتغلب ابني وائل ، تلك المصارك التي امتدت رحاها الى كثير من القبائل العربية ، وأصبحت وكأنها ملحة ، يشعر فيها الشفاعة ، ويحس حولها القصاص ؛ وسط هذا ميدان من التناقضات ، تلك هي جليلة بنت مرة ، الضجيع ، كانت هناك نفس إنسانية تحولت الى زوج كليب المقتول ؛ وأخت حساس القاتل ، فهي بين نارين من حبها لأخيها ، وحبها لزوجها ، ولجات الى الأشعار عسى أن تخلف من حرة هذا التناقض . . وأخيرا لعقت أو العقت بقومها (٢٦) .



وهناك ضرب من القصص انتشر بين العرب ، وكان هذا الضرب مفى ، يهدف الى اظهار تجربة والكشف عن علة ، وهو تلك القصص التي تجد في ثناياها أمثالا سائرة بين الناس ، فيها خلاصة التجارب التي تنير للأجيال حياتها . فما المثل - في اعتقادي - الا جملة قد اقتطعت من حكاية ، فهذه الجملة تحمل مغزى القصة ، اكتفى - تمشيا مع ميل العرب العام للايجاز (٢٧) - بهذه العبارة لتكون رمزا للقصة كلها ، وليس عبثا أن يتكلم البنيانيون (٢٨) عن مورد المثل ، وعن مضرب المثل ، فما مورد المثل الا القصة



لا عظم فيه الا الجمجمة ، لا يقدر على الجلوس الا اذا غصب ، له سرير يوضع فيه اذا أريد نقله من مكان الى مكان ، واذا أريد استخياره عن الغيبيات فإنه يحرك كما يحرك سقاء اللبن ، فينتفخ ويمتلئ ويعلوه النفس ، فيسأل ، فيخبر عما سئل عنه ، وهو الذي تنبأ بظهور محمد (ص) وبغلبة العرب (٢٣) .

وقد علل المسعودي لهذه الأساطير التي شاعت بين العرب تعليلا منتزعا من البيئة ، ومن موقف العربي ازاء هذه البيئة ، فقال :

« وقد تنازع الناس في الهوائف والجبان ، وإن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك ، إنما يعرض لها من التوحّد في القفار والتفرد في الأودية ، والسلوك في المهامه الوحشة ، لأن الإنسان اذا سار في المهامه روع ووجل رجين ، واذا هو جين داخلته الظنون الكاذبة ، والأوهام المؤذية السوداوية الفاسدة ، فصور له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص ، وأوهمته الحسّال ، كما يعرض لدوى الوسواس ، لأن المتفرد التوحّد يستشعر المخاوف ، ويتوهم المتألف ، ويتوقع الخلف لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغماسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهوائف به واعتراض الجبان له » (٢٤) .



والعرب - في معظمهم - قبائل تنتجع الغيث والكلأ ، وما أكثر أن تشج السماء ، فلا تمطر نباتا الا في بقع قليلة ، يتقاتل عليها العرب ، وتلور بينهم

وان الأمر - بعد - يحتاج الى رسالة مطولة في
ميثولوجيا العرب وقصصهم (٣٧) ، ولكن يكفي - في
هذا التمهيد اليسير - أن أقول :

ان القصة في العصر الجاهلي ، كان لها امر كبير
لقلوب عامة العرب ، حتى ان القرآن - وهو تنزيل
من حكيم عليم - رأى باعجازه أن يضرب على هذا
الوتر الحساس ، فاتخذ تلك الاداة المحبوبة وسيلة
لجمع القلوب ، واعتنى بالتقصص عنابة فائقة ، فهناك
سورة تسمى باسم « القصص » وهناك سور تقص
قصص الأنبياء وغيرهم ، وتسمى بأسماء شخصيات
وردت في هذه القصص مثل : سورة ابراهيم،
وسورة يونس ، وسورة آل عمران ، وسورة يوسف،
وسورة اهل الكهف ... الخ ، ووردت مادة
« قصص » في القرآن أكثر من سبع وعشرين
مرة . (٣٨)

وقد صادفت هذه القصص حاجة في نفوس العرب
فأقبلوا عليها اقبالا عال زعما الشرك فاراد النظر
ابن الحارث أن يصرّفهم عنها بقصص أخرى، فتحدث
عن «ستم واسفنديار ، فإذا قام محمد صلى الله عليه
وسلم من مجلسه ، يجلس فيه النظر ، فيحدثهم من
متلفاته ، ثم يقول : بالله اينما أحسن قصصا ، أنا
أو محمد (٣٩) »

وقد صمّنت قصص القرآن نهضة عظيمة في القصص
العربي ، حتى يصعب على الذهن متابعة هذا الطوفان
من القصص . . . فهناك قصص حول الأنبياء ، عمل
فيها الخيال عمله ، واقتن فيها العقل الاسرائيل
ما أمكنه الاقتنان ، وان اردت المزيد من التوسعة ،
فارجع الى الكتابين الذين ألفا في هذه القصص ،
وهما : كتاب « التعالبي » (٤٢٧ - ٤٣٤ هـ) في
قصص الأنبياء المسمى بالعرائس ، وكتاب الكسائي
(من مواليد القرن الخامس) في قصص الأنبياء
أيضا .

وانما سأكتفي هنا بضرب مثل عما حيك حول
الآية « وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ،
وما يعلمان من أحد حتى يقلوا انما نحن فتنة ، فلا
تكفر . . » ففي تفسير البطري :

« حدثنا اسباط بن السدي أنه كان من امر هاروت
وماروت ، أنهما طعنا على أهل الأرض في أحكامهم ،
فقتل لهما : اني أعطيت ابن آدم عشرةا من الشهوات ،
فيها يصونني ، قال هاروت وماروت : وبنا لو
أعطيتنا تلك الشهوات ، ثم نزلنا ، لحكمتنا بالعدل ،

الاصلية التي حكيت للميرة والمصلحة ، ومما مضرب
المثل الا الجبلية التي اقتطعت من القصة والتي أصبحت
تحمل معنى القصة الأصلية ، وتداولها الناس ليفيدوا
منها في حالات مشابهة للحالة الأولى التي ورد فيها
المثل . جاء في تفسير المنار ما يلي :

« والمثل في اللفظ الشبه والشبيه ، وضربه عبارة
عن ببقائه وبقائه ، وهو في الكلام أن يذكر حال من
الأحوال ما يناسبها ويناسبها ، ويظهر من حسنهما
وقبحهما ما كان خفيا ، ولما كان المراد به بيان الأحوال
كانت قصة وحكاية . . هذا ما قاله الأستاذ
الإمام » (٢٩) .



ومن المدهش أن تجد القصة منتشرة في العصر
الجاهلي ، انتشارا واسعا ، فلم يكن الشعر وحده هو
الذي تهفو له النفوس ، وتسمو اليه الأعين عند عرب
الجاهلية ، بل كان القاص يقوم أيضا مقاما هاما الى
جانب الشاعر في سر الليل ، بين مضارب الخيام
لقبائل البدو المتنقلة وفي مجالس أهل القرى
والحضر (٣٠) ، وانني اقترح أن ترجع الى ما ذكره
وهب بن منبه في كتاب « التيجان » عن ذي القرنين (٣١)
فستندهش لهذا الخيال الخلاق الذي يكاد يكافئ أقوى
الخيالة المعاصرة ، اراجع - بنوع خاص - الى تلك
الرؤى العجيبة التي كان يراها ذو القرنين (٣٢) . أو
الى ما ذكره عن أرض الملائكة حين أشرف على القرنين
على دار مفردة بيضاء ، فيها بيت واحد ، وعلى باب
الدار رجل أبيض واقف ، وعلى سطح الدار رجل
مبيض واقف ، قد أخذ شيئا كمزمار ، فحبسه
في فمه ، وأمسكه بيديه جميعا ، وعيناه تشخصان الى
السماء . . . الخ (٣٣) ، أو الى ما ذكره عن أرض
قطربيل ، إذ أنها أشبه بالمدينة الفاضلة التي نادى
بها الفلاسفة ، فأهلها : « لا غنى فيهم ولا فقر

ولا قاض فيهم ولا أمير ، ولا ناه فيهم ولا آمر ، وراى
مواشيهم بلا رعاة . . . » (٣٤) . وانظر الى العوالم
العجيبة التي كان يلتقي بها ذو القرنين ، فمرة يلتقي
بقوم « آذانهم كيار من أعلى رأس أحدهم الى ذقنه
فاذا رقد وضع شقا عليها ، وغطت الأخرى الشق
الأعلى . . . » (٣٥) ومرة يلتقي بقوم وصفار الأعين
صفار الوجوه ، مشعرين ، وجوههم كوجوه القرود ،
وهم لا يظهرون في النهار ، وانما يظهرون في الليل ،
يختفون في حر الشمس في المغارات والكهوف في
الجبال (٣٦) وغير ذلك من عوالم عجيبة تشبه
ما نقرؤه في رحلات جاليفر من غرائب ومدهشات .

فقال لهما : انزلا ، فقد اعطيتكما تلك الشهوات
 العشر ، فاحكما بين الناس ، فنزلا ببابل دنيا وند ،
 فكانا يحكما حتى اذا اصبيا عرجا ، فاذا اصبيا
 هبطا ، فلم يزالا كذلك حتى اتتهما امرأة تخصم
 زوجها ، فاعجبهما حسنهما ، واسمها بالعربية
 « الزهرة » . . . فقال احدهما لصاحبه : انها
 لتمجيتي ، قال الآخر : قد اردت ان اذكر لك
 فاستحييت منك . فقال الآخر : هل لك ان اذكرها
 لنفسها ؟ قال : نعم ولكن كيف لنا بمذاب الله ؟
 قال الآخر : انا نرجو رحمة الله . فلما جاءت نخاصم
 زوجها ، ذكرنا لها نفسها فقالت : لا ، حتى تقضيا
 لي على زوجي . فقضيا لها على زوجها ، ثم واعدتهما
 خربة من الحرب ياتيانها فيها ، فاتيا لذلك ، فلما
 اراد الذي يواقعها قالت : ما انا بالذي يفعل حتى
 تخبراني باي كلام تصعدان الى السماء ، وبأي كلام
 تنزلان منها ؟ فاخبراهما فتكلمت قصصدت ، فانساهما
 الله ما تنزل به ، فبقيت مكانها ، وجعلها الله كوكبا
 . . فلما كان الليل ارادا ان يصعدا فلم يستطعا
 فعرفا الهلك . . . وفي رواية عن مجاهد : انهما بعد
 الخطيئة عرجا فردا ، ولم تحملهما اجنحتهما فاستنفا
 برجل من بني آدم ، فدعا لهما ، فاستجيب له ، فخير

بين عذاب الدنيا والآخرة . . فاختارا عذاب الدنيا . .
 وزعم انهما معلقان في الحديد ، مطويان ، يصفقان
 باجنحتهما » (٤٠) .

فهذه ولا شك قصص مؤسوسة لا يراز ما في
 الانسان من ضعف امام غرائزه ، وما في هذه الغرائز
 من قوة تبرر هذا الضعف . قال ابن كثير في تفسيره
 معلقا على هذه الروايات وغيرها :

« وقد روى في قصة هاروت وماروت عن جماعة
 من التابعين ، كمجاهد ، والسدي ، والحسن البصري ،
 وقتادة ، وأبي العالية ، والزهري ، والربيع بن
 أنس ، ومقاتل بن حيان ، وغيرهم ، وقصصا خلق من
 المفسرين من المتقنين والمتأخرين ، وحاصلها راجع
 في تفسيرها الى اخبار بني اسرائيل ، اذ ليس فيها
 حديث مرفوع صحيح متصل الاستناد الى الصادق
 المصدوق . . وظاهر سياق القرآن اجمال القصة ،
 من غير بسط ولا اطناب فيها . . » (٤١) .



وانعد تلك الخطوة القرآنية ، تدفق سيل القصص
 وتنوع ، فابن التديم يذكر فنا في اخبار المسارين
 والمخرفين ، واسماء الكتب المصنفة في الاسرار
 والخرافات ، وذكر اكثر من ست ومائة كتاب ، ألقت
 في أسماء الملقاق ، وفي أسماء الحيايات المتظرفات ،
 وفي عجائب البحر وغيره . . الخ (٤٢) . **والملاحظ**
 يبعد تحت عنوان « ذكر القصص » (٤٣) أسماء
 القصصين ، فيذكر نحو من ثمانية وعشرين اسما .
 وقرب الخلفاء القصصين ، فعثمان بن عفان يقرب
 ابا يزيد الطائي ، وهو من زوار ملوك المعجم ، وكان
 عالما بسيرها ، وقد قص على عثمان قصته مع الاسد
 حين خرج يريد الحارث بن ابي شمر الفسائي ملك
 الشام ، وجعل يقضي في الوصف ، حتى قال له
 عثمان : « اسكت ، قطع الله لسانك ، فقد رعبت
 قلوب المسلمين » . . (٤٤) .

وهناك امر تتوارث هذا الفن ابا عن جد . . كان
 الفضل (وهو الفضل بن عيسى الرقاشي) من اخطب
 الناس . . وكان قاصا مجيدا ، وهو رئيس الفضيلية ،
 واليه ينسبون ، وكان عبد الصمد بن الفضل اغزر
 من آييه . . حدثني ابو جعفر الصوفي القصاص قال :
 « تكلم عبد الصمد في خلق اليموضة ، وفي جميع
 شأنها ثلاثة مجالس تامة » . وكان يزيد بن ابان
 عم الفضل بن عيسى بن ابان الرقاشي يتكلم في مجلس





لهم أن يولوا وجوههم شطر جهة أخرى ٠٠ ولقد كانوا إلى ذلك الحين يعترفون على مضض بتفوق العالم الإسلامي في الناحية العربية فحسب ، ولكنهم لم يلبثوا يومئذ أن لاحظوا في شيء من الحجل أنه يبرزهم في الحياة العقلية أيضاً ٠٠ ثم أخذ جب - بعقلية محايدة - يحدد التواحي التي أثرت فيها القصة العربية في القصة الأوروبية في ذلك الحين (٤٩) .



وسارت الحضارة سيرها ، واختارت في هذه المرة أن تشرق في أوروبا ، وكان لا بد للقصة العربية أن تواكب الحضارة ، وأن تسترد الدين من القصة الأوروبية ، وأن تأخذ منها في هذه المرة ، كما أعطتها من قبل .

وليس هذا يعني أن القصة العربية المعاصرة ، هي بنت القصة الأوروبية لحما ودما ، كما يرى الكثيرون .

لست أعني هذا ، وإنما الذي أعنيه أن القصة العربية سارت سيرها الطبيعي ، فافادت من الآداب الأوروبية ، وامتصت منها ما هو صالح لها ولظروفها ، فاضاف إليها ذلك دما جديدا ، امتزج بالدم العربي الأصيل فكان منهما خلق جديد ، ذو ملامح خاصة ، فيه الكثير من دماء أجداده ، وفيه أيضا عناصر آخر بسبب التهجين الجديد . فالقصة المعاصرة ابتدأت كتطوير للمقامات العربية ، فما هي الا مقامات جديدة ، افادت من النهضة الأوروبية في تنوع المناظر ، وهي

الحسن ، وكان زاهدا عابدا ، وعالما فاضلا ، وكان حطييا ، وكان قاصا ٠٠ » (٤٥) .

وحملت القصة العربية الأمانة في مختلف العصور ٠٠ وهي في كل عصر مرآة صادقة تعكس الظروف التي يمر بها المجتمع .

في العصر الأموي حين مر الحجاز بظروف خاصة ، شاعت قصص العشاق ، واتخذت لها لونا في الحضارة مغايرا للون الذي ظهرت به في البادية .

وفي العصر العباسي ، حين ظهرت فلسفة ماني ، وإباحية مزدك ، وسفر الفجور والظرف ، وكثرت الخلعة والمجون ، وتزايد الشذوذ والانحراف - شغلت القصة عن تلك الحالة ، فظهرت كتب من قصص الأدب الصريح ، ككتاب أخبار الغلمان ، وكتاب حسين اللوطي ، وكتاب عاشق الصورة ، وكتاب عاشق الكف ، وكتاب المخنث والفتاة التي عشقته (٤٦) .

ولما تعدد العقل العربي ، وغذته موارد الفلسفة . وهذبته طرائق الصوفية - استطاعت القصة العربية أن تلبس ثوبا جديدا مناسباً لهذا العقل المركب ، قال ابن سينا (٩٨٠ - ١٠٣٧ م) رسالة فلسفية ، سماها قصة حي بن يقظان . ثم ألهم الفيلسوف ابن طفيل (١١١٠ - ١١٨٥ م) رسالة التي يعدها بعض نقاد أوروبا خير كعنه في العصور الوسطى (٤٧) . وبعده جاء السهروردي (قتل سنة ١١٨٣ م) فألف قصة عنوانها « الغربية الغربية »

وحين طغى على الأدب العربي الشكل اللفظي ، والافتتان بالأماحكات الأسلوبية - كان للقصة من ذلك نصيبها الأول ، فطُحنت المقامات (٤٨) بالاستعراضات اللفوية . وامتلات بالألفاظ القاموسية .

في هذه العصور الوسطى كانت القصة العربية مردمة ، وقد أوضح الأستاذ جب Gibb - بعقلية واسعة - مدى تأثير النثر العربي في الآداب الأوروبية ، وإن هذا التأثير يؤلف منظرا من مظاهر حركة فكرية عامة ، شملت تلك العصور ، فلقد كانت النظم الدينية العتيقة التي اتصفت بها العصور الوسطى لا تتسع للحضارة اللاتينية . وبات الناس يتشوقون إلى معرفة مسائل ، كانت إلى هذا الحين تملئها عليهم السلطات العليا ، فيقبلونها في غير مشقة ، ولما لم يجدوا مقنا فيصا لديهم من الآداب اللاتينية ، على ضيقها وجديها وافتقارها إلى قوة الإبداع ، كان لابد

تعميق التحليل النفسى ، والعناية بالمشكلات المعاصرة ونقدتها ، وغير ذلك . ومن أمثلة ذلك : «حديث عيسى ابن هشام » **لمحمد المولوى** ، و « ليلالى سطيج » **لحافظ إبراهيم** و « شيطان بنتانور » **لأحمد شوقي** .

ثم أخذت القصة العربية تتطلع الى أختها القصة الأوروبية ، فكانت تقتبس منها الموضوع فقط ، ثم تحول فيه ما تشاء ، وتضيف إليه أشياء مناسبة لجمهورها ، وتقتص منها ما لا يصلح لها ، ومن أمثلة ذلك **مصطفى لطفى النفلوطى** ، فقد عرب - وأقصد المعنى الحقيقى لكلمة « عرب » - قصة « بول وفرجينى » وسماها « الفضيلة » . وحول - باستعير منه هذا اللفظ - لدى استعمله - « رحيمة » **سيرانودى بجرالك** ، للشاعر الفرنسى ادمون رويستان من الغالب التمثيل الى الغالب القصصى .

وارتوت القصة العربية كثيرا من القصة الأوروبية ، اما عن طريق الترجمة الدقيقة ، أو طريق المشاهدة الحقيقية ، حتى قدر لها أن تستقل بنفسها ، فأتجهت الى بيتنها الأصلية ، تلتبس منها الموضوع ، وتبعث فيها عن المشكلة - وهى فى الوقت نفسه - لا تأب من استيراد هواء جديد من أوربا ومن أمثلة تلك الأعمال الناضجة التى استوحيت بيتنها المحلية : قصص **نجيب محفوظ** التى عالجت **تخصيبات وأجبالا** مصرية متعاقبة ، كالثلاثية (**بين القصرين** ، **قصر الشوق** ، **السكينة**) ، و **خان الخليل** ، و **زقاق المدق** ومثل « عودة الروح » **لتوفيق الحكيم** ، ومثل « الأرض » **لعبد الرحمن الشرفاوى** .

وهكذا نجد أن القصة المصرية مخلوق حى على مدى العصور التاريخية ، أحيانا يتأثر بالأدب الأخرى ، كالآداب الفارسية أو الهندية ، أو الأوروبية ، وأحيانا يؤثر فى تلك الآداب كما حدث فى العصور الوسطى .

وربما كان عذر المتكررين لوجود القصة فى الادب العربى القديم ، أنهم نظروا الى ذلك الادب ، وفى ذهنهم القصة الحديثة بمعناها الفنى المعاصر .

وهذا أمر فيه كثير من الظلم ، فإن القصة الفنية لم تعرف - سواء فى الآداب العربية أو فى الآداب الأوروبية أو فى غيرها - الا فى ذلك العصر .

وقد قرر **بروفسور بالدوين** بعد استقصاء شامل

مجهد للمائة قصة التى ألفها **يوكاشيو** (١٣١٣ - ١٣٧٥ م) فى الديكاميون - قرر أن قصتين فقط من قصص هذه المجموعة هما اللتان حققتا معنى القصة القصيرة بالمفهوم النقدى الحديث (وهما القصة الثانية من اليوم الأول ، والقصة السادسة من اليوم السابع (٥٠) .

وحينما استحال الشاعر الصغير « والتر سكوت » قصاصا كبيرا ، خجل من عمله الجديد وكتب يقول :

« لم أنسب ويفر الى نفسى ، فليست على ثقة من أنه يلقى بمن كان مثلى من رجال القانون أن يكتب القصص » فقد كان القصص يعد أيامه فرعا متبوذا من فروع دوحه الشعر ، اذ كان يمثل الابن البغيض فى الأسرة الادبية (٥١) .

وحين بشر السيد الاول للقصة الحديثة - كما نلعبه دائرة المعارف البريطانية - بنظريته عن الوحدة فى القصة القصيرة وذلك يصمد آرائه الشهيرة عن حكايات **نانائيل هاتورن** (١٨٤٤) لم يلق آرائه اذانا صاغية الا بعد مرور أربعين عاما ، حين أصدر مقاله الشهير عن « فلسفة القصة القصيرة » وشبهها فيه بالمرحبة الفرنسية **الكلاسيكية** من حيث مراعاة الوحدات الثلاث ، اذ **يجب** ان يقتصر القصة القصيرة على بطل واحد ، وحادثة واحدة ، وانفعال واحد أو سلسلة من الانفعالات ترتبط بموقف واحد (٥٢) .

وهكذا لو نظرنا الى العرب نظرة تاريخية منصفة ، لا تتطلب منهم سبق الاحداث نجد أنهم لم يقصروا فى فن القصة ، فقد « أزل العرب جميع أنواع الادب فضلا عن الشعر ، فللعرب روايات فى المخاطر والحب والفروسية » وتروى فى رواياتهم العربية - مع قلة اعتنائهم بنفسية الاشخاص - فوائد كبيرة لاشتغالها على ضروب المخاطبات العجيبة ، فالعرب قد جعلوا بخيالهم المساطع كل شئ مسود . وهم الذين لا نظير لهم فى الفن . والعرب هم الذين ابتدعوا روايات الفروسية ، قال **سيدىو** : « كان خيال الشعراء يتجلى فى الروايات والاقاصيص فالحق أن أتباع محمد كانوا من أكبر المحدثين على الدوام ، فكانوا يجتمعون مساء تحت خيامهم ليسمعوا بعض الاقاصيص العجيبة التى تغلغلها الموسيقى والغناء » .

(للمقال بقية)

أولا - المراجع العربية

لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦)

١٢ - تزيين الاسواق بتفصيل أشواق العشاق
للشيخ داود الانطاكي (القاهرة - مطبعة
بولاق سنة ١٢٩١ هـ) .

١٣ - تفسير البضاوى - (القاهرة - طبع صبيح
سنة ١٣٦٦ هـ) .

١٤ - تفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي
(القاهرة - المطبعة الاميرية سنة ١٣٦٦ هـ)

١٥ - تفسير ابن كثير (القاهرة - مطبعة المنار
سنة ١٣٤٣ هـ) .

١٦ - تفسير الطبري (القاهرة - مطبعة دار
المعارف سنة ١٩٥٨ م) .

١٧ - تفسير القاسمي (القاهرة - دار احياء الكتب
العربية سنة ١٩٥٧) .

١٨ - توفيق الحكيم للدكتور اسماعيل ادهم
والدكتور ابراهيم ناجي (القاهرة - دار
سيد باليجالة - سنة ١٩٤٥) .

١٩ - التيجاني في ملوك حمير عن وهب بن منبه ،
رواية ابن هشام (حيدر آباد - الطبعة الاولى
سنة ١٩٤٥) .

٢٠ - ثورة الادب للدكتور محمد حسين هيكل -
(القاهرة - مطبعة السياسة سنة ١٩٣٣ م)

٢١ - حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحي -
(القاهرة - دار المعارف - الطبعة السابعة)

٢٢ - حضارة العرب للدكتور غوستاف لوبون
وترجمة الاستاذ عادل زعتر (القاهرة -
الطبعة الثانية سنة ١٩٤٨ م) .

٢٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي (القاهرة -
الطبعة الثانية سنة ١٩٦٠ م) .

٢٤ - الحيوان لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ،
تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون (القاهرة -
مطبعة الحلبي - الطبعة الاولى سنة ١٣٦٣ م)

٢٥ - رسالة الفخران لأبي العلاء المعري ، تلخيص
كامل الكيلاني (القاهرة - الطبعة الاولى
سنة ١٩٤٢ م) .

١ - اخبار عبيد بن شريه الجهمي في اخبار
اليمن وأشعارها وانشائها (حيدر آباد -
الطبعة الاولى سنة ١٣٧٤ هـ)

٢ - الادب المقارن للدكتور محمد غنيمي هلال
(القاهرة - الطبعة الثالثة سنة ١٩٦٢ -
مكتبة الانجلو) .

٣ - الادب الهادف للاستاذ محمود تيمور (القاهرة
الطبعة الاولى سنة ١٩٥٩ - مكتبة الاداب
بالجاميز) .

٤ - اعلام الفن القصصي لهنرى توماس ولامالي
توماس ، ترجمة الدكتور عثمان نويه
(القاهرة - سلسلة الالف كتاب « ٤٨ »)

٥ - الايضاح المختصر تلخيص المفتاح للخطيب
الغزويني ، شرح محمد عبد المنعم خفاجي
(القاهرة - مكتبة الحسين سنة ١٩٤٩)

٦ - بديع الزمان الهمزاني رائد القصة العربية
والقائلة الصحفية للدكتور مصطفى الباكيم
(القاهرة - مكتبة القاهرة الحديثة سنة
١٩٥٩) .

٧ - البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ (القاهرة سنة ١٣٣٢ هـ)

٨ - تاريخ الادب العربي للاستاذ احمد حسن
الزيات (القاهرة - مطبعة الرسالة - الطبعة
الحادية عشر) .

٩ - تاريخ الادب العربي لكارل بروكلمان ،
ترتيب الدكتور عبد الحلیم النجار (القاهرة
مطبعة دار المعارف سنة ١٩٦١) .

١٠ - تاريخ الفلسفة في الاسلام تأليف : ب.ج.
دي بور وترجمة الدكتور محمد عبد الهادي
أبو ريده (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف
والترجمة والنشر سنة ١٣٥٧ هـ) .

١١ - تراث الاسلام ، فصل « الادب » وضعه :
هـ . ر . ج . ب وترجمة الدكتور عبد
اللطيف محمود حمزة (القاهرة - مطبعة

وزميليه (القاهرة - مطبعة الحلبي - الطبعة الثالثة سنة ١٣٧٥ هـ) .

٤١ - قصص العشاق الثرية تأليف : عبد الحميد ابراهيم محمد (رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٥ - لم تطبع بعد) .

٤٢ - قصص من الكتب المقدسة للاستاذ عبد الحميد جوده السحار (القاهرة - الكتاب الماسي - العدد ٥٧) .

٤٣ - ما هو الجنس ، تعريب الدكتور يوسف أبو الحجاج (القاهرة - الالف كتاب - العدد ٥٥) .

٤٤ - مجمع الامثال للنيسابورى (القاهرة - مطبعة بولاق سنة ١٢٧٤ هـ) .

٤٥ - المختار للاستاذ عبدالعزيز البشري (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ) .

٤٦ - مروج الذهب في معادن الجواهر للسعوى (القاهرة - المطبعة البهية سنة ١٣٤٦ هـ) .

٤٧ - صراع العشاق لابن السراج - القاهرة - مطبعة المتقدم سنة ١٩٠٧ م) .

٤٨ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم (القاهرة - كتاب الشعب العدد ٣٦) .

٤٩ - المقامة للدكتور شوقي ضيف (القاهرة - دار المعارف سنة ١٩٥٧ م) .

ثانيا - الثوريات

٥٠ - مجلة الرسالة ، مقال (القصة عند العرب) لعبد الحميد ابراهيم محمد (١٧ شعبان سنة ١٣٨٣ هـ) .

٥١ - مجلة المجلة ، مقال القصة العربية القديمة لعبد الحميد ابراهيم محمد . (نوفمبر سنة ١٩٦٤ م) .

٥٢ - مجلة المتكلم ، مقال (القصص في الادب العربي) للدكتور أحمد ضيف . (فبراير سنة ١٩٣٥) .

٣٦ - زهرة العمر لتوفيق الحكيم (القاهرة - كتاب الهلال - العدد ٤٧) .

٣٧ - سيرة النبي لابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة - مطبعة حجازي سنة ١٣٥٦ هـ) .

٣٨ - الشاعرة أو سيرانو دي برجرارك تعريب المنفلوطي (القاهرة - مطبعة الاستقامة - الطبعة الثامنة سنة ١٣٦٩ هـ) .

٣٩ - طبقات الشعراء لابن سلام الحمصي (القاهرة - مطبعة صبيح - ٥٠٠) .

٣٠ - فجر الاسلام للدكتور أحمد أمين (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية) .

٣١ - الفصول للاستاذ العقاد (القاهرة - مطبعة السعادة سنة ١٩٢٢) .

٣٢ - فن القصص للاستاذ محمود تيسور (القاهرة - مطبعة دار الهلال - الطبعة الثانية) .

٣٣ - الفن القصص في الادب العربي الحديث للدكتور محمود حامد شوكت (القاهرة - الطبعة الاولى سنة ١٩٦٣ م) .

٣٤ - الفن ومذاهبه في النثر العربي للدكتور شوقي ضيف (القاهرة - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٦ م) .

٣٥ - في طريق الميثولوجيا عند العرب للاستاذ محمود سليم الحوت (بيروت سنة ١٩٥٥ م) .

٣٦ - القرآن الكريم .

٣٧ - القصة القصيرة في الادب الشامي الحديث للاستاذ نعيم حسن اليافي (رسالة ماجستير نوقشت بجامعة القاهرة سنة ١٩٦٤ - لم تطبع بعد) .

٣٨ - قصص الانبياء لأبي الحسن محمد عبد الله الكسائي .

٣٩ - قصص الحيوان في الادب العربي للدكتور عبد الرازق حبيد (القاهرة - مكتبة الانجلو سنة ١٩٥١) .

٤٠ - قصص العرب للاستاذة محمد أحمد جاد المولى

رؤيت أوبنهايم

أو ضمير العلم في العصر الذري

بقلم: محمد العزب موسى

١

اختراع ذلك السلاح الرهيب ، ولكن أوبنهايم استطاع أن يكفر عن هذا الدور ، فقد عاش بقية حياته يكافح الخطر الذري ويناضل من أجل السلام !

ومن المؤلم أن أوبنهايم عندما كان أبا للدمار في منتصف الأربعينات كان الثفاء والتقدير يهالان عليه من كل جانب ، فمنحه الرئيس الأمريكي « ترومان » وسام الخدمة الممتازة ، وأصدرت وزارة الخارجية الأمريكية بيانا رسميا أعلنت فيه أن عبقرية أوبنهايم كانت من العوامل الأساسية التي أدت إلى احراز النصر النهائي في الحرب العالمية الثانية، وأسندت إليه أخطر المناصب والمسئوليات وكانت أنياؤه في الصحف تطفئ على أنبياء منظمة الأمم المتحدة الوليدة حتى اضطر إلى تعيين مسكرتير خاص يتولى جمع ما تكتبه الصحف عنه !

وعندما وقف أوبنهايم وقفته إلى جانب السلام انقلبت الآية ، فأقيمت في وجهه العقبات ، وجرى من أمجاده ومآثره ، واعتبر خطرا على الأمن ، ثم اتهم بالخيانة والجاسوسية والشيوعية وقدم إلى المحاكمة !

في التاسع عشر من شهر فبراير ١٩٦٧ توقف إلى الأبد قلب العالم الذري الأمريكي الألماني الأصل دكتور روبرت جوليوس أوبنهايم عن ٦٢ عاما بعد أن ترك بصمات لا تمحى في صفحة عصرنا الحديث .

كان أينشتاين يقول عن أوبنهايم انه ابني البكر وهو رجل يسبق زمانه بمشرين عاما على الأقل ، ولكن أوبنهايم ليس في حاجة إلى شهادة بنوغيه ، يكفي انه الرجل الذي صنع أول قنبلة ذرية في تاريخ البشر ، ليثبت بشن آلام ألوف الأبرياء في هيروشميما وناجازاكي أن الذرة تنفست ، وأن المادة تتحول إلى طاقة ، طاقة عارمة جبارة لا يمكن التحكم فيها إذا أطلقت بدون حذف ، بل تظل تتعقب الإنسان في نسله وتذيقه عذابات الشرور .

وكان من الممكن أن يظل اسم أوبنهايم شميئا كريها يستدر لعنات الأجيال المتعاقبة ، وتظل صورته رمزا لعبقرية شريرة فتحت أبواب الجحيم على البشر ، وما كانت البشرية لتجعل بتجنيده ، لو كان دوره قد اقتصر على



ولدت روبرت أوبنهايمر في ٢٢ أبريل ١٩٠٤ وكان أبوه جولياس أوبنهايمر مهاجرا ألمانيا اشتغل في الأعمال التجارية وأحرز بعض الثراء في نيويورك مما أتاح للأسرة حياة مستقرة .

ومنذ حدثاته كان روبرت معجزة حقيقية في ميدان العلم ، ففي الحادية عشرة من عمره أصبح عضوا في جمعية أبحاث المعادن بنيويورك بعد أن قدم إليها بحثه العلمي الأول ، وكان أصغر الأعضاء بعده ، وفي الحلقة الخامسة من عمره !

ودرس روبرت الطبيعية والكيمياء في جامعة هارفارد ، وحصل على درجة Summa Cum laude بعد ثلاث سنوات ، ثم أكمل دراسته العليا في جامعة كامبردج بإنجلترا ، ثم جامعة جوتنجن بألمانيا. وكانت هاتان الجامعتان أكبر مركز للدراسات الفيزية في ذلك الوقت ، وفي عام ١٩٢٧ ،

كان ذلك بعد ثماني سنوات فحسب من انتهاء الحرب وأوبنهايمر عندئذ في قمة مجده العلمي والاجتماعي ، وكان حينئذ في المقام الأول يحتاج الولايات المتحدة ، والإنهجمات هناك على صفوة العلماء والمفكرين والفنانين ، وحبس الناس أنفاسهم وهم يشهدون محنة العالم الكبير الذي يحاكم من أجل أفكاره ومبادئه كما لو كانت الأحداث تجري في القرون الوسطى أمام إحدى محاكم التفتيش وليس في الولايات المتحدة التي تفاخر بأنها قلعة الحرية والديموقراطية في القرن العشرين .

وانتهت المحاكمة بإدانة أوبنهايمر بأنه خطر على الأمن ، وأمر الرئيس أيزنهاور « بإسبدال ستار كليف بين أوبنهايمر والإصرار الذرية » ، وعندما نشرت مضابط المحاكمة استغرقت ألف صفحة بالبنط الصغير ، أي أنها في حجم الأعمال الكاملة المشروحة لشكسبير ، أو في حجم الانجيل بمعهدية القديم والجديد ، وسوف تظل هذه المضابط دائما من أهم وثائق هذا القرن ، لأنها تدور حل قضية من أخطر قضايا العصر .. وظيفة العلم وضيق العلماء .

فكان يلزم حجرته أياما وأسابيع لا يقدرها الا لاما عاكفا على الدراسة والتحصيل غمياً مشارك البتة في الاحتمامات العامة ، فلم يكن يقرأ الصحف ، أو يستمع الى الاذاعة أو يشاهد السينما والمسرح ، وهو يذكر أنه لم يسمح عن أزمة الكساد في الثلاثينات الا بعد وقوعها بـمئة أسابيع ، ولم يستعمل حقه الانتخابي قبل عام ١٩٣٦ ، وقد لازمه هذا التخلف حتى بعد أن عاد من أوروبا وأصبح استاذاً يلتف حوله طلبة كثيرون ، ولكنه فجأة وجد نفسه في خضم مشاكل السياسة والاقتصاد ، ويرجع ذلك الى عاملين ، هما : أزمة الكساد الكبير التي أرغمت عددا من اذكي تلاميذه على التوقف عن الدراسة بسبب عجزهم المالى وقيام الحكم النازي في ألمانيا واضطهاده للعلماء والمثقفين والأقليات . وقتها أدرك أوبنهايمر - كما قال فيما بعد - « الى أي حد يمكن أن تؤثر السياسة والاقتصاد في حياة الناس » .

وعكف العالم الشاب على سد هذا النقص الخطير في وعيه الاجتماعي ، فقرأ كثيراً في الاحصاء والسياسة والاقتصاد ، وبدأ يهتم بمجريات الأمور ، ويشارك في مناقشات زملائه ، وكان الاتجاه الفكرى العام للمثقفين الأمريكيين في تلك الفترة يميل نحو اليسار ، بعد أن أفصح هتلر عن نواياه وأطماعه التوسعية في أوروبا والعالم ، وكان الاتحاد السوفيتى أول من فطن الى الخطر النازي وطلب بالقضاء عليه قبل أن يستفحل ، وكان المندوب السوفيتى في عصبة الأمم بجنيف لا يمل من الوقوف ساعات طويلة يقرأ مقتبسات من «كفاش» . أما الدول الرأسمالية الغربية فقد وقفت من الفاشية موقفا متخاذلا يتذبذب بين المسألة المهينة من جانب رئيس وزراء بريطانيا تشرشلين ، وبين الخيانة الصريحة كما حدث في ميونيخ .

في هذا المناخ العام كان المثقفون في أوروبا وأمريكا يؤيدون التعاون مع الاتحاد السوفيتى ، ولا يخفون عطفهم وتقديرهم للماركسية ، وسادت بين صفوفهم حركة الجبهة الشعبية ، بل وقامت حكومة جبهة شعبية في فرنسا تضم مختلف

وكان في الثالثة والعشرين حصل على درجة الدكتوراه من جامعة جوتنجن ، وأقام عامين آخرين في ألمانيا يواصل بعض الأبحاث مع العالم الكبير ماكس بورن .

وفي عام ١٩٢٩ شعر بالحنين لوطنه ، فعاد الى الولايات المتحدة حيث عين أستاذا للطبيعة بجامعة كاليفورنيا ، وعكف في نفس الوقت على تأسيس أول معهد أمريكي متخصص في الطبيعة الذرية في بيركلي ، ومعهد آخر للتكنولوجيا الطبيعية في باسادينا .

كان ما يشغله بصفة خاصة في أوائل الثلاثينات ظاهرة الإشعاع الكوني ، وخواص الالكترونات ، والتباين بين الطبقات العالية في النظرية الكمومية ، وكان يهتم بالأساسيات في علم الطبيعة ، ويحرص على نقل هذا الاهتمام الى طلبته ، فلم يكن يقدم لهم الاجابات المباشرة البسيطة ، وإنما يدرهم على معالجة أعمق المشكلات حتى لو لم يستطيعوا أن يجدوا لها حلا ، فالعلم في نظره يجب أن يشير من الاستدلال أكثر مما يقدم من الاجوبة ، ومعظم طلبة أوبنهايمر في تلك الفترة أصبحوا فيما بعد من أبرز العلماء الاطوريين .

والواقع أن أوبنهايمر لم يكن عقلية فذة في ميدان العلم فحسب بل كان متقفا متعدد الجوانب ، فهو مولع بالفلسفة والشعر والرسم والموسيقى ، وكان يجيد ثمانى لغات منها ثلاث لغات كلاسيكية هي الاغريقية واللاتينية والسنسكريتية ، وشغف بصفة خاصة بدراسة الفلسفة الهندية في مصادرها الاولية ، وقرأ افلاطون وهوميروس وسوفوكليس بلغةهم الاصيلة ، وكان يتمتع بقسوة نادرة على القراءة السريعة الثمرة ، ويقال انه استطاع أن يقرأ كتاب « جيبون » الضخم عن سقوط الامبراطورية الرومانية في رحلة استغرقت ساعات قليلة بالقطار السريع من سسان فرنسيسكو الى نيويورك .

هذا الاهتمام العميق ، بالعلم والثقافة لم يترك لأوبنهايمر منذ الصغر فرصة للمشاركة في الحياة العامة أو حتى مجرد تتبع أنبائها ،

كومبتون « استاذ الطبيعة بجامعة شيكاغو والحاصل على جائزة نوبل على رأس لجنة خاصة لدراسة امكانيات واحتمالات انتاج الأسلحة الذرية . وانتهت أبحاث كومبتون الى أن القنبلة الذرية ممكنة الصنع ، وكلف دكتور روبرت أوبنهايمر بالإشراف على تنفيذ المشروع .

وكان نجاح انريكو فيرمي في احداث أول سلسلة من الانشطار الذري لايزال طلي المستقبل ورغم أن نظرية تفقيت الذرة كانت قد فهمت فان المعضلة كانت في التنفيذ وأقدم أوبنهايمر على مهمته الخطيرة باقتناع ونشاط بالغين فقد كانت جحافل النازية تدرك معالم الحطسارة والانسانية ، وكان يعتقد أن السلاح الجديد سيضع حدا للحرب بكل أهوالها .

وانتهت الدراسات الأولية التي أجراها أوبنهايمر مع نخبة من أبرز العلماء الى وجوب تجميع العمل في الأبحاث الذرية في مركز واحد ، واختار لوس آلاموس مكانا للعمل ، وكان يعرف صحراء لوس آلاموس جيدا إذ يعود أن يقضى فيها كثيرا من عطلاته ، وفي خريف ١٩٤٣ تم انشاء معامل لوس آلاموس الجبارة « وكلفت أسسها وفي سرية بالغة بصنع الفيلة الذرية » .

وفرض على المشروع منذ بدايته تدابير خياليه من السرية حتى لا تتسرب أسراراه الى أحد من الأعداء او الحلفاء على حد سواء ، فكانت معامل لوس آلاموس عبارة عن مستعمرة ضخمة يقيم فيها مئات العلماء والفنيين والعسكريين مع زوجاتهم وابنائهم ، ويسير العمل داخلها حسب نظام صارم دقيق يشرف عليه فنيا روبرت أوبنهايمر وإداريا أحد الجنرالات العسكريين ، واعتبر المكان منطقة عسكرية لا يجوز الاقتراب منها ، وضرب حوله نطاقا من الأسوار الشسائكة ، لا يمكن لأحد أن يجتازها الا باذن من سلطات عليا ، وفرضت رقابة مشددة على المكالمات التليفونية والمحادثات التي ترد الى العلماء والمشتغلين في المشروع ، ولكن أوبنهايمر وعددا قليلا آخر لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة كانوا يستطيعون الخروج بدون إذن في أية لحظة .

كان أوبنهايمر قلب المشروع وروحه ، فهو

مئات اليسار . والى هذا المناخ السلام خرج أوبنهايمر فجأة من عزلته ، فاختلط بأوساط اليسار في دائرة العلماء ، وأبدى عطفه على بعض الأعداف اليسارية ، بل وشارك في بعض أوجه النشاط اليساري كالتيبرع للجمهوريين في أسبانيا ، وانضم أخوه الأصغر - « فرانك » - وزوجه الى الحزب الشيوعي الأمريكي فترة قصيرة ، أما أوبنهايمر فلم ينضم للحزب الشيوعي في أي وقت ، ولكنه تزوج عام ١٩٤٠ من أرملة كانت من قبل زوجا لأحد أعضاء الحزب وقتل وهو يحارب الى جانب الجمهوريين في أسبانيا ، وانتمت هي نفسها الى الحزب فترة وجيزة ثم تخلت عن إيمانها بالشيوعية .

والواقع أن أوبنهايمر أيضا وكثيرا من المثقفين اليساريين في الغرب كانوا قد بدأوا يفقدون حماسهم للشيوعية ، بعد أنباء حملة انتطهيرات الكبرى التي أجراها « ستالين » ثم سرعان ما جاءت أنباء ميثاق عدم الاعتداء بين هتلر وستالين ، وغزو السوفيت لفلندا وضمتهم جمهوريات لاتفيا وإستونيا وليتوانيا ، فادت هذه التطورات الى الاسماة السسمية الاتحاد السوفيتي وفقدانه الكثيرين من أنصاره .

وما أن حل عام ١٩٤١ حتى كان أوبنهايمر قد تخلص من كل ارتباطاته اليسارية ، ولكنه لم يقطع علاقته نهائيا بأصدقائه القدامى ، والواقع أن ولا أوبنهايمر كان دائما للولايات المتحدة ، ولكنه كان يأخذ « فضائلها » كشيء مسلم به ، ويرى أن عليه تصحيح أخطاها . ولم يلبث أن حدث تطور هام غير مصرح أوبنهايمر ، إذ دعت وزارة الدفاع الامريكية الى العمل في أبحاث الأسلحة الذرية .



في عام ١٩٤٠ بدأ الرئيس روزفلت يجند العلماء البارزين للعمل في مشروعات التسليح ، ومن بينها مشروع هام يحاط بسرية بالغة اعتمد له مليون دولار ، وعرف بمشروع مانهاتان لصنع القنبلة الذرية ، وعين دكتور « آرثر

١٩٤٥ ، فعندما حدث الانفجار وسطح البريق الباهر على حافة الأفق ، قفزت في ذهني عبارة من « البهاجاغارا - جيتا » كتاب الهندوس المقدس تقول « اذا سطع في السماء لآله ألف شمس فإن ذلك قد يشبه جلال الله » .

لقد كانت لحظة بالغة العمق تركزت فيها آباء الدهور .. لحظة النصر العظيم للإنسان لفز الطبيعة على أكبر أسرار الطبيعة ، لقد تحقق الحلم وانطلق المارد من التقيم .

وعندما شرع أوبنهايمر في الانصراف بعد التجربة ، قفزت في ذهني عبارة أخرى من الكتاب الهندوس المقدس تقول :

« لقد أصبحت أنا الموت مدمر العوالم » .



لم تكن تضي ثلاثة أسابيع على تجربة نيوميكسيكو حتى فوجئ العالم بنبا القاء أول قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية في صباح ٦ أغسطس ١٩٤٥ .

كانت المدينة اليابانية تستقبل يوما عاديا من أيام الحرب والعمل ، بعد أن انتهت للتو إحدى الغارات الجوية المعتادة ، وأطلقت صفارات الأمان ، وبدأ التلاميذ والفصال يدهيرون إلى مدارسهم وأشغالهم ، وفجأة تسلبت طائرة أمريكية واحدة حلفت في سماء المدينة وألقت شيئا .

وفي دقائق معدودات فقد ٨٠ ألف شخص أرواحهم ، وأصيب عدد مبالغ به بحروق خطيرة وانطلقت عاصفة من النار تعربد في أجواء المدينة لتحرق كل شيء في مساحة قدرها أربعة أميال ونصف ميل مربع ، وتدمر ٦٢ ألف منزل أو ٦٩٪ من منازل هيروشيما .

لم يكن ذلك هو أكبر دمار تشهده الحرب العالمية الثانية ، فقد شهدت طوكيو قبل ذلك غارات جوية مروعة أدت بعضها إلى قتل ١٢٥

الذي قام بنفسه باختيار وتكليف معظم العلماء الذين يعملون في المشروع ومنهم عدد من أكبر علماء الطبيعة الذرية أمثال اريكو فيرمي وادوارد تيللر ، وكان هو قائد العمل الذي يفهم بدقة بأمة كافة المراحل الفنية المعقدة للمشروع ابتداء من مشكلات الطبيعة النظرية إلى التفجيرات ذات القوة الهائلة ، ومن فحص المواد المشعة إلى الكيمياء التحليلية للمناصر الدقيقة ، ولكن المعضلة الكبرى التي كانت تواجهه هي أن الوقت لم يكن يسمح بتجربة الكثير من النظريات والقيام بكثير من المحاولات ، فإن ظروف الحرب تحتم سلوك أقصر الطرق وأكثرها وفرا للمال ، فليس ثمة مجال لتبديد الوقت أو الجهد أو المال ، وكان معظم المشتركين في المشروع يعتقدون أول الأمر أن الغرض من محاسن لوس ألأموس هو الاهتمام بأبحاث الطبيعة النظرية ، ولكنهم لم يلبثوا أن عرفوا المهمة الحقيقية التي يقدمون عليها والتي تتلخص في حشو المادة الانشطارية داخل القنبلة بدقة وسرعة كافيتين ، والا فإن أي نيوترون شارد قد يؤدي إلى سلسلة من التفاعلات قبل انتهاء مرحلة الحشو تتلف أو تقلل من كفاءة الذرة لقنبلة .

وقسم أوبنهايمر القوة الطامعة في المشروع وقوامها مئات العلماء وآلاف العمال العتيين إلى إدارات وفروع ، يختص كل منها بجانب من جوانب البحث أو التطبيق ، ويتولى هو نفسه التنسيق بين أعمالها ، وإعطاء إشارات البدء والانتهاء في العمل ، كانه قائد أوركسترا جبار يعزف لمن انتصار الإنسان على سر من أكثر أسرار الطبيعة غموضا .

وأخيرا .. بعد عامين من الجهد الشاق المتواصل ، وبعد أن فقد أوبنهايمر - رغم نحافته - ٣٠ رطلا من وزنه ، تكلم المشروع بالنجاح وأنتجت محاسن لوس ألأموس أول القنابل الذرية في تاريخ البشر .

وظل أوبنهايمر يذكر جيدا حتى نهاية حياته تلك اللحظة الحاسمة التي وقف يشرف فيها على أول تجربة ذرية في منطقة «الماجوردو» بصحراء نيوميكسيكو في صباح ١٦ يوليو

الف شخص دفعة واحدة ، وفي أوروبا محبت
القنابل المروقة ٧٠ مدينة على الأقل من
الوجود ، ولكن ذلك تطلب آلاف الطائرات التي
تحمل ملايين الأطنان من القنابل شهورا
وسنوات متوالية ، أما الآن فما هي قبلة
واحدة تدمر مدينة يسكنها ٣٠٠ ألف شخص
في لحظات .

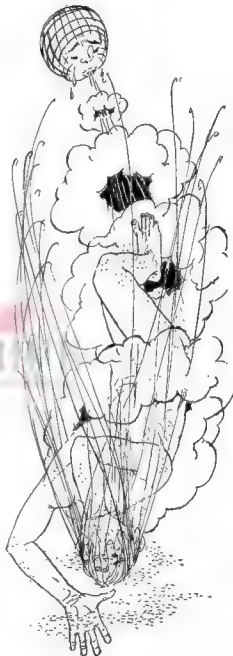
وبعد يومين تكررت المأساة في ناجازاكي ،
وسلمت اليابان .

وعندما وصلت أنباء هيروشيما وناجازاكي
إلى الولايات المتحدة انتفى السياسيون
والعسكريون طربا ، فما هم يملكون سلاحا
خرافيا أقوى من السحر الأسود نفسه ، أما
الشعب الأمريكي فكان له رأى آخر . ويصف
الكاتب المسرحي برتولد بريخت ، وكان عندئذ
لاجئا في الولايات المتحدة ، وقع هذه الأنباء
فيقول :

« ان اليوم الذي ألقيت فيه القنبلة لن
يستطيع أن يساه كل من شهد في الولايات
المتحدة . كانت الحرب مع اليابان هي التي
كلفتم أمريكا تضحياتها الحقيقية ، كان الجنود
يقولون إن الشاطئ الغربي ثم يعودون إليه
جرى لا تفرى الأمراض الآسيوية ، وعندما
وصلت الأنباء الأولى إلى لوس أنجيلوس عرف
الناس ان هذه هي نهاية تلك الحرب البغيضة،
وأن الأبناء والأشقاء سوف يعودون ، ولكن
المدينة الكبيرة كان يفلها الأسى ، وقد
سمعت بنفسى سائقي الأوتوبيسات والبائعات
في أسواق الفاكهة لا يعرفون عن شيء سوى
الرعب والفزع ، لقد كان نصرا ولكنه ينطوي
على هزيمة مريرة » .

من ملاحظات على مسرحية « حياة جاليليو »

لقد شعر الناس انهم يقفون على باب عصر
رهيب لا يعرفون عنه شيئا ، والواقع أن أي
طالب في مرحلة الدراسة الثانوية الآن يعرف
عن العصر الذري أصعاف ما كان يعرفه الزعماء
« أمريكيون أنفسهم عند مولد القنبلة الذرية »
ويقال أن « ترومان » نفسه لم يكن يعلم
شيئا عن القنبلة الذرية حتى تولى الرئاسة



لم يعد مجهولا أو مستحصيا على الجهد العلمي ،
ولذلك فإن من الخطر الشديد المغامرة بسباق
مجهول العواقب في التسلح الذرى ، ومن
الواجب وضع الطاقة الذرية تحت رقابة
دولية وأن تتعاون الدول الكبرى فى العالم
ولنقل انها الدول الخمس الدائمة فى مجلس
الامن وهى : الولايات المتحدة ، والاتحاد
السوفيتى ، والمملكة المتحدة ، وفرنسا ،
والصين ، لا من أجل التنازع فيما بينها فحسب
وتما فى سبيل ارساء أسس قوية للسلام
العالمى .

واتجهت الرابطة بندااتها أولا الى رئيس
الجمهورية ثم الى الكونجرس باعتباره ممثلا
للسلطة الشعبية العليا ثم الى الراى العام ،
ولكن للأسف فوجئت الرابطة بالفقر والصد
من جانب المستولين من سياسيين وعسكريين ،
فقد كانت هنالك رغبة محومة فى التفوق
الصبرى ، وبرزت فكرة « المصلحة القومية »
تتطلى على كل الاعتبارات الأخرى ، تلك
المصلحة التى فسرتها الاحداث التالية بأنها
الرغبة فى فرض السيطرة الأمريكية على العالم .

كان أوبنهايمر عندئذ من أكبر الشخصيات
المرموقة فى الولايات المتحدة والمستشار الاعلى
لكافة ما يتعلق بشئون التسلح ، وقد برز فى
تلك الفترة بأفكاره السلمية ، فاسهم فى
وضع البيان العام لرابطة علماء لوس آلاموس ،
ولكنه نصح زملاءه بالصبر والثريث وعدم
نشر بيانهم على الجمهور رأسا حتى لا تحرج
الحكومة ، وتعتبر ذلك دليلا على عدم الثقة بها .
وكان أوبنهايمر شديد التفاؤل فى حسن نية
الحكومة واستعدادها لاجابة مطالب العلماء
اذا وقفت على الحقائق الأساسية التى لا يعرفها
غيرهم .

كان ذلك فى خريف ١٩٤٥ عقب انتهاء
الحرب مباشرة ، وأصبح العلماء والراى العام
على السواء ينتظرون تصريحا من الرئيس ترومان
يجلو الموقف .

وأخيرا جاءت رسالة ترومان الى الكونجرس
مخفية آمال العلماء ، فقد ركز فيها على

بالفعل بعد موت روزفلت ، والآن بعد ان
دمر هذا السلاح رهيب هيروشيما وناجازاكي
كان على الكونجرس أن يقرر مستقبل سياسة
الطاقة الذرية ، وكان على المستولين أن يقوموا
بحملة توعية واسعة النطاق ليعلموا المواطنين
الكثير مما يجب أن يعرفوه عن ذلك التطور
الخطير الذى اقتحم الحياة الأمريكية ، ودعى
العلماء بالطبع للقيام بهذا الدور ، فمن غيرهم
يستطيع ذلك وهم سيدة هذا الاله الجديد
الجبار ؟

وهكذا وجد العلماء انفسهم أمام مسئولية
كبرى هى أن ينسوروا رئيس الجمهورية ،
والكونجرس ، والراى العام بحقائق الضر
الذرى ، فماذا كان موقفهم ؟

اتخذ معظم العلماء الأمريكيين موقف التحذير
وكونوا فيما بينهم رابطة قانونية باسم
« رابطة علماء لوس آلاموس » نصت فى
مادتها الأولى على أن « هدف هذه المنظمة
الدعوة الى استخدام التقدم العلمى والتكنولوجى
فى صالح البشرية ، اذ أننا ندرك أن العلماء
بحكم خبرتهم الخاصة يحملون مسئوليات
سياسية واجتماعية علاوة على مسئولياتهم
كمواطنين أفراد ونهدف هذه المنظمة الى
تزويد اعضائها بالمعلومات وتوصيل آرائهم
الى المستولين والراى العام » .

وكانت هذه الرابطة تضم أكثر من ٥٠٠
عالم أخذتهم روح القروسية فاصروا على
الا يكون للرابطة أى هدف اقتصادى ، أى
لا تسعى لنفع اعضائها الخاص ، حتى يكون
نشاطها فوق كل الشبهات ، وحتى تكرس كل
جهودها لرسالتها النبيلة وحدها ، وهى الدعوة
لاستخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السلمية
ووضعها تحت رقابة دولية ، ومعارضة
استخدامها فى الأغراض العسكرية .

وكان الراى السائد لدى العلماء وقتئذ ان
الأسلحة الذرية سوف تتطور وتزداد خطرا
وتدميرا ، وأن دولا أخرى سوف تتمكن من
صنع القنبلة الذرية خلال سنوات قليلة دون
الاعتماد على الجاسوسية ، فإن سر تفتيت الذرة



تيلر



مكارى



ترومان

فنشرت في ٩ نوفمبر ١٩٤٥ بياناً جديداً شرحت فيه مبادئها مرة أخرى ، وحثت على قبول فكرة الرقابة الدولية وناشدت المنظمات العلمية والسياسية الأخرى مشاركتها جهودها لتحقيق هذه الفكرة ، وهاجمت العزلة الوطنية والشك ، وعدم الثقة الدولية ، وقيود الأمن والسرية ، المقروضة على العاملين في صناعة الأسلحة الذرية .

وأخيراً الهوة تتسع بين العلماء والدولة .



كان أوبنهايمر من أكثر العلماء تحمساً لفكرة ربط العلم بالمجتمع ، وجعله وسيلة لرفاهية المجموع ؛ وكان يفتأ يردد أن السر ليس سرا على الإطلاق ولا يمكن لأحد أن يحتكر لنفسه أسرار الطبيعة .

وفي عام ١٩٤٧ عين أوبنهايمر مديراً لمعهد الدراسات المتقدمة في برنستون إلى جانب منصبه كرئيس اللجنة الاستشارية لوكالة الطاقة الذرية الأمريكية ، وكان المعهد يضم ١٨٠ عالماً من كبار علماء أوروبا وأمريكا في شتى العلوم والفنون ، ومن أعضائه ألبرت آينشتاين ، وأرنولد توينبي ، و ت . سي . ليوت ، وغيرهم من الأعلام ، وفي هذا الوسط الفكري الرفيع تفتحت شخصية أوبنهايمر

انشاء وكالة وطنية للإشراف على الطاقة الذرية ، وتجاهل تماماً مسألة الرقابة الدولية بل أعلن صراحة أن منظمة الأمم المتحدة غير مهيةة بعد لمعالجة هذه المشكلة .

وردت رابطة علماء لوس آلاموس على رسالة الرئيس ترومان إلى الكونجرس مؤكدة أن الأبحاث الجارية في الدول الأخرى بسوفي تفضي عاجلاً على احتكار الولايات المتحدة للقفيلة الذرية ، وعندئذ سوف تتمكن تلك الدول قبل مضى وقت طويل من صنع قنابل أقوى عشرات بل مئات وآلاف المرات من قنبلة Hiroshima ، وطالبت الرابطة بنظرة جديدة إلى فكرة التعاون الدولي حتى لو تطلب الأمر تعديل مفهوم السيادة الوطنية .

وفي عيد البحرية في ٢٧ أكتوبر ١٩٤٥ التي ترومان خطاباً آخر في جمع غفير يضم حوالي مليون شخص - وهو أكبر حشد من نوعه في تاريخ أمريكا - أكد فيه موقفه السابق وأعلن صراحة « أن القنبلة الذرية لن تفسد من السياسة الخارجية للولايات المتحدة » ، وبدلاً من الرقابة الدولية اكتفى ترومان بقوله « أننا نعد وجود هذه القوة التدميرية الجبارة في أيدينا ثقة مقدسة لأننا نحب السلام ، وجميع قوى الألباب في العالم يشعرون أن هذه الثقة لن تنتهك » ! ولم تسكت رابطة علماء لوس آلاموس ،

صناعيا لايسط القوانين الذرية التي اكتشفها العقل البشرى وهو لا يزال على شاطئ المحيط المجهول الذى يستمد لاحتكامه .

وطن أوبنهايمر أن انتهاء الحرب قد أعاد إليه حريته العلمية ، فواصل نشر أبحاثه التى أوقت على السبعين ، وكلها محاولات جريئة لصياغة نظرية جديدة للكون ، وتوصل بالفصل الى اكتشاف خمس عشرة وحدة مطلقة تتكون منها جميع العناصر المادية ، وأحدث نشاط أوبنهايمر فعل السحر بين علماء أمريكا وأوربا فأخذوا يتجهون الى البحث العلمى السلمى فى سباق عظيم لاجتلاء غوامض الكون .

وكان من الطبيعى أن يصطدم أوبنهايمر بالزعماء الصكوريين والسياسيين الذين يبيتون الرغبة فى الاستمرار فى سباق التسلح ، وقد ظهر الخلاف بين أوبنهايمر والزعماء الأمريكيين واضحا بعد انتهاء الحرب بسنة واحدة حين عين رئيسا للجنة الاستشارية الخاصة بدراسة مسألة الرقابة على الطاقة الذرية ، فكان يرى ان حل مشكلة التقابل الذرية يتلخص فى وجوب دعم الثقة الدولية عن طريق التعاون الوثيق بين علماء الشرق والغرب ، ووضع أسلحة الدمار الشامل تحت رقابة الأمم المتحدة وبهذه الروح أسهم فى وضع مشروع « أنشيسون - ليلينتال » للرقابة الدولية على الطاقة الذرية ، ولكن الزعماء الأمريكيين أدخلوا عدة تعديلات جوهرية على المشروع قبل ان يعلنه « باروخ » ممثل أمريكا فى الأمم المتحدة ، فبدلا من ان يبدأ المشروع بدعم الثقة ثم يصل الى الرقابة جعلوه يبدأ من الرقابة حتى يتطور الى الثقة ، فكان المطلوب من السوفيت ان يثبتوا أولا انهم أهل للثقة ، وذلك بالتخلي عن خططهم الخاصة باتنتاج القنبلة الذرية وتبادل المعلومات عن مستودعات المواد المشعة مما يكشف للغرب عن مستودعات اليورانيوم والتورويوم فى الاتحاد السوفييتى ، وأخيرا يجرى تبادل المعلومات المتعلقة باستخدام الطاقة الذرية فى الأغراض السلمية .

الإنسان العالم والمفكر ، فكان يناقش زملاءه فى هدف الكون ومعنى الحياة وفلسفة الحضارة ، وآمن أوبنهايمر بأن ثمار العقل والفكر يجب أن توضع فى خدمة الإنسان ، وأن تتسخر لبناء مجتمع عالمى جديد يقوم على أساس السلام والتعاون بين الدول والشعوب .

وتوقف أوبنهايمر طويلا عند واجب العلماء فى هذا المجتمع العالمى الجديد لقد انتهت الحرب وأن للعلماء أن يتحروا من عبوديتها ، ويطلقوا لعبقرياتهم العقال ، فإن من الخطأ البين الظن بأن للحرب فضلا على العلم ، وانها تؤدى الى تنشيطه وتقدمه ، فإن جوهر التقدم الذى يحرزه العلم أثناء الحرب يقتصر على ناحية التكنولوجيا والتطبيق ، فهو تقدم صناعى أكثر منه تقدما علميا ، وقد أوجدت الحرب عشرات من العلماء الذين يجيدون استخدام الطاقة الذرية والسيطرة عليها ولكنهم لا يدركون شيئا من طبيعة هذه الطاقة فلم يتوصلوا الى أى اكتشاف أساسى يفيد فى تطوير نظرية الإنسان الى الكون .

ومضى أوبنهايمر يفكر .. بأن وظيفة العلم هى تصحيح نظره الاساسى الى الكون واكتشاف المزيد من قوانين الطبيعة ، لقد كان من المعتقد حتى عهد قريب ان الذرة جوهر فرد لا يتفتت ولكن هاهى قد انقسمت وانضح انها كون شاسع مجهول شديد التعقيد ، فمم يتكون هذا الكون ؟ وهل ما يحويه من بروتونات والكترونات ونويات هى وحدات أساسية نهائية أم ان فى الامكان تحليلها ايضا كتركيبات معقدة ؟ وما هى القوانين التى تحكم حركة هذه الوحدات وتركيبها وانهارها ؟ لقد أمكن تحليل المادة الى طاقة أو اشعة ، ولكن ما هو سر المادة ؟ وما العلاقة بينها وبين الخلية الحية ؟ وهل هناك رابطة ما بين وحدات الذرة المتناهية الصغر ووحدات الكون المتناهية الكبر ؟

كانت هذه الاسئلة ونظائرها تشغل بال أوبنهايمر منذ شبابه ولكنه اضطر الى تأجيلها طوال فترة الحرب لانشغاله بصنع القنبلة الذرية ، التى تصد على خطورتها تطبيقا

المقاتلات الامريكية والمدافع المضادة للطائرات من ملاقات طائرات العدو وتدميرها .
وامتاحت السجنة اخرى نزويد القوات الامريكية في البر والجو بسلحه ذرية صغيرة حتى «تلتزم المعرته ارض المعرته» ولا تسعدها الى تدمير المدن والمنشآت .

ونظر قادة السلاح الجوي الى هذه المقترحات نظرة ريب ، فقد كان معناها التعليل من اهمية اسلح الجو نتيجة لتحويل الارصدة والاهتمام عنه الى هذه المشروعات ، وهذا يعنى انهيار خططهم التوسعية التى تهدف الى ابتلاع ارصدة ضخمة للاستعدادات العدوانية تحت ستر الدفاع ، واصرب الجنرال « هوابت فاندنبرج » رئيس اركان حرب السلاح الجوي « وتوماس فنلنتر » وزير الطيران عن شكهما في ولاء اوبنهايمر للولايات المتحدة . ولم تلبث ان جاءت الضربة القاسية للعلاقات بين اوبنهايمر والحكومة الامريكية حين عارض برنامج صنع القنبلة الهيدروجينية .



ولكن بهم حقيقة هذا الخلاف لايد أن تعرف اولاً الرجل الذى لعب الدور الاساسى فيه ضد اوبنهايمر ، وهو العالم الذرى ادوارد تيللر .



ولد ادوارد تيللر عام ١٩٠٨ ، اى انه اصغر من اوبنهايمر باربعة سنوات ، وان كان ينتمى الى نفس جيله العلمى . وعلى العكس من اوبنهايمر قضى « تيللر » طفولته في ظروف سياسية مضطربة ، فقد ولد في بودابست ، وكان في السادسة من عمره حين قامت الحرب العالمية الاولى ، ولم تلبث ان غزت روسيا القيصرية المجر وقرقها الحطام فيما بينهم ، وبعد الحرب مباشرة قامت في المجر ثورة مضادة اعلنت على اثرها دكتاتورية عسكرية قاشية برئاسة الاميرال هورثى . وقد اثرت كل هذه الاحداث في « تيللر » ، ونشأت لديه عقدة الهجرة من « هذا المجتمع

وكان اوبنهايمر يرى ان هذه الشروط غير معقولة من الناحية السياسية او الفنية ، ومن شأنها ان تزيد مخاوف السوفيت وتضاعف من اصرارهم على صنع الاسلحة الذرية ، وكان يحذر ان يتم فوراً تبادل العلماء والخبرة العلمية فيما يتعلق بالاستخدام السلمى للطاقة الذرية ، فالعلم في نظره غير قابل للاحتكار ويجب ان يقدم السلام العالمى على اساس التفاهم بين الرجال في عالم مفتوح بلا عقبات او مخاوف وبعقليات متحررة لها الحق في اختيار ما تقتنع به .

وسرعان ما اتخذ الخلاف بين اوبنهايمر والزعماء الامريكيين مظهراً علنيا حين شن اوبنهايمر هجوما عنيفا على الاميرال لويس شتراوس رئيس لجنة الطاقة الذرية الامريكية الذى رفض ارسال نظائر مشعة الى الخارج لاستخدامها في الابحاث الطبية ، متدعرا بحجة الامن القومى .

ولم يلبث ان دخل اوبنهايمر معركة ضيقة اخرى مع قادة السلاح الجوي الامريكى ، فقد كانوا يروجون لسياسة الانتقام الشامل التى تعتمد بدورها على القنابل الذرية الكبيرة تلك التى تستطيع ان تبيد مدناً بكاملها او مناطق شاسعة من التحصينات العسكرية ، اما اوبنهايمر الذى جرب ما تعنيه عبارة « لقد أصبحت انا الموت مدمر العوالم » ، فكان يعتقد ان القنابل الكبيرة واسلحة الدمار الشامل لا ينبغي استخدامها الا اذا فشلت كل امكانيات الدفاع الاخرى ، وكان اوبنهايمر بحكم مركزه كرئيس للجنة الاستشارية لوكالة الطاقة الذرية الامريكية ورئيس لعدة انواع من اللجان الخاصة بتخطيط التسلح يستطيع ان يؤثر في سياسة الدفاع الامريكية . ورمق زعماء السلاح الجوي نشاطه بغضب وعصبية ، ثم ما لبثوا ان نظروا اليه بعين الشك التام حين طالعته المقترحات التى قدمتها لجنتا بحث اشتراك فيها اوبنهايمر والثر فيها تأثيراً قوياً .

فقد اقترحت احدى اللجنتين تطويق الحزام القطبى شمال الاتحاد السوفيتى بشبكة من محطات الرادار للتنبيه حتى تتمكن

ومد أيدي أوبنهايمز نوعا من الضيق تجاه تيللر واسلوبه في العمل وإخفاء ورد تيللر باظهار الامتعاض من موقف أوبنهايمز الذي توهم فيه مساسا بكرامته وكبريائه ، واردادات الكراهية بينهما عندما اختار أوبنهايمز الصائم هانز بيث ليراس قسم الطبيعة النظرية ذو الالهية البالغة في معامل لوس الاموس . ولم يفصل أوبنهايمز ذلك استهانة بكفاءة تيللر العلمية ، وإنما اقتناعا منه بأن تيللر ليس اداريا كفا ، ولكن هذا التصرف أشعل نيران الصفيحة في صدر تيللر . ومنذ ذلك الوقت بدا يسحب نفسه ويبدأ من مشاكل القنبلة الذرية ويهتم بمشكلة القنبلة الهيدروجينية التي كانت لا تزال في حكم الاستحالة الفنية ، وبدأ واضحا أن الموقف لم يعد يحتل الا أحد الرجلين أوبنهايمز أو تيللر ، فقد كان كل منهما أشبه براقصة باليه أولى أو بطلة أوبرا لا يمكن أن يتسح لهما مسرح واحد .

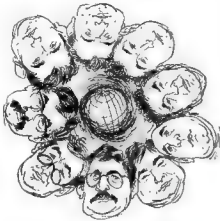
لما الحلال الرئيسي بينهما منذ حدث بعد انتهاء الحرب مباشرة إذ اتجه تيللر الى مواصلة أبحاثه الخاصة بالانشطار النووي تمهيدا لاصطناع قنبلة جديدة تعتمد على تفتيت بواة الذرة نفسها مما يجعلها تفوق القنبلة الذرية الاف المرات في قوة التدمير ، وكان يأمل أن يساعده أوبنهايمز وفريقه في أبحاثه بنفس الحساسية التي صنعوا بها القنبلة الذرية ، ولكن أوبنهايمز عارض هذا الاتجاه ، بل رفضه من أساسه ، وطالب بتكريس جهود العلماء في الأبحاث الذرية النظرية وتطبيقاتها السلمية ، وبدأ العلماء يتحسسون لفكرته ويعودون الى جامعاتهم ، بل أن بعضهم فضل وظيفة مدرس صغير يشرح مبادئ الطبيعة للطلبة المبتدئين على الامكانيات العملية الهائلة التي يتيحها العمل في برنامج الدفاع العسكري ، وشعر إدوارد تيللر من جراء هذا الموقف بخيبة أمل مريرة ، فمكث في لوس الاموس بعض الوقت ريثما ينهى بعض أبحاثه المفتوحة قبل أن يقرر أن ينفصل بنفسه ليواصل وحده أبحاثه لصنع القنبلة الهيدروجينية .

والواقع أن هذا الموقف من تيللر لم يكن

اللعين . وبعد أن أنهى دراسته للطبيعة في « كارلسرو » و « ليبزج » و « جوتنجن » جاء هتلر الى الحكم ، وبدأت هجرة العلماء الى الخارج ، وكان « تيللر » من بين المهاجرين الى الولايات المتحدة عام ١٩٣٥ ، حيث عين استاذاً للطبيعة في جامعة « جورج واشنطن » ، وعكف على أبحاثه العلمية في جو من الهدوء السياسي لم يشهده من قبل ، وفي عام ١٩٤١ اكتسب « تيللر » الجنسية الامريكية ، وكان شديد الإعجاب بالجو الراسمالي الديموقراطي الليبرالي على نحو جعله غير قابل لأي استهواء يساري .

وعندما كلف أوبنهايمز بالإشراف على مشروع لوس الاموس سارع الى دعوة تيللر الى العمل في المشروع . لم يكونا صديقين ، لكنهما تعارفا بشهرتهما العلمية وتقابلا في مناسبات قليلة ، وكان كل منهما يقدر الآخر ويمجّب بعقليته ، وكاد تيللر في أول الامر أن يمنع من العمل في المشروع لآ له اقارب في الأراضي التي يحتلها النازيون وليس لديه ترخيص من السلطات الامريكية . ولكن أوبنهايمز استطاع بنفوذه للولفسج أن يهمل هذه العقبة ويحصل لتيللر على الترخيص المطلوب .

غير أن فترة التوافق بين أوبنهايمز وتيللر كانت قصيرة ، ولم تلبث المسافة ان تباعدت بينهما حتى أصبحت على طرفي نقيض ، ويبدو أن الاختلافات الجوهرية بين شخصيتي الرجلين لعب دورا هاما في هذا التباعد ، فقد كان أوبنهايمز مثاليا حالمًا مغرما بالفلسفة الكلاسيكية والشعر الغريبي الفرنسي في مطلع عصر النهضة ، وهو رجل مكتف على نفسه ، ضيق الصبر بالناس لا سيما الذين لا تعمل أذهانهم بالسرعة التي يعمل بها ذهنه ، ولكنه كان في نفس الوقت لطيفا مهذبا جادا ساحر الشخصية يضي على كبرياؤه العقلي لمحة من الفطرسه ، أما تيللر فكان ظاهريا واقفيا يحب المجتمعات وتكوين الصداقات ، ويضم تبادل الطرائف مع الاصدقاء ، ويهتم بأراء الناس ومشاكلهم ، ويحتمس في المناقشات والخصومات ، ويتالم بشدة اذا شعر أنه أهين .



ولم يمض وقت طويل حتى تمكن تيللر باكتشاف عيقرى من حل المشكلة الفنية للانشطار النووي ، وتم صنع القنبلة الهيدروجينية وتجربتها بنجاح ، وبعد شهر قليلة تمكن الاتحاد السوفيتي من تفجير قنبلة الهيدروجينية وبذلك اتضح أن قرار اللجنة الاستشارية خاطئ ، فنيا وسياسيا . . وبدأ خصم جلاوي أوبنهايمر يصوبون عليه سهامهم .

ولما زاد هوجة على أوبنهايمر أنه لم يكن يحتفظ بأرائه لنفسه بل كان يؤثر تأثيرا عميقا في العلماء والرأى العام ، فقد قرر أن ينزل إلى الناس ليسهم في خلق رأى عام ضد القنابل النووية ، فكان يعقد الاجتماعات ، ويشترك في المؤتمرات ، ويصدر البيانات والتحذيرات ، ويشارك بكل قواه في الحملة العالمية ضد القنابل والتجارب الذرية التي اشترك فيها آلاف العلماء والمفكرين من شتى أنحاء العالم فر الشرق والغرب وعلى رأسهم ألبرت انشتاين ، وبرتراند راسل ، وفريدريك هوليو كوري ، وأوتو هان ، وست اسمان ، وتلز بور ، وغيرهم من العلماء السوفيت والانجليز واليابانيين والفرنسيين والألمان .

وجاء اختراع القنبلة الهيدروجينية ليزيد الاحن والمحسومات بين العلماء الأمريكيين الذين انقسموا إلى فريقين بين تيللر وأوبنهايمر ، وذلك في وقت كانت فيه الكارثية تنشر ظلها الأسود على المجتمع الأمريكي .

منبت الصلة بجذوره السياسية ، فقد كان تيللر يمثل اليمين الأمريكي المتطرف ، كان شديد الشك في نوايا الاتحاد السوفيتي والشيوعية العالمية ، ويرى أن أفضل سياسة يمكن اتخاذها أن تقب منها الولايات المتحدة موقفا متشددا ، ولذلك كان من أشد مؤيدي مشروع «مارشال» والاتحاد الاوربي وحلف شمال الاطلسي ، وقد ثبت أن هذا الموقف المتطرف في أمريكا في ذلك الحين كان ينتهي بأصعابه - الذين يصفون أنفسهم بالواقعية - إلى الانزلاق لاتهام أبة فكرة مخالفة بالخيانة والعداء .

واتجر الصراع العلني بين تيللر وأوبنهايمر حين أصدرت اللجنة الاستشارية العامة لوكالة الطاقة الذرية التي يرأسها أوبنهايمر ، والتي تعد سلطة عليا في هذا الصدد ، قرارا بالإجماع يدعو تيللر إلى عدم إجراء أى توسع جديد في الأبحاث النووية أى التوقف عن إيجائه لصنع القنبلة الهيدروجينية ، واستندت اللجنة في ذلك إلى عدة أسباب فنية وسياسية وأخلاقية ، إذ كانت تعتقد باستحالة إساح القنبلة الهيدروجينية في ذلك الوقت ، وحتى إذا أمكن صنعها لسوف تسيء إلى الفولاذن العسكري الأمريكي إذ تجعله يعتمد على أسلحة الدمار الشامل وإهال الأسلحة التقليدية ، مما يجعل أمريكا غير مستعدة لغرض مشارك الحروب الصغرى ، هذا علاوة على المانع الحلقى الذي ينبغي أن يحول دون انتاج أسلحة التدمير الشامل للإنسانية ، كما أن اللجنة كانت تستبعد أن يقوم الاتحاد السوفيتي من جانبه بصنع القنبلة الهيدروجينية ابتداء ، لأن كل ما كان يهدف إليه - في نظرها - هو اللحاق بالولايات المتحدة من ميدان التسليح لا التفوق عليها .

ولكن الرئيس ترومان بادر بالفاء قرار اللجنة وكلف تيللر رسميا بانتاج القنبلة الهيدروجينية ، غير أن تيللر أسرها في نفسه ضد أوبنهايمر ، وقرر لديه أن الرجل يحاول إبعاده تماما عن الميدان واجهاض كل تجاربه العلمية التي استغرقته وقتا طويلا يرجع إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية .

ينج منه آلاف العلماء والمفكرين والسياسيين الذين وقفوا في قبضة ماركسي ، فانه شعر أيضا بان سكوته على هذه الاتهامات معناه اعترافه بها ، او على حد تعبيره « اقرارا بانني لم اكن مختصا لهذه الحكومة التي خدمتها اثني عشر عاما » .

وفي ١٢ أبريل عام ١٩٥٤ بدأت محاكمة أوبنهايمر في قاعة بالدور الثاني بأحد المكاتب المؤقتة للجنة الطاقة الذرية ، وقد هيئت القاعة بحيث تشبه قاعات المحاكم العادية ولكن كان ينقصها الجلال القضائي الذي يميز المحاكمات العادية ، فقد كانت القاعة مزدحمة أكثر من اللازم ، كثرة الجلبة والحركة ، لا ينقطع عنها سيل الداخلين والخارجين من شتى الأنواع .. موظفين قمصانيين ، رجال أمن ، شخصيات عسكرية . شهود ، متفرجين ، صحفيين ومراسلي الاذاعة ووكالات الأنباء والتلفزيون . أما الأثاث فكان بسيطا ورسما ، وكان الحاضرون يجلسون على مناضد مزدحمة يفصلها ممر يصل بين باب القاعة وصدر المحكمة ، وعلى أحد جانبي صدر القاعة جلس الادعاء يرأسه روجر زوك رابيل النائب العام في واشنطن ، وهو من رجال ماركسي المدين على « اصطياد الشيوعيين » . وعلى الجانب المقابل جلست هيئة الدفاع ، برئاسة لويد جاريسون وهو محام مثقف ليبرالي الاتجاه . وفي صدر القاعة منصة القضاة الثلاثة وهم : جوردن جراي وزير الجيش السابق ، رئيسا ، وتوماس مورجان ، رئيس مؤسسة سبيري الصناعية . ودكتور وارد ايفانز استاذ الكيمياء بجامعة نورث وستون . وتواجه القضاة مائدة صغيرة ، تقوم مقام منصة الشهود الذين بلغ عددهم أربعة وعشرون شاهد اثبات وتفي .

وفي أقصى القاعة أريكة صغيرة من الجلد جلس عليها المتهم دكتور روبرت جوليوس أوبنهايمر يوما بعد يوم يلوذ ثم غليونه وينفث دخانه في عصبية هائلة وهو يستمع الى أدق تفاصيل حياته الخاصة والعامة تلوذها اللسنة وتطرحها بين أيدي أعضاء المجلس الثلاثة الذين لا يكاد يعرف عنهم سوى أسمائهم ولكن شاء القدر أن يجعل مصيره مرتبطا بكلمة تخرج من أفواههم .

أصبح أوبنهايمر عقبة في وجه الكثيرين ، فكثر خصومه وصاروا يودون التخلص منه .

كان هناك خصمه اللدود الجنرال لويس ستراوس رئيس لجنة الطاقة الذرية الذي يحول ضفينة كبرى لأوبنهايمر بسبب غطرسته العلمية ووقوفه ضد تجنيد العلماء في خدمة الحكومة ، وكان هناك السناتور بريان ماكاهون رئيس لجنة الطاقة الذرية المشتركة بالكونجرس والرجل الذي وقف من الناحية السياسية وراء صنع القنبلة الهيدروجينية . وكان ادوارد تيللر منافس أوبنهايمر القديم وصانع القنبلة الهيدروجينية ، وكان هناك الجنرال هويت فاندنبرج رئيس أركان حرب السلاح الجوي ، وتوماس فنلنتر وزير الطيران اللذان يقف أوبنهايمر في وجه مشاريعهما التوسعية ، وكان وراء هؤلاء جميعا السناتور نيكارتي رئيس لجنة النشاط المعادي لأمر بكا الذي استطاع أن يستغل مخاوف الأمريكيين ويوحى اليهم بأنهم وقعوا في براثن الشيوعية . هؤلاء جميعا وغيرهم من أصحاب النفوذ بقوى كاثي يهيم التخلص من أوبنهايمر بتشويه سمعته وهدم أسطوره في أعين العلماء والرأي العام . وذات يوم عاد أوبنهايمر من رحلة في الخارج لي مفاجا بان خصمه اللدود لويس ستراوس قد استصدر أمرا من الرئيس ايزنهاور « بإسداء ستار كثيف بين أوبنهايمر والأسرار الذرية » باعتبار أن ولاءه مشكوك فيه لارتباطاته القوية بالشيوعيين ، وأنه تسبب في تأخير إنتاج القنبلة الهيدروجينية الأمر الذي لا يفيد منه سوى الاتحاد السوفيتي ، ولذلك ينبغي عدم تجديده ترخيص الأمن لأوبنهايمر ومنعه من الاطلاع على الأسرار الذرية ، وطرده من خدمة الحكومة .

وأصبح على أوبنهايمر اما أن يقبل هذا القرار وينسحب في هدوء أو يطلب سماع أقواله لسند الاتهامات الموجهة اليه ، أي يطلب تقديمه الى محاكمة .

ورفض أوبنهايمر هذه الاتهامات ، ورغم أنه شعر منذ أول الأمر بأنه دخل الفخ الذي لم

طرح أمام المحكمة ملف أمن أوبنهايمير الضمح ويحوى تفاصيل كل اتصالاته القديمة بالشبيوعيين ، ومساهماته في القضايا اليسارية، كما قدمت وكالة المخابرات المركزية كمية ضخمة من مواد الاثبات كالوثائق المصورة ، والمحادثات التليفونية المسجلة والأفلام ، ولم تقتصر هذه المواد على تسجيل نشاط أوبنهايمير العلمي فحسب بل كانت تمتد لتشمل حياته الشخصية في أدق تفاصيلها ، فدللت بذلك على مدى تتبع أجهزة الأمن الأمريكية لكل خطوات العلماء ، وتجسسها على حياتهم الخاصة .

وكانت إجراءات المحاكمة قاسرة وخاطئة من الناحية القانونية فالتهم غير ثابتة بل تتغير بالزيادة والنقصان في مختلف أيام المحاكمة التي استمرت أربعة أسابيع ، مما صعب على الدفاع تركيز جهوده حول هدف معين ، والأدلة مستمدة من معلومات ترجع إلى أكثر من اثني عشر عاما ، وكانت كلها معروفة جيدا من قبل لأجهزة الأمن التي منحت ترخيص الأمن لأوبنهايمير وظلت تجسده طوال فترة الحرب وبعدها .

أما المدعى « روجر روب » فقد اتهم بتهمة التورط في هذا الدور ، فهو معروف برغبته السياسية وقدرته على الصاق تهمة النشاط المعادي لأمريكا بأي شخص يشاء ، ومنذ بداية المحاكمة اتضح أن روب لا يدير القضية بروح البحث الموضوعي عن الحقائق ، وإنما بأسلوب الاتهام والتجريم مستخدما في ذلك زلاقة لسانه وأساليبه البارعة . وفي البداية كانت المحاكمة تسير في صالح أوبنهايمير إلى حد ما حتى نجح « روب » بحيلة بارعة في تحويل اتجاهها باستغلال واقعة « هاكون شيفالييه » .

وتتلخص هذه الواقعة في أنه في أواخر عام ١٩٤٢ كان لأوبنهايمير صديق يساري يدعى « هاكون شيفالييه » وهو عالم فرنسي يعمل أستاذا في جامعة بركلي ، ويبدو أن شيفالييه أساء تقدير مدى اتجاهات أوبنهايمير اليسارية فأسر إليه بأن هناك ترتيبا خاصا يتيح لأوبنهايمير إرسال ما يشاء من المعلومات العلمية إلى السوفييت ، ورفض أوبنهايمير على الفور ولكنه لم يسارع بإبلاغ السلطات بالامر ، وبعد

فترة طويلة من الصراع النفسي تمزق فيها بين ارتباطه العاطفي بشيفالييه ومتطلبات الأمن أقدم أوبنهايمير في أغسطس ١٩٤٣ على إبلاغ السلطات ولكنه اخترع قصة ملفقة لا تدبر أحدا ، وحفظ الموضوع عند هذا الحد ، ولكنه أدرج - بالطبع - في ملف أوبنهايمير « وأثناء المحاكمة نقب المدعي روجر روب عن هذه الواقعة وسرعان ما كشف حقيقتها أمام سيل من الأسئلة الحادقة التي أخذ يوجهها إلى أوبنهايمير . وأخيرا صاح « روب » في وجهه طالبا منه أن يعترف بأن قصته الملفقة هذه لم تكن أكثر من « نسج أكاذيب » فأجاب أوبنهايمير مرتبكا بالإيجاب .

وتلقف « روب » هذا الاعتراف ، ومضى يدلل على أن أوبنهايمير رجل كاذب يستطيع أن يخترع قصصا وينسج الأكاذيب يخدع بها السلطات سنين طويلة ، وما دام يعترف بذلك صراحة ، فلا يمكن الوثوق بعد الآن بأي أقوال يدلي بها أمام هذه المحكمة أو غيرها . كانت هذه الواقعة بمثابة مفرق الطرق في المحاكمة ، فقد قلبت الجو ضد أوبنهايمير الذي بدأ يتهرب من الحقيقة لا يتطلع من الأحداث والمفاجآت ، فاستسلم دون تفكير لأسئلة المدعي ومغالطاته التي كانت تنهمر عليه كالطهر .

والواقع أن روبرت أوبنهايمير كان أسوأ شاهد لنفسه كما يقال ، إذ لم يحاول أن يخفي وجهة نظره أو يرجع عنها ، بل مضى في شجاعة ساذجة يدافع عن أفكاره ، ويحاول أن يقنع بها متهمة ، فقال انه رفض المساهمة في إنتاج القنابل الهيدروجينية ، لا رغبة منه في مساعدة الاتحاد السوفيتي ، ولكن لانه ببساطة ضد هذه القنابل ، فإن ضميره قد اهتز للمذبحة الذرية في هيروشيما وناجازاكي ، وإذا كان هناك مبرر لصنع القنبلة الذرية لانهاء الحرب ، فما المبرر الآن لتحويل جهود العلماء إلى ميدان الدمار الشامل ؟ وإذا كانت الشيوعية تشكل خطرا مميتا على الحضارة الغربية ، فينبغي أن نهزمها بوسائل أخرى ليس من بينها القنابل الذرية والهيدروجينية ، فالاعتبارات التي تحدد موقعه ليست فنية أو سياسية بل هي اعتبارات أخلاقية في المحل

المحاكمة ، هو الرجل الذي يحتضن تيللر ويحميه ، ويفتح له الطريق الى الاوساط العليا . ومن ناحية أخرى كان تيللر مدينا لفائدة سلاح الطيران الذين أقاموا له معمله الخاص في كاليهورتيا ليواصل أبحاثه في الانتشار النووي حين قرر ترك معامل لوس ألأموس .

وصل تيللر الى واشنطنون للدلاء بشهادته ، وقبل أن يمثل أمام المحكمة بساعات قليلة التقى به ممثلو الحكومة ، وافهموه ان المحاكمة تسير ضد أوبنهايمر كما يرام ، وسلموه ملفا يحوى صورا كاملة من الاوراق الموجودة في ملف أوبنهايمر السرى ، وأوحوا اليه بما يستحسن أن يقوله في شهادته .

راح تيللر يلتمه الملف بنظرات سريعة زائفة ، انه يعرف حقيقة أن أوبنهايمر كان على اتصال بالشيوعيين قبل الحرب ، ولكن ما هو الآن يرى عشرات الأدلة تطل برؤوسها متزاحمة في وقت واحد لتأخذ بختناق ولا تترك له فرصة للنجاة ، وتأكد أن أوبنهايمر قد انتهى بالفعل ، وليست هناك قوة تستطيع أن تنقذه ، **وكلمة عقل** بن إيس « من قبل شعر تيللر أن فيض الجليد الى حاجة الى طعنة أخيرة !

وبدا تيللر شهادته مؤكدا انه لا يشك في ولاء أوبنهايمر للولايات المتحدة رغم ارتباطاته السابقة القوية بالشيوعيين ، ولكنه لم يلبث أن لوى عنق هذه الشهادة فاستطرد قائلا ان أوبنهايمر شخصية مقعدة وكثيرا ما يتصرف بطريقة يصعب فهمها ، ولذلك فانه يرى من الافضل أن توضع المصالح الحيوية لهذه البلاد في أيدي أناس أجدر بالثقة والفهم !

ورد تيللر بالايجاب على سؤال من المدعى عما اذا كان موقف أوبنهايمر قد عطل انتاج القنبلة الهيدروجينية ، وأضاف ان أوبنهايمر لو أيد انتاج القنبلة ، ولو أدبيا فحسب ، لأمكن صنعها قبل موعدها بأربع سنوات ، ولكنه عاد واستدرك قائلا : وعنده بالطبع مسألة تختل فيها الآراء ، والحكم على مجريات الامور في الماضي ليس أقل صعوبة من الحكم على مجرياتها في المستقبل .

وأخيرا سئل تيللر عما اذا كان ينصح بتجديد ترخيص الامن الخاص بأوبنهايمر ،

الأول ، فاذا كان انعم لا يفرق بين الخير والشر أو بين العدل والظلم ، فان العلماء بشر ذوو ضمائر ويجب أن يفرقوا بين هذه الاشياء ، يجب أن يمتنعوا تلقائيا عن انتاج وسائل الدمار التي لا تفرق بين متهم وبريء ، أو بين صديق وعدو ، أو بين شيخ وطفل بل تجعل من هؤلاء جميعا كوما من الرمال لا يمكن تمييزه . وختم أوبنهايمر دفاعه عن نفسه مؤكدا ان القنبائل الذرية والهيدروجينية لا ينبغي أن تكون من عناصر السياسة الدولية ، وان البشرية سوف تنبذ حتما مثل هذه الاسلحة .

هكذا كان أوبنهايمر اسوأ شاهد ضد نفسه ، ولكن الشهادة التي كان لها أكبر الاثر في المحاكمة هي تلك التي أدلى بها أدوارد تيللر . ويقال ان تيللر رغم خصومته لأوبنهايمر لم يكن سعيدا بتطور الامور الى حد تقديم أوبنهايمر الى المحاكمة ، وانه كان يشعر ببعض الأسف لاهانة رجل له عبقرية أوبنهايمر ، ولكنه في نفس الوقت كان يشعر بالارتياح للانتقام من هذا الرجل الذي آذاه في الماضي بكبريائه العقل .

وهكذا كان « تيللر » ميليل العنكبوت الى أقصى حد حيال محاكمة أوبنهايمر وقد زاوه في منزله قبل المحاكمة بقليل ، ويومها سأل أوبنهايمر عما اذا كان يجد في موقفه ما يصح أن يسأل عليه ، فأجابه بالنفي ، فطلب منه أوبنهايمر أن يتصل بالمحامين عنه ويتمسك معهم الشهادة التي سوف يدلي بها . وفي المرة التالية التي زار فيها تيللر واشنطنون قصد الى كبير محاميين أوبنهايمر ، وأبلغه أنه لا يعتقد ان أوبنهايمر خطر على الامن ، ولكنه يختلف معه في نقاط كثيرة يرى أن أوبنهايمر مخطئ فيها أشد الخطأ .

وعندما وصل تيللر الى واشنطنون للدلاء بشهادته كان لا يزال يعاني من الحيرة والبلبل ، ولكنه لم يكن في الواقع حرا في تحديد مشيئته ، بل كان مقيدا الى الجانب المهادى لأوبنهايمر ، أو بمعنى آخر كان لابد أن يشهد ضد أوبنهايمر ليدفع ما عليه من دين لخصوم أوبنهايمر ، فقد كان الجبرال لويس شتراوس خصم أوبنهايمر اللدود الذي سعى لتقديمه الى

فقال أولا انه لا يرى مانعا من ذلك لأن أوبنهايمر لن يفعل على الأرجح شيئا بارادته يضر الولايات المتحدة ، ثم عاد يناقش نفسه قائلا « ولكن اذا كانت المسألة تتعلق بنشيدان المحكمة وحسب الحكم على الأمور فاني أصبح بعدم منح الترخيص ! »

وبعد ذلك قام تيللر ، وسار متظاهرا بالحزن الى الأريكة الجلدية التي يقبع فوقها أوبنهايمر وهو يسمح ويراقب في انتباه وذعر ، ومد له يده لصفافحه أوبنهايمر ، وبينما هما يتصافحان نظر تيللر في وجهه وهمس بهدوء « أنا آسف » ، ورد أوبنهايمر بنفخة مؤدبة تنم عن شك وذهول « بعد كل ماقلته الآن لا أستطيع أن أفهم ماذا تعني بالضبط » .

انتهت المحاكمة وعساد أوبنهايمر الى برينستون في انتظار الأنباء السيئة التي سرعان ما وصلت ، فقد صدر الحكم بعدم منح أوبنهايمر ترخيص أمن وابصاده عن العمل في الاسرار الذرية ، لا على أساس عدم الولاء للولايات المتحدة وإنما بحجة انه يمانى «بعض عيوب الشخصية » ، كما أثبت الحكم أن أوبنهايمر يستحق اللوم لعدم حمايته الكافية لانتاج القنبلة الهيدروجينية للأطويكلا - وكان الحكم بأغلبية صوتين الى واحد - جرى ومرجان ضده ودكتور ايفانز معه .

وبناء على نصيحة المحامين طلب أوبنهايمر استئناف الحكم ، ومضى الى الاستئناف مذهولا يكاد يفقد عقله ، ليقف هذه المرة أمام هيئة مكونة من خمسة قضاة ، ولم يصمد حين صدر الحكم بتأييد الحكم الأول بأغلبية أربعة الى واحد .

وهكذا انتصر خصوم أوبنهايمر وأزاحوه عن طريقهم .



غرق أوبنهايمر في الظلال ، فقاطع زملاءه العلماء حتى لا يلحق بهم أذى ، وأصبح لا يظهر في المناسبات العامة ، ولا تتحدث عنه الصحف ، وبشت السبلطات حوله العيون

والجواسيس ، وفرضت الرقابة المشددة على بيته وتليفونه وبريده ، وسرعان ما أخذت طعنات المصوم تترك ندباتها الضائرة في مظهره . وبعد أن كان يبدو دائما أصغر من سنه بدأ يكبر ويهرم بسرعة ، فابيض شعره ، زدبل عوده ، وبدا حزينا مثقل الفؤاد ، وزايله سعوره بكبرياته وزهووه العلمي ، وأصبح رحيما متواضعا . قال عنه أحد الذين عرفوه حديثا في تلك الفترة « لقد كان يشعر أنهم سرقوا ثمار حياته وأعطوها لتيللر ، وكان ذلك يؤلمه أكثر من أي شيء آخر » .

وأصبح الناس ينظرون الى أوبنهايمر تقديس أو شهيد ، والحق أن محاكمة أوبنهايمر هزت الضمير الأمريكي والعالمي ، فها هو عالم من أكبر علماء العصر يحاكم من أجل آرائه ومواقفه ، وأين ؟ في الدولة التي تفاخر بأنها معقل الحرية والديموقراطية ، ولماذا ؟ لأنه يتحدى بأن يكون الصلح في خدمة المجتمع الإنساني بأسره ، ومتى ؟ في النصف الثاني من القرن العشرين !

وشعر كثير من العلماء بخيبة أمل مريرة ، وترددوا في خيبة حكومة تعامل العلماء على هذا النحو . فاستمع كثير من الشباب الأذكيا عن الانحياز بكليات العلوم حتى لا يلقوا نفس المصير .

وانفت عن أوبنهايمر عشرات الكتب ومقالات والمسرحيات والأشعار .

أما ادوارد تيللر فلم يكن سعيدا بدوره بل جنى حصادا من الكراهية والاحتقار ، فقد حنق العلماء والمتفقون عليه لقيامه بدور مغلب قط للمكارية ، وأخذوا ينظرون اليه كقابيل الذي قتل آحاه .

على أن تيللر لم يكن يعدم المؤيدين ، بل لقد انقسم علماء الطبيعة في الواقع الى معسكرين متضادين ، أصغرهما مع تيللر ويرى أن الاتحاد السوفيتي أثبت بما لا يقبل الشك أنه غير جدير بالثقة أو بالتأييد يجب الاستمرار في صنع الأسلحة النووية وتطويرها ، وأكبرهما مع أوبنهايمر ويرأسه هانز بيث ، ويرى هذا الفريق الأخير من العلماء أن البشرية يجب أن تنبذ الى الأبد كل

يقوم بهذه الخطوة الجانب الخاسر الذي يتزعمه ادوارد تيلر .

وجاءت الفرصة المناسبة لاتخاذ هذه الخطوة عند الترشيح لجائزة « انريكو فيرمي » التي تمنح لمن يسهم بجهود رقيق في أبحاث الطبيعة الذرية ، وكان تيلر قد منح هذه الجائزة عام ١٩٦٢ ، وفي العام التالي استقر رأيه ورأى جميع العلماء الأمريكيين على منح الجائزة لروبرت أوبنهايمر كمظهر لانتهاء الخصومة بين العلماء .

ورحب الرئيس الراحل « جون كيندي » ، بما عرف عنه من روح تقدمية وتقدير للعلماء ، بالفكرة رغم ما فيها من مخاطرة سياسية قد يستغلها خصومه المحافظون ، وبدأ كيندي بدعوة أوبنهايمر لحضور الحفلات بالبيت الأبيض ثم أقر اقتراح وكالة الطاقة الذرية الأمريكية بترشيحه لجائزة انريكو فيرمي . وكان قرار منح أوبنهايمر الجائزة آخر قرار رسمي يتخذه كيندي في حياته وأعلن صبيحة اليوم الذي لقي فيه كيندي مصرعه . وكان منح الجائزة لأوبنهايمر في حفل خاص أقيم بالبيت الأبيض من أوائل المهام الرسمية التي قام بها الرئيس التالي جونسون ليوحي للناس أنه ينتهج سياسة راحلهم العزيز .

ردت جائزة انريكو فيرمي بعض الاعتبار للعالم الفيزيائي الكبير دكتور روبرت جوليوس أوبنهايمر ، ولكنه ظل محروما من ترخيص الأمن الذي يتيح له خدمة الحكومة ، ويقال انه لو امتد العمر بكيندي لأقدم أيضا على هذه الخطوة . ولكن هذا ما كان ، وظل أوبنهايمر حتى آخر يوم في حياته يعتبر من وجهة النظر الرسمية شخصا خطرا على الأمن لا يؤتمن على أسرار الدولة العليا وبماني عيوباً ماسة بانثخصية . والحق أن كل جريرته أنه كان يمثل ضمير العلماء ، وأنه كان يرفض أن يصبح العلم وسيلة للدمار ، وأن يصبح العلماء أداة في يد السلطة ، وأن تصبح أسرار الطبيعة حكرا لمضمرى العدوان ، ففاضل لرد كرامه العلماء ، وإيقاظ ضمائرهم ، وإشعارهم بمسئوليتهم ، ووضع العلم في خدمة المجتمع الانساني كقوة ينبغي أن ترتفع فوق الخلافات والمنازعات وفقا بمصير الانسان .

التجارب والأسلحة النووية وأن التعايش السلمي مع الاتحاد السوفيتي ضرورة لا مفر منها مهما كانت الأحوال .

وانفجر الخلاف بين المعسكرين حول مسألة حظر التجارب النووية التي طرحت على المستوى العالمي في أواخر الخمسينات . لقد ظل « تيلر » متمسكا بالدفاع عما أسماه حماية أمن الولايات المتحدة والعالم الحر ، مؤكدا أن السوفييت يمكنهم خرق الاتفاق وهم في مأمن من الرقابة والتفتيش ، ومضى يشجع أنصاره من العلماء على المضى في أبحاثهم لصنع قنبلة النيترون ، وأخذ يكتب المقالات « ويلقى المحاضرات ويدلي بالتصريحات ، ويخوض معارك ومناقشات كلامية لا تنتهي في الإذاعة والتلفزيون ، مع مؤيدي فكرة الحظر الذي أمثال لينوس باولينج وهانز بيث ، ولم يرض وقت طويل حتى كان قد خلف خصومات أكبر ضاعفت من عمق الصدع بين معسكري العلماء الأمريكيين .

وانهكت هذه المعارك « تيلر » نفسيا وبدنيا ، فانهارت صحته ، وتغيرت شخصيته ، وزايله الشعور بالمرح والتفصيل وحل فجأة شعور حاد بسوداوية المزاج خاصة يتطور أحيانا الى حالة من المرواة الشديدة واليأس القاتل ، وبدأ كان لعنة القنبلة قد أصابته كما أصابت أوبنهايمر من قبل ، وشعر القريبون منه أنه على وشك الانهيار التام . ولكنه استطاع اجتياز آلام هذه المرحلة بصموده وقوة تحمله ، وبدا وكأنه وصل مثل أوبنهايمر الى حضبة نفسية قاطلة اكتسب فوقها نوعا من المناعة والاستعلاء ، وأصبحت له أيضا نظرات فلسفية داخلية ، ومثل أوبنهايمر كذلك انتابه شعور بأنه يخوض معركة خاسرة .

وقد كانت بالفعل معركة خاسرة .. ففي ٥ أغسطس ١٩٦٣ وقعت بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي اتفاقية حظر التجارب النووية على الأرض وفي الجو وتحت سطح الماء ، ولكن الاذن والخصومات استمرت بين معسكري العلماء الأمريكيين تسمح الجو العلمي حتى أصبح من المحتم أن تتخذ خطوة توفيقية بين الطرفين ، وكان من الطبيعي أن

حديث مع .. جان بول سارتر ..

ترجمة وتقديم: د. أنور لوقا

• لاروشيل • ثم ليسيه «عنتري الرابع»
بباريس ، بدأ ظهوره من عواد الرياضة
وتلوه في مواد الأدب • ودخل مدرسة
للمعلمين العليا سنة ١٩٢٤ ، وبعد
حصوله على الليسانس حاز درجة
« الاجريجاسيون » سنة ١٩٢٩ وكان
ترتيبه الاول .

وعين سارتر مدرسا في ليسيه
« الهافر » - ومن هذه المدينة سيستعير
مطارا لروايته « الفتشان La Nausée »
ثم نقل الى ليسيه « باستر » بباريس
واتبع له ان يفضي عام ١٩٣٣ - ١٩٣٤
في العهد الفرنسي ببرلين ، وهناك
تدخل على الفيلسوف الالماني « هوسرل »
وشاهد في تحرير « المجلة الفرنسية
الجديدة - N.R.F. » - وهي مجلة
المتقنين الرأبقة - مقالات عن فوكسر
ودوس باسوس وموريك وجيمودو ،
كما كتب في مجلته « أوروبا » ،
ومجلة « التمايزية والاخلاق » ونشر
بعثا في « التخيل L'Imagination »
عام ١٩٣٦ ، وآخر عنوانه « تخيف
لنظرية في الإنفعالات
Esquisse d'une théorie des
Emotions »
ظهر عام ١٩٣٦ • ورغم نشاطه في
السنوات التي سبقت الحرب العالمية ،

والفلاسفة يصفونه الى الابداء • وهو
يؤمن برسالة الكاتب ، كما يؤمن غيره
برسالة الدين • ففي الأدب يرى
خلاص الكاتب وصلاح امر القراء • ثم
يلبس عجزه عن تبديل الناس ، ويغفد
لننه القدرة العظم • بكفر التي بالادب
وينقلب على الشنقطين بفنونه يطههم
ويضمهم بالصد ما بني ضلل جالغ
يتصور في وكن من اركان الفريضا
واسيا وينتظر ان نهره من ذلاليوج
واخيرا ترصفه جائزة نوبل الى قمة اداء
العالم ، فرفض التكريم - محتجا
بكرامة الاديب !

كرفة • سارتر • ينبغي ألا نعمل
بين كتاباته وبين حياته :
وله • جان بول سارتر • بباريس ،
في ٢١ يونيو عام ١٩٠٥ ، ونشأ في
اسرة برجوازية محترمة • كان ابيه
شاعرا يهرجا ، واهمه من اسرة الطبيب
الاكزاسي الفيلسوف الدكتور • آلبرت
شفايتزر • الذي وقف حياته على
علاج زنوج • الجابون Gabon ،
في قلب افريقيا ، ونال جائزة نوبل
وقد « سارتر » أباه وهو في الثانية
من عمره ، فكفله جده الذي كان
يشغل بالتدريس • وفي فاعات ليسيه

اشتهر اديب على وجه الأرض في
عصرنا ، هو بلا شك • جان بول
سارتر • • ففي الغرب والشرق على
السواء ، ما زال يتردد اسمه على
الألسنة بمختلف لغاتها ، وفي الصحف
والتدوينات على لباين ميولها ، اشتادة
أو تنديدا بمواقفه المتلاحقة من
الشنكات الفكرية والسياسية والاجتماعية
أو مفرونا بهذا الصلل أو ذاك من
أعماله الفلسفية أو القصصية أو
المرحجة أو النقدية ، دون أن يلهم
الناس في أغلب الأحيان مضمون تلك
التعصوسي وتلك المارك العظمية ،
ما أكثر ما أثاره « سارتر » من جدل
ونقاش في كل مناسبة عامة حول قيم
الحياة الواقعية والنظرية ، ووضوح
الإنسان خلالها ، وما أكثر ما أثاره
أصحاب اليمين وصحاب اليسار من
جدل ونقاش حول شخصية « سارتر »
ومبادئه : اماننا حالة من التديج
والهيجا ، تعجب عنا هذا الرجل •

ووسط التناقضات نساءل : اهو
فيلسوف ؟ ام فنان ؟ ام مكافح شعبي؟
وما حقيقة دعوته ؟ أين أصالته وأين
مكانه ؟

الأدباء يحسبونه الى الفلاسفة ،

• الوجودية فلسفة إنسانية

L'Existentialisme est un Humanisme

• (١٩٤٦) ، و « يودلج » (١٩٤٧) ،

و - سان جنيت - Saint Genêt

• (١٩٥٢) ، و - نقد العقل الجدلي

Critique de la raison dialectique

• (١٩٦٠) ، وأضاف عدة مسرحيات

أقبل على سبورها الجمهور ، هي :

موتى بلا قبور Morts sans

Sépulture

La Putain Respectueuse

• (١٩٤٦) ، و - الأيدي القذرة

Les Mains sales

• (١٩٤٨) ، و - الشيطان والرحمن

Le Diable et le Bon Dieu

(١٩٥١)

و - كين Kean - مقتبسة عن

اسكندر ديماس (١٥٩٤) ،

و - نكراسوف Nekrassov

• (١٩٥٥) ، و - سجناء الطيسونا

Les Séquestrés d'Altona

• (١٩٥٩) - هذا فصلا عن بقية

مجلدات بعنوان - مواقف Situations

جمع فيها طائفة من مقالاته ودراساته،

وأخيرا - وقد تهازل السنين - بدأ

أرجحه حياته بكتاب - الكلمات

والتي صدر عام ١٩٦١

فصل منه جائزة نوبل ،

لقد أصبح اسم - سارتر - مرادفا

لاسم الوجودية - ، وهو لم يتبدع

هذا المذهب - الذي يمكن الصعود

إليه عنده سقراط وأولمبينيوس

واسكال - وإنما روج له وتزعمه في

جلتنا بعد أن استقاء من فلاسفة

محدثين : من كركجارد ، وهيجر ،

واسبرز ، وهوسرل ، وجايريسل

مارسل -

كان في شبابه قد تأثر بدعوة

الأديب - أندريه جيد - إلى التحرر من

ثقافت الجمع والناس الأخلاق في الجمال

التي - ثم أعجب - بأندريه مالرو -

الذي خاض معارك التسويب والأفراد

وعبر عن بقولته إنسان اليوم في مقاومة

قدره - غير أن أحداث ما قبل الحرب

العالمية جعلته يدرك أن التمسك من

الأوضاع الاجتماعية الزائفة لا يحل

ال مشكلة ، لا يحسم مسألة الصراع

الإنساني في الحياة ولا معنى مسئولية

الإنسان .



ميرجيه الشايب - جلسته مرية

11 ١٩٦١ عام

ومنذ عام ١٩٦٥ أعفى سارتر بهابا

من التعليم وتفرغ للكتابة - أسس

مجلة - المصور الحديثة Les Temps

Modernes وما زال يرأس

محررها - وقد جمعت في أعينها

الأول أسماء المجددين من شباب الأدباء

والمفكرين - وتتابعت منذ ذلك الحين

مدمرته - ورحلاته إلى مختلف فارات

الأرضي ، وأبحاثه ، وفصله ،

ومسرحاته -

وولفت إلى جانبها في جهاد العقل

والعلم شريكة عمره وفلسفته ومجده

- سيمون دي بوفسوار - منذ الحما

طالبين في رحاب الجامعة -

وبروينا - سارتر - بتزاوره انتاجه

وتنوعه - فقد أضاف إلى مؤلفاته

السابقة رواية طويلة - دروب الحرية

Les Chemins de la Liberté

نشر حتى سنة ١٩٤٩ ثلاثة أجزاء منها

ولم يتبق ، وأضاف أيضا أهمها

ثالث أدبا مقهورا - ورفض السارتر

تبع قصته - الهزيمة Défaite

لم يحظ بشي من الرواج سوى روايته

- القتيان - عام ١٩٣٨ ومجموعة من

القصص القصيرة أصدرها بعنوان

- الحائط Le Mur - عام ١٩٣٩ ،

ولا نشيت الحروب خلفه الجيش

يلقى الأسفاف ولم يلبث أن وقع في

الأسر سنة ١٩٤٠ ولكن الإلان أطلقوا

سراحه في العام التالي لأسباب صحية،

فاستأنف التدريس بليسيه - باستر -

ثم بليسيه - كوتورسه - ، وهكذا

عاشر مدة الحروب في باريس حتى

نشر كتاب - الوجود والعدم (١)

L'Être et le Néant عام ١٩٤٣ ،

وحيث قدم الفيلسوف - شارل دولان

Dullin في العام نفسه مسرحيته

الأولى - الذباب Les Mouches

لم أخرج له - البير كامي Camus

(١) نشرت « المجلة » في عدد ١٠ أيار

العامي عرسا وإنما لهذا الكتاب -

وعلى انقراض القيم التي انهارت مع المجتمع الذي أنجب العرب ، وخلف الاستمرار والتكسّر والفشل ، فلم سائر فكرة حرية الإنسان الذي يصنع نفسه ، ولا يتلقى من سواه صفات وألقابا تحدد تعريفه وإمكانياته ، بل يسبق بوجوده الذاتي جوهره المطلق، وفي جان بول سارتر يشغل على هذا مشاجرات ذهنية حامية ، أخرج فيها مذهب الوجودية من محال الفلاسفة وأساتذة الفلسفة إلى ساحات العامة وأنصاف المثقفين .

أعلن أن الوجود سابق على الفاعل، وأن الإنسان إذن يطلق نفسه بالفاعلة . فليس للفاعل - ملما - معنى واضح معين ، وإنما الإنسان هو الذي يضطر للعالم معناه . وما دام العالم لعلنا من المصاني ، فليست هناك طبيعة إنسانية ، أي أن الإنسان لا يستمد أمرا أو نهيا من شيء ، وإنما هو حر . لا طر له من أن يبتكر نفسه في كل لحظة كما يشاء . ولكن حريته تجعله المسؤول الأول عن وجوده ، فليس له أن ينتحل أي علم أو أن يشهدج بالعاقل والنزاج أو بالبروف : ١٩٤٤ لا يفعل إلا ما يريد ، ولم يرك إلا ما أقدم على فعله . وإذا كان الإنسان

حرا إلى هذا الحد البعيد ، فالحق والشئ سواء ، بل ليس لمة خير أو شر، لأن الإنسان في حالة اختيار مستمر وهو لا يختار لنفسه إلا الخير . لهذا لا يجوز لنا في آخر الأمر أن نحكم على الأفعال بمضمونها ، أو حسبها ما نسبها إليها ، بل ينبغي أن نقدر الأفعال من ناحية صانعها فقط . وعلمت فكرة المسؤولية على سارتر فكرة الأدب الهادف والتزام الأدب . وقد نأتى بها في التناحية العسود الأول من مجلته . فالحق أن الكاتب لا يستطيع أبدا أن يتبرا من أحداث عصره ، لأنه دائما في وضع من الأوضاع بالقياس إلى ذلك العصر . وانصرف أدباء مثل فلوير والتشفيين - جوتكود : Gaudier - إلى البحث عن الفن الخاص في القرن الماضي قد جر على فرنسا تركة القمع التي كلفت عزيمتها سنة ١٨٧٠، فانهم لم ينشروا سقرا واحدا لدرء الخطر من أمتهم .

مكنا وجه سارتر قلعه إلى معالجة موضوعات الساسة ، ومسائل السياسة والمجتمع . وفيه يقنع تقويم حق قتاد المجتمع الوجودي أن حاله إلى التعاون سننا فنتا مع التسرعين . وإلى ملصمة زيله الوجودي . البير

● أود أن تحدثنا عن الأدب .

— هذه دعوة تسري ، لأن جميع من يقصدونني تقريبا لا يطلبون أن أحدثهم إلا في الفلسفة !

● نحن نصلم أنك انشغلت في الفترة الأخيرة بإعادة أكثر من كتاب ، واحد عن الشاعر : مالارمي Mallarmé وآخر عن الروائي فلوير ، وثالث عن الفنان الصور : تينتوريه Tintoret فضلا عن مواصلة تدوين قصة حياتك . وبغلب اليأس أنك تنتقل من هذا البحث إلى ذلك دون رغبة في إنجاز أي منها . أو دون أن تتسككن من تغليب موضوع بعينه على ما عده . فما تعليقك لهذا ؟

— عندي تعليق لهذا . ولكن ها أنت ذا تدفعني إلى الحديث عن الفلسفة !

كاسي . غير أنه ، إلى الانضمام إلى الحزب الشيوعي ، لا يفرضه من رغبة على مهنة الكاتب . وبعد أن سق الرويس ثورة بودايست عام ١٩٥٦ ، لحسب الأدب الملتزم مع الفاشيين ، وأعلن المجلس الاستراتيجي التي يصدرها الاتحاد السوفيتي . وظل تطلع سارتر إلى مجتمع جديد يضمن للفراد أصالة شخصيته ولا يفنيه في كتلة الدولة، سبيا في خلافة التصل مع الوجودية التي نشأ في أحضانها ، والشيوعية التي تسبوه أحيانا .

وإذا كان الكثير من آراء سارتر الفلسفية والأخلاقية والسياسية والأدبية مدعاة للتعقيد والتعقيد ، فليس من ينكر أن هذا الرجل قد حرك عولوا رائدة ، وأهلب بالحرية والمسؤولية ، وأنه عبر بغير قيم العلية . منذ أيام الحرب - من لهفة الإنسان للتطيط في أزمة العصر إلى استعادة قدره وقدرته .

والحديث الذي نشر اليوم ترجمته، بمناسبة زيارته الأخيرة للجمهورية العربية المتحدة ، يوضح كثيرا من اتجاهاته الفكرية ومواقفه الأدبية في صراحة وبساطة وحيوية قل أن نجد لها نظيرا فيها نشر عنه من أبحاث ومقالات .

انني أبحث منذ خمسة عشر عاما عن أساس سياسي للأنثروبولوجيا ، مما أدى إلى تلاقي أفكار على ذهني بزيارة . وإذا كنت لا أدرى في أول الأمر ماذا أصنع بهذه الأفكار المتكاثرة ، وكيف أنظفها ، فقد رحلت أسجلها في أي مكان ، وكان أيسر طريق للاحتفاظ بها هو أن أضمتها للكتاب الذي شرعت في إنشائه . وأما الآن - وقد تخلصت من ذلك القيض الدافق من الخواطر الفلسفية بصبه في كتاب خاص هو « نقد العقل الجدلي Critique de la raison dialectique »

فقد خلا السبيل أمامي لكتابة ما أريد . لايد للأدب من هذا « الفراغ » أو هذا « التفريغ » . وذلك هو نفس الشعور الذي خبرته من قبل ، بعد أن انتهيت من كتابة « الوجود والعلم » .

استطيع اذن ان اطلق قلبي ، الذي تخفف من عبء ثقيل ، ولن أرجع الى موزاين الفلسفة الا فيما بيني وبين نفسي .

● معنى ذلك بين الافكار الفلسفية هي السابقة لديك .

— السابق عندي دائما هو ما لم اكتبه بعد ، هو ما ارمي الى كتابته غدا او بعد غد ، ولعل لا اكتبه ابدا .

ولما كان تقدم العقل في دراسة المسائل الفكرية يقتضي بطبيعة الحال وقتا طويلا ، فان الفلسفة هي التي تستغرقني أولا . ولكنها لا تستغرقني دائما . عندما كتبت مسرحيتي القصيرة « Huis clos » جلسة سرية ، كنت قد فرغت من كتاب « الوجود والعلم » ، او على الأقل كان تحت الطبع . ولم اجعل من أبطال المسرحية ومواقفهم رموزا فلسفية ، لما كنت أرغب في تكرار ما قلته عن « الوجود والعلم » ، وما جدوى التكرار ؟ بكل بساطة ، كنت أبتدع قصصا بخيال وعاطفة وفكر سبق أن جمعتها وأدمجتها وركبها على نحو معين تصور ثم تأليف كتاب « الوجود والإصم » . ويطحن النظارة الذين يشهدون تلك المسرحية ان فيها سرا ينبغي أن يفهموه ، في حين انها لا تحتوي على أي سر .

● الكسب بلقاء غير متمثل في الغلط

بين الفلسفة والفن ؟

— هذا ما أحاول أن أتجنبه . عندما ينشأ الأدباء أعمالا غير فلسفية ، وهو يجتري أفكارا فلسفية — كما فعلت منذ عشر سنوات — تتعرض كل صفحة للإصابة بنقطة ضعف أشبه بالفتق في الجسم . ولقد حرصت في الأيام الأخيرة — كلما أحسست بالفتق تحت قلبي — على أن أتوقف عن الكتابة . ولهذا تبطل كتبي وتنتظر . انا طبعيا اتنى أن أنجزها . وأتنى كذلك أن لاكتب غيرها .

● ترى ومالا يراودك سواها ؟

لأنها متعددة !

— يراودني أن أقول « الحقيقة » . وهذا هو حلم كل كاتب يدنو من الشيخوخة . فانه يظن أنه لم يقل الحقيقة ابدا ، مع أنه لم يمسك عن المجاهرة بها . اعنى أنه يجب في هذا

الطور أن يتولى سرد الحقيقة بمحض إرادته ، وأن يقدم على ذلك بدافع أصيل ، لا أن ينزل على رغبة جمهور معين أو يلبي طلب ناشر معين ، كما كان شأنه في انتاجه السابق . انى اعترف بأن كل ما نشرته كان من ادب المناسبات — لا المناسبات التي تفر منها الدولة بل التي تنشأ من انتمائي لبيئة سياسية خاصة ، وميزة الكتابة حسب الطلب أنها تحدد لون القراء من ناحية ، وترغم الأديب من ناحية أخرى على الا يفضل جانبا من ملكاته على جانب آخر .

وأضرب مثلا بكتابي عن الجدلية : ان قصته ترجع الى أن مجلة بولندية سالتني أن اكتب لها مقالة عن الوجودية ، فكتبت المقالة المطلوبة ، ثم عاجلتها من جديد ليطلبها قراء مجلتي «العصور الحديثة » . ولما راجعتها لاحظت ان أساسا فكريا ينقصها ، اذ كان ينبغي أولا أن أتبين مدى صلاحية الجدلية . وهكذا انصرفت الى تأليف ذلك الكتاب الضخم .

● وهل كنت في حاجة الى الكتابة

عن الجدلية حتى تتمكن من التحدث في « لغوي » ؟

— نعم ، ربما لئلا انسى لم أستطع أن أمتنع عن ذكره في مقالتي البولندية ، كما انى عدت الى اقتباس فقرات طويلة منه في سياق كتابي عن الجدلية .

● وعله الطريقة في التأليف ، هي

خاصة بك ام هي ظاهرة عامة لدى جميع الكتاب ؟

— أظن أن مرد ذلك الى وضع الفلاسفة في هذا العصر واهتماماتهم الحالية . فلقد تغير كل شيء : مع « هيجل » اقتصر التاريخ الفلسفة اقتحام المأساة ، ومع « كيركجارد » دخلت الترجمة الذاتية وكأنها المهزلة أو الدراما . فيما مضى كان « ديكارت » يبحث عن القواعد الكلية بتوجيه العقل ، فنشأ منهج عقل في نظرية المعرفة وفي علم الاخلاق . وصحيح ان الفلسفة الديكارتية قد عبرت عن العقلية الكلاسيكية وصاغتها ، ولكن مهما كانت العلاقات بين هذه الفلسفة وبين التراجيديا ،

فمن الواضح أن التراجيديا لا تعبر تعبيراً مباشراً عن مضمون ذلك المذهب التعميمي .

● وأما اليوم ؟ ...

— أما اليوم فإظن أن الفلسفة قد أصبحت درامية . لم يعد الأمر أمر تأمل لسكون كل جوهر وماهيته ، ولا هو محاولة الاعتداء إلى قواعد لتتالي الظواهر ، وإنما الأمر أمر الإنسان الذي ينتج مسرحية حياته ويمثلها بأن يعيش متناقضات وضعه حتى تنحطم شخصيته أو يصل إلى حل لما يتنازعه . والمسرح — درامياً كان ، أو ملحيمياً كـمسرح بريخت — هو أصلح الأشكال في عصرنا لتقديم الإنسان خلال الفعل . فهذا هو حال الإنسان الذي تهتم به الفلسفة من وجهة نظر أخرى . لذا كان المسرح فلسفياً ، وكانت الفلسفة درامية .

● إذا أصبحت الفلسفة مسرحاً كما

تقول ، فلماذا لم تقتصر في أعمالك على تأليف كتب فلسفية ؟

— لقد أردت أن أكتب قصصاً ومسرحيات قبل أن أعرف ما هي الفلسفة . بوقتاً طويلاً جداً . وسأظل أؤرغب في كتابة القصص والمسرحيات ما حييت .

● بالنسبة إليك لا بد أن يكون

الأدب ملتزماً دائماً . فما هي حدود الالتزام ؟

— إذا لم يكن الأدب كلاً بتمامه ، فإنه أدب لا يستحق منا عناية واحدة . هذا ما أعنيه بالالتزام . أن الأدب سرعان ما يجب إذا اقتصر على البراعة والتفنن بالألوهام . وإذا لم يتردد صدى العبارة المكتوبة على جميع مستويات الإنسان والمجتمع ، فهي عبارة خاوية لا معنى لها . أن أدب عصر من العصور ، هو ذلك العصر وقد استحال أدباً .

● لقد اتهمتك خصومك بأنك

لا تحترم الأدب ، ولا تأخذ ماغند الجد ، وإنما تريد أن تجعله تابعا للمسافة . فما رأيك في هذا الاتهام ؟

— كان آخرون بهم أن يتهمونى بأنى أسرف في تبجيل الأدب . فجمال الأدب في نظرى

هو أن يكون كلاً ، لا فى أن يلتبس الجمال التماساً عقيماً . فالكل التام وحده هو الذى يمكن أن يتصف بالجمال . والذين لم يفهموا عنى هذا ، عمدوا إلى مهاجمتى لا باسم الفن كما يزعمون ، بل باسم التزام معين لا يعترفون به .

● وهل يوجد بين أدباء اليوم من

يطبقون أدباء ، أى يصلون من أجل مزيد من الحرية في التزام كامل ؟ من هم الكتاب المعاصرون الذين تعبرهم اهتمامك ؟

— هناك أدباء موهوبون بارعون ، مثل « ميشيل بوتور » و « سامويل بيكيت » . وتجذبنى أيضاً أعمال « روب جرييه » و « ناتالى ساروت » . ولكن إذا نظرنا إلى أعمالهم جميعاً من ناحية الشمول ، أستطيع أن أقول أن واحداً منهم فقط تمكن من صياغة المشكلة بوضوح ووفى مقتضيات العمل الأدبى من حيث هو كل . وأعنى به « ميشيل بوتور » . أما الآخرون فلا يسعون إلى الكل فى أبحاثهم .

● هل تلومهم على أنهم محدودو

مجالات تجاربهم ؟

— كلا ! ألومهم لو أنهم ادعوا أنه لا توجد موضوعات أخرى سوى موضوعات أبحاثهم . والحق أن لكل تجربة قيمتها . ومن تجاربنا المختلفة ، المنفصلة ، يتألف واقع الأدب بجملة .

● وماذا عن خبرتك الخاصة بالأدب

واشتغالك بالكتابة ؟ هل حققت ماكنت توجوه من استغلال القلم ؟ هل أنت واهى وتفلسفى ، أم تأسف للأمال خابت ؟

— لم تخب آمالى أبداً . فيما يختص بعملى ، جرت الأمور دائماً على وجه حسن . لقد انصرفت عن بعض الكتب التى بدأتها لأنى لم أعرف كيف أستكملها ، ونشرت كتباً غيرها كنت أتوسم فيها الجودة ، ولكنها لم تحظ برضا النقاد ، وتبين لى أحياناً أننى أخطأت وأن النقاد أصابوا . على أن هذا كله من مقتضيات المهنة

ولأى مهنة أحكامها التي لا تناسب هوى أصحابها .

الذي أريد أن أقوله هو أن الاشتغال بالكتابة في حد ذاته لا يمكن أن يطوى على خيبة أمل . وقد يبدو لك أنني أخلط في الكلام ، ولكن لهذا شرعا طويلا ، موجزه أن النجاح في مجال التعبير هو الفشل لا محالة .

لست أتحدث عن ألوان اللمس وسوء التفاهم التي تفسر رواج كتب الأذى الأرستقراطيين في أقرن الماضي ، وإنما أتحدث عن النجاح في الأداء ، النجاح التكنيكي . هذا نجاح لا سبيل إليه ، فكيف . مثلا . يصير المرء عن الحركة بما هو جامد أي بالفاظ ثابتة ؟ إن هناك هزائم صغيرة من هذا القبيل ، لا تليث أن تتكاثر وتتكس حتى تسد الطريق على الكاتب وتمنعه من التقدم . وفي تلك اللحظة - كما يقول صديقي الفنان « جيا كومي » - يستطيع المرء أن يرمى التمثال الذي بعته ، وإن يعرضه على الجمهور . فلقد خرج الأمر من يد النحات أو الكاتب ، وأصبح بين يديه تمثال أو كتاب أو مقلوب التمثال المقصود بالكتاب المقصود . وإذا كانت الهزائم الفنية التي يسجلها العمل هي الصورة السلبية - بشكل منهجي - للأصل المنشود ، فإن المشاهد هو الذي ينجح التمثال في الفضاء عندما ينظر إليه ، وإن الفاري هو الذي يصنع الكتاب حين يطالع ما بين أسطور .

● هذا رأي عميق ، يلقي بنا إلى الحديث عن الجمهور . فهاهي غلاتك بالجمهور ؟ وكيف تطورت ؟ لا بد أن للجمهور آثرا دائما في أعمالك عادت تعرف للفناني بهذا الدور في حياة الكاتب .

- ما أشد ارتباط الكاتب بعصره ! إن المجتمع القومي الذي نعيش فيه اليوم لا يدع للاديب أن يتفرد بقصة شخصية ، وإنما سيرة الأديب هي سيرة جمهوره . أذكر - ونحن في شبابتنا - أنني قررت مع سيمون دي بوفوار ، بعد التفكير مليا في عطلة قادمة ، أن

نسافر إلى الجبل كي نمارس رياضة الانزلاق على الجليد . وادعشنا أن نجد في المحطة جميع أساتذة المدارس الثانوية بباريس يتأهبون مثلنا لركوب نفس القطار ! معنى ذلك أنني لن أعبر عما أحس به ، ما لم أتأكد من أن الناس جميعا يحسون به . إذن عندما أكتب ، أود أن أقول ما أشعر به كسائر الناس .

● من أي اللغات يتألف جمهورك ؟

- من الطلبة ، والأساتذة ، وهواة المطالعة الجادة . وأولئك جميعا يؤلفون دائرة صغيرة جدا . وليست العبرة بعدد النسخ التي يطبعها الناشرون . فالجمهور دائما هو هو ، لا بالنسبة لي فقط ، بل بالنسبة لكل المصابين بداء الكتابة .

● الصحفيون يذهبون مذهبا غريبا : يستعرضون أعداد النسخ المطبوعة ، ويستنبطون متوسط التوزيع ، ويقارنون بين ما يرد في دوائج إحصائيات ناسدة الأسس ، وأخيرا يطقون أحكامهم تقديرية . أنهم يخلطون بين معنى توزيع جرائدهم ومعنى توزيع كتاب من الكتب . ومعنى توزيع الكتاب قد يصديق - على هذا النحو - في البلاد التي تنوّل فيها أدلة أمر النشر ، كالاتحاد السوفيتي ، لأن الجمهور هناك إذا طلب طبعة جديدة من أعمال « زولا » مثلا فهو في حاجة فصيلا إلى قراءة « زولا » . أما في بلاد الرأسمالية الحرة والمشروعات الخاصة ، فلا معنى للأرقام . وإلى رابطة بين هذه السيدة الأنيقة المترفة التي رأيتهما أخيرا في أحد المطاعم الفخمة تقلب صفحات قصة « آخر الأبرار » ، وبين هذه القصة التي حاول فيها مؤلفها « شوارتز بارت » أن ينقذ الموتى الذين قتلناه ؟

إن تلك السيدة المتنعة ذات الوجه الجامد الشبي ليست حقا من قراء ذلك الكتاب !

● ولكنك لم تجب عن سؤال اجابة
واقية . هل تشعر شخصيا بالتجراح
ام بالقتل ؟ هل يمكنك ان تقول ان
اشياء معينة قد تغيرت بسبب ما كتبت؟

— لم يتغير شيء واحد . على العكس ، منذ
شبابي الى الآن قمت بتجربة المعجز الكامل .
ولكن ليس لهذا أهمية قط . في أول عهدي
بالآداب ، أنشأت كتباً لا تواجه المشكلات
الاجتماعية بصورة مباشرة ، ثم كان احتلال
المانيا لفرنسا ، فبدأنا نفكر في وجوب العمل .
وبعد الحرب ، رأينا أيضا أن الكتب والمفالات
قد تنفع الناس وقد تؤدي الى اصلاح الأمور .
غير أنها لم تنفع ولم تصلح شيئا ، ثم خطر
لنا — أو خطر لي على الأقل — أن الكتب التي
تحمل أفكارا مدروسة ، ولا تدور حول الاحداث
القائمة على وجه التحديد ، من شأنها — مع
الزمن — أن تعين الناس وأن تنتهي الى تبديل
الحال بيد أن هذا أيضا لم تكن منه أي
جدوى ، فما هكذا يؤثر المرء في الناس ، وإنما
كانت النتيجة أن يرد على بعض الشباب آرائي
مشوهة ليصفقوني بها (وهم على حق ، فقد
كنت أفعل مثلهم) .

● ومع ذلك فليس جميع الذين
الرت فيهم قد تحولوا الى الهجوم
عليك ! ألم يفكر المرء أبدا وانت
تتصرف لنفسك في جماعة منهم ؟

— طبعا . ولكن أرجو أن تهتمسي : فلنكن
يستأثروا بتقديرى ، ينبغي أن يفعلوا شيئا
لم أفعله أنا . وما دمت على قيد الحياة ، فلا
بد أن يكون ذلك معارضا لما أعمله . ان الذي
يخضع سلبيا للتأثير ، لا يستحق التقدير .
ولو تعرفت نفسي فعلا في شخص ما ، لأنار
سخطي : اذا ما باله بعيد ما سبق لي أن صنعته؟
أما اذا أعجبني كاتب (أو قارئ شاب ممن
لا يكتبون) ، فذلك لأنه يحيرني قليلا في
بادئ الأمر ، ولا بأس أن أكتشف فيما بعد
وراء الجديد الذي راعى صورة قديمة لنفسى ،
ممسوخة أو باهتة .

جملة القول أن شرف القراءة في أن يتأثر
القارئ تأثرا حرا . وهذا يكفي لمحو أسطورة

سلبيته ، فهو يبتكرنا ابتكارا وينصب لنفسه
من خلال كلماتنا شراكه الخاصة . انه نشيط ،
انه يتجاوزنا ، ونحن نكتب لهذا الغرض .
لذلك لم أشعر أبدا بخيبة أمل في مزاوله مهنتي
— مهنة الآداب .

● أي انك ترى ان تأثير الكاتب
حافظ لأصالة القارئ ، اما زلت ترى ان
الانسان يشكل عصره ؟

— ان التأنيخ يصنع الانسان والانسانيات
يصنع التاريخ .

● هل تقصد أننا مسئولون عن
الاتجاه الذي يتخذه التاريخ في سره ؟

— أقصد أننا مسئولون عن اتجاه التاريخ
من ناحية ، متواطئون معه من ناحية أخرى .

● فما لائحة الآداب ؟ انك تتور
على نزعة العنف والوحشية التي اشتدت
في تاريخنا المعاصر ، لم اعترف بمعجز
الآداب عن الإصلاح . فلماذا تواصل
الكتابة ؟ وما الدور الذي تسمسه
للآداب في هذا الحال ؟

— إن الأسبان يعيش وسط ما يعيق به
من الصور . ولألا يقم له صورة نقدية من
نفسه .

● أي ان الآداب مرآة ؟

— مرآة ناقدة . انه يظهر ، ويدلل ، ويمثل
وهذا هو الالتزام . وبعد ذلك ، ينظر الناس
الى صورهم ويفعلون ما يشاءون .

● أليست مهنة الآداب على هذا
النحو مهنة غريبة ؟ لأنها تقتضي — بلا
شك — طاقة عظيمة ، ولكنها تنطوي
أيضا على نوع من الضعف !

— لقد اخترت الآداب شخصيا لمواجهة الموت
ولأننى كنت قد فقدت الإيمان بالله . . منذ
صباي كإن الموت يخيفني جدا . والمؤمنسون
يلوذون بفكرة الخلود ، أما أنا فقد صبيت في
ميل الى الكتابة رغبتى في الخلود — في خلود
أدبى طبعا . ولقد انصرفت عن فكرة الخلود

سطحي مثل ، سولي برودم
Sully Prudhomme
ولم يفز بها شاعرنا العظيم « مالارمي » !

● علوا ! هتمة مخالطة • ثاني
الذي ان « مالارمي » قد توفي عام
١٨٩٨ ، أي أنه لم يكن حيا عندما
أعطيت جائزة نوبل سنة ١٩٠١ لسولي
برودم !

— لا بأس ! هناك أمثلة أخرى كثيرة لشعراء
كبار أخطأهم جائزة نوبل • وحسبي أن هذه
الجائزة قد منحها أصحابها لباسترتناك قبيل
شولوخوف ، فكان الأثر السوفيتي الوحيد
الذي توجته • منذ انشائها حتى عام ١٩٦٦ —
كتاب مطبوع خارج روسيا ومنسوع تداوله
داخلها • ولو أن هذه الجائزة جاءتني ألكسا
حملتي للدفاع عن حق الجزائر في الاستقلال ،
لكننت قبلتها شاكرا ، لأنها ما كانت لتكرمني
وحدي ، بل تؤيد قضية الحرية التي كنا نناضل
من أجلها •

● انك تنظر الى جائزة ادبية من
زاوية السياسة !

— أجل ، أي أشح في الاعتبار أن لجائزة
نوبل طابعا سياسيا • ولو قبلتها لانصبت الى
ممسكر أصحابها • على أن الأمر يختلف إذ
كنت عضوا في حزب معين ، كالحزب الشيوعي
مثلا فقد كانت في هذه الحال مستعبر ممنوحة
للحزب لا لشخصي • أما وأنا رجل منعزل عن
الأحزاب ، فلا سبيل لي أن أقبل جائزة دون
أن أفقد استقلالتي •

● ما دعت تعيل الى الاشتراكية ،
فهل تقبل جائزة « لينين » لو أراد
الروس مهادتها اليك ؟

— كلا ، ولنفس السبب • اني أرفض أي
تكريم يصدر عن القيادات الثقافية ، في الشرق
أو في الغرب على السواء • أنا أدرك أن مواجهة
كتلة لأخرى لا بد أن تتخذ صورة النزاع بينهما
ولكن هذا النزاع ينبغي أن يدور بين الثقافتين
أي بين الأفراد لا بين المنظمات • اني أحس
احساسا عميقا بالتناقضات بين الثقافتين ، بل

الأدبي فيما بعد ، إلا أنها كانت بلا شك محط
آمال في البداية •

ان المسيحي المؤمن لا يخشى الموت ، إذ
يجب عليه أن يموت لكي يبدأ الحياة الحقيقية ،
وما الحياة الأرضية بالنسبة اليه سوى فترة محن
وتجارب تؤهله للمجد السماوي • وهذا يفترض
واجبات محددة ، وسلوكا معيناً • لقد أخذت
هذا كله وطبقته في عالم الادب ، بحيث أظل
زاهدا مغفورا طول عمري كي أنال الحياة
الأبدية بمثابة على الكتابة وأخلاص لمهنتي ،
وهكذا أدخل المجد يوم وفاتي • ودارت في
ضميري معارك خطيرة : أيني أن أحيط بكل
شيء علما حتى أتمكن من الكتابة عن كل شيء ؟
أم ينبغي أن أعيش عيش الراهب لكي أقت
وقتي بأكمله على تجويد عباراتي وصقلها ؟ على
أي حال ، كانت المسألة المطروحة هي مسألة
الغاية الكلية • وكانت الحياة الأدبية في خيالي
رسما منقولاً عن صورة الحياة الدينية •

وظللت لا أدرك ذلك حتى بلغت خمس
الأربعين ، ولم يكن لجلي من سبب سوى أنني
لم أسأل نفسي قط عن الدوافع التي تدفعني
الى الكتابة • كنت أجادل في كل شيء وأنا نفسي
كل شيء ، ما عدا مهنتي • وذات يوم ، رحبت
أكتب خواطر عن الأخلاق ، وإذا بي لاحظ
أنني كاتب يصوغ نظرية أخلاقية للكتاب ، وهو
يزعم أنه يتحدث الى من لا يكتفون ! وهذا
ما أرغمني على البحث عن مصدر ذلك المنهج
الغريب في طيات الطفولة ...

والحق أن في الاستجارة بالأدب من الموت
ضعفا • والأدب الذي تتقدم سنه ، ويدنو
أجله ، لا يكاد يرى في المجد الأدبي معنى
أو امتدادا لحياته • فكلما ازدادت واقعية الموت
ازداد زيف المجد في أعيننا وأصبح مجرد
خداع •

● هذه هي حكمة التواضع الانساني
وانها تتروعا من ادب حاز اكبر
جائزة عليا - جائزة نوبل - ثم رفض
ان يتسلمها !

— هل تظنين أن في جائزة نوبل تشريفا
حقا للأدب الفرنسي ؟ فلقد منحت لشمسعر

الأنيق معادلا للكفاح السياسي إذ يبين به الأديب لقومه إمكانيات اللغة التي تربطهم في اللحظة الحاسمة التي يتقرر فيها مصير وحدة الأمة . ولكن هذه الفرص لم تعد تسمح لنا . وأخشى أن تقل اليوم وتندثر تلك الحوافز التي كانت تدفع الناس نحو الأدب .

● هل ترى أن الناس ظل رغبة في الكتابة معا كانوا ؟

— انهم يرغبون في الكتابة ، دون أدنى شك . ولكن : هل يرغبون في التفرغ للكتابة ويريدون الا يفعلوا شيئا غير الكتابة ؟ لعل الأدب ينبع في المستقبل عند أي شخص يتناول القلم ، ثم يخفى ليظهر عند جاره ، وعلى هذا النحو ينتهي وجود الأدباء ، ولا تصادف الا أناسا عاديين ، يكتبون من حين لآخر ، الى جانب ما يراولون من نشاط ، اذ ذاك يصبح الأدب مصدر ، يصبح استجابة مباشرة للحاجة الى الكتابة التي يشعر بها الجميع ولكنهم يهابون أن يلجوها وينزلون عنها للأدباء . وكأننا نحرر صخرة مخيرة ، لدينا تفويض خاص بمقتضاها نكتب دون سوانا . وهذه أذنوية ، تشغل في نفوس الناس بفعل الطباعة والصحافة . والحق أن الناس يقرأون لأنهم يريدون أن يكتبوا . وما القراءة الا محاولة لاعادة كتابة ما نقرأه .

ذلك أن الناس يكتشفون أنهم في حاجة الى التعبير عن حياتهم . أثناء الفترة التي قضيتها في الأسر ، عرفت فتى كان طفلا لقيطا ونشأ تربية المتشردين ، ثم جند لما قامت الحرب . وتلقى — وهو في الجيش — رسائل تخبره بأن زوجته تخونه ، فاستأذن من قائده ورحل ومعه بندقيته الى بلدته ، وهناك وجد زوجته في أحضان عشيقها ، فقتلها وعاد وسلم نفسه للميليس الحربي واعترف بجريمته وحسن حظه استولى الألمان في مايو سنة ١٩٤٠ على السجن الذي حبسه فيه الجيش الفرنسي تمهيدا لمحاكمته ، وأخرجوه منه واقتادوه الى أحد معسكرات الاعتقال في ألمانيا ، حيث لم تعد جريمته تقع تحت طائلة القانون والعقاب وكنا — نحن زملاؤه — نعرف قصته . ولكن

اني من صنع هذه المتناقضات : فعلى الرغم من بشائي في أسرة بورجوازية وبيئة رأسمالية ، تجتذبنني الاشتراكية التي هي منهج الكتلة الشرقية ، مما يتيح لي في نهاية المطاف أن أتعاون مع جميع من يفضلون الاقتباس من الثقافتين معا ، بدلا من الانحياز الفكري .

● هذا أنسب مواقف ينفذ الفكر التزيه في عصر التمايش السلبي . ولكن بعض الصحف قالت أنك ولغت جائزة نوبل لأسباب شخصية ، كغيبك لأنها منحت لكافي قبل أن تمنح لك . او خوفك من أن تصيب الفقرة سيمون دي بولوار ؟

— لي على هذه المزاعم الصغيرة جواب بسيط وهو : لو كانت لنا في فرنسا حكومة جبهة شعبية كما أتمني ، وشرفتني تلك الحكومة بجائزة ، فقد كنت ساقبلها بسرور . وعلى الكاتب الحر أن ينتبه دائما الى معنى أى تكريم رسمي يوجه اليه ، وأن يحذر الوقوع فيما يحرجه . لقد سبق أن رفضت عقب الحسب وسام جوقة الشرف ، مع أن بعض الزعماء في ذلك العهد كانوا من أصدقائي ، ورفضت بقليل منصب الاستاذية في الكوليج دي فرانس ، انما على الكاتب الذي يتخذ موقفا سياسيا او اجتماعيا أو ادبيا الا يستعين بغير السلاح الوحيد الذي خلق له ، أعني بالكلمة المكتوبة . وأن يابى كل تكريم رسمي يشل فيه نوع من الضغط على القراء .

● قلت منذ لحظات ان الأدب قد حل عندك محل الدين ، وأنتك صحت لنفسك هذه الفكرة القديمة حينما بلغت سن الأربعين . فما هو قدر الأدب او ما هي وظيفته لديك الآن ؟

— اكرر ما ذكرته من أن عمل الكاتب المترم هو أن يعرض ويبين ويدلل ، وأن يسدد الأوهام والمخطورات والأساطير بأخضاعها للنقد . وقد يتاح لغيره أن يتكروا من خلال ما كشفه أساطير أخرى جديدة أو ربما — كما حدث لب « بوشكين » أو في العصر الإليزابيثي — ربما أصبح الأسلوب الفني

● إذا كانت الكتابة تلبية لحاجة
فى نفس الكاتب ، فإن المرء يحقق
غاياته من التعبير بغيره . ولا شأن
له بمطابقة القراء . هل تصور كتابا
يؤذى غرضه بدون قارى ؟

— لا بد من القارىء ، لا بد للصرخه
المكتوبة — على حد تعبير جان كوكتو — من
ذاكرات تحفظها وتدمجها بالعقلية الموضوعية،

● هل يعنى لى أن اللهم من حديثك
هذا أن الأدب فى رأيك ليست لقيمة
مطلقة ؟

— لقد انقضت أوهامى فيما يتعلق بالأدب:
واليوم أعلم أن الأدب لا يستطيع أن يمنح
الخلاص لإنسان ، أو أن يغير الناس مجرد
تغيير الألفى حالات خاصة جدا . كلا ، ليست
للأدب قيمة مطلقة ، وإنما يواصل الأديب
الكتابة ، لأنه وضع كل ما يملكه فى الكتابة
• يحيا نواصل العيش مع أشخاص لا نحرص
على عشرتهم ، ونحرص عليهم من ناحية أخرى
لأنهم أحلنا وأفراد عائلتنا •

ولكنى أوقن فى وساطل أوقن — بأن الكتابة
حاجة لازمة لكل إنسان • وهى أرقى أشكال
الحاجة الى التواصل •

ذلك لم يكن يكفيه : كان يحس أنه قد سلب
حقه ، فهو يريد أن يعيش مأساته العاطفية ،
ولا يرضى بأن يدعها للحداد المساكين الذى
يحولها شيئا فشمسيتها الى مجرد ذكرى عابرة
لا تكاد تمس • ماذا يفعل ؟ خطر له أن يكتب
قصته • وكتبها ، أى اخترعها ، لكن يمتلكها
بأنه وضوح ، ولكن يمتلكه فى الوقت ذاته ،
وتقيم فى داخله ، وتثبت فى صورة موضوعية

● وهل تعتبر مثل هذه القصة
عملا ادبيا ؟

— لقد قرأت تلك القصة ، وكانت رديته
جدا • على كل حال عندما يهم المرء بالكتابة،
تبدأ المشاكل • وقد شرح « بلانزو » شرحا
رائعا كيف تؤدي رغبة الإنسان الأولى هي أن
يقول كل شيء ، وأن يفصح عن كل شيء الى
نقيض ما يقصده ، فانها تفضى به الى أن يحجب
الأمر عن نفسه تماما • أن أطوار الشعور
والسلوك متشعبة غامضة ، مختلطة • وهناك
من ردود الفعل الداخلية ما يقف نموها ،
أو ما يسد طريقها الأصل • هناك آفات كثيرة،
وتصدعات ، وعوائق • لذا لا يعيش الإنسان
مأساته بإدراك المأساة ، ولا ليبلغ اللغة بحيث
ينصرف الى اللغة •





الفنان الشورى حسان الشورى

فنان الثورة..

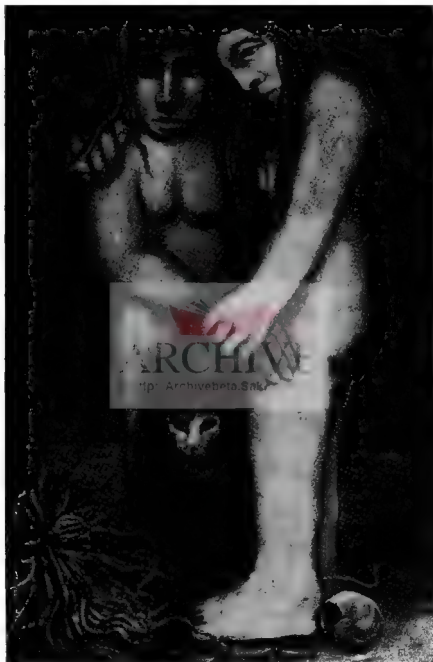
بقلم : حسين يوسف أمين

- لم يقبل هذا الفنان الشائر أن يكون مهادئاً في فنه
- لم يقبل أن تسود حياتنا الفنية والثقافية التبعية ومركب النقص

ان هذا الفنان الشاسب قد افتقدناه بل افتقدته مصر والامة العربية في الوقت الذي كنا فيه احوج ما تكون اليه . طواه الموت بعد رحلة قصيرة من العمر ولكنها رحلة طويلة شاققة حافلة بالجهاد صارع خلالها بشجاعة تيارات الرجعية وللخلاص من آلال التبعية ومركب النقص الذي كان يسود حياتنا في العهد الماضي .

ولكنها كانت ايضا رحلة طويلة غنية مليئة باعظم مجهود فنى ثورى فيما بعد الثورة التي كرمته قبل مماته بقليل فتمنحه جائزة الدولة التشجيعية تقديرا لنبوغه وعرفانا بفضله وكفاحه في سبيل تطوير الفن وجعله في خدمة المجتمع . ولما قدمه من انتاج فنى ضخم فريد في قيمته واسلوبه رائع وصادق في جميع اعماله ولوحاته معبرا فيها عن آمال الشعب ونضاله .

ان ليام الهيئات الفنية والكليات والمتاحف والمعارض والصحافة الآن بواجب الوفاء لهذا الفنان بمناسبة مرور العام على وفاته مهما بلغ مناه ، وتغليد وتكريم ذكره مهما بلغ اقصاد ، ليعجز عن أن يوفيه حقّه من التقدير .



فى عصر ما قبل الثورة كانت الفنون التشكيلية فى مصر تظهر من خلف اطار مرسوم بالشكل الذى كانت ترتضيه طبقة البرجوازيين ومعظمها من الاقطاعيين مما جعل الانتاج الفنى فى هذا الوقت يسير فى مظله وفق مواهب متاثرا بكل ما هو اجنبى بعيد عن التراث .
لولا أن مجموعة من فناني الرعييل الاول استطاعوا بوحى من فطرتهم السليبية وبالرغم مما كانت تفرضه عليهم هذه الطبقة من حصار ايدولوجى ممين أن يتخلصوا أحيانا من هذا الاطار المعقد وأن يحققوا أعمالا هى موضع التقدير .

ومع هذا فغالبا ما كان يسود هذه الفترة فن آخر . . . كان فنا ناعسا للسلعة فقط - للبهجة والتفاخر والزينة - لا يعيش الا فى التصور . كان فنا مهادنا يتلالم مع عواطف ومشاعر بل ومصالح هذه الطبقة من الترفين يعكس دنياهم ويخفى من وراء هذا الاطسار نزعاتهم ورغباتهم وميولهم الخاصة . كان فنا لينا سهلا لا يعبر عن حقيقة واقعا حتى ولا ترائنا . كان فنا بعيدا عن الجماهير وعن الطبقات الكادحة والمناضلة لا يتعامل مع أحاسيسها ولا مع البيئة وأماها القومية ولا مع الأحداث .

وبالجملة فقد كان فنا خاليا من هدف بناء أو مثالية رقيقة تتفق مع جوهر الحياة وتطورها وتعبير عن رأى أو تكشف عن رؤيا جديدة تنفع الناس .

نتيجة لذلك فقد الفن فى هذا الوقت أهم مميزات مقوماته - الحرية والخلق والابداع - فمجز عن التعبير بعمق عن طابع الشخصية المصرية الصميمة ، وعجز عن الكشف عما تطويه فى داخلها من أصالة بالاسلوب الطلى والشعور الواعى المثقف وما يتمشى مع فهم طبيعة الاشياء وبالشكل الذى يتفق مع تطورات عصرنا الحديث .

فى ذلك الوقت مسنة ١٩٣٨ بدأ الجزار مرحلته الأولى التحضيرية والتي بدأت مع قيام حركات هامة تقديمية ساعدت على بلورة استعداده وإبراز مواهبه وشخصيته فاستفاد من تعاليم مدارس علم النفس والتربية الفنية التى كان لها أكبر الأثر على الحركة الفنية

المصرية المعاصرة ، وعاونت على أسس علمية متعددة الجوانب فى فهم وتطوير العمل الفنى . هذه المدرسة التى نادى بها وعمل على نشرها فى القاعدة الشعبية بذكائهما الفنى أحمد شفيق زاهر ومحمد عبد الهادى . وكان لها الفضل فى انشاء المعهد العالى للتربية الفنية بمعاونة يوسف العفيفى الذى عهد اليه مع آخرين بالتوجيه الفنى والتربوى فى هذا المعهد . فى هذه المرحلة الهامة من تاريخ الجزار والتي بدأها سنة ١٩٣٨ واستمرت الى عام ١٩٤٦ ظهرت مميزات شخصيته كفنان وسجل فيها أدوع الاحاسيس الفنية .

وكانت عن الكون والانسان . كيف نشأ وكيف عاش فى هذا الوجود على مر العصور مع الطبيعة المجردة فأخرج أعمالا فنية نادرة كانت موضع الدهشة فى الأوساط الفنية فى مصر والخارج بل ومحل إعجاب وانبهار وتقدير النقاد العالميين فى الفن أمثال: فيليب دارشكوت بلجيكا . وللهلم فيولا . بالنمسا . وميريل فى فرنسا . وراسل وريد فى انجلترا .

وأخيرا سارتر الذى أبدى إعجابه واتكباره بأعماله عندما زار ممرض الفن الحديث والمتج فى الفنانين العرب أثناء زيارته الأخيرة لمصر مع سيمون دى بلوار .

وكانت أهم لوحاته فى هذه المرحلة . آدم وحواء . الانسان والقرقرة . الكهف والرجل البدائي . الكائنات والأرض . وقد عرضت هذه الأعمال فى المعرض الاول لجماعة الفن المعاصر التى تكونت مع رفاقه مسنة ١٩٤٦ وأصدروا بيانهم الاول جاء فيه : -

البيان الأول

تفاوتت قيمة العمل الفنى بقدر ما تختلف نسبة امتزاج الفكر والاحساس ما . والفنان بعيد عن كل القيم التى يامل الوصول اليها ما لم يظ فى نفسه الفيلسوف . وهو ذلك بعيد عن روح عصره ما دام يسجن نفسه مع القيم الشكلية أو الأوضاع الجمالية المجردة التى تنطوى على نفسها فتطوى معها الفنان فى جسدوها الأبدى أو إبراجها الطاغية العودة . فالفكر الذى ثبت لنا لفظا انه يسلك طريق التطور الانهائى هو الذى يلقى الاحساس الفنى ليطلقه بقاء العصر . والاحساس الجرد ثابت فى كل العصور المتتالية أما المستوى الفكرى فهو دائما متغير ولذا نلطف تقيدا فى فنون تلك العصور . فمن سحر الفموى فى الفن القصرى أو البدائي الى روحانية الفن



الإنسان والواقع عام ١٩٤٢ .
 جبر شبى على ورق مصور
 فيها النساء مرابا خارج ملابسهم
 وخارج الفسوق الى بعضهم

لظهور . خلق فم جديد نحل محل التسيج الفكري
 الكامن وراء ظم الناس لطبعه وعلائقهم فيها على اساس
 صريح

و صبح من هذا السبيل حروجه م
 يعلوا أن تنساب عقولهم ومشاعرهم بوية من
 سويات مركب النقص أمام ييارات بعض
 المذاهب المعكرة الواودة من الخارج التي كانت
 مسهوى أحيانا بعض المثقفين . وتشدهم اليها
 بل وقفوا منها موقفا آخر يخدم أغراضا تقديمية
 حاصلة من نوايا الفلسفات المضارعة التي
 ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية . موقفا
 راعيا يخدم حياتنا القومية ويخرجها من حالة

الغري أو الصيتي . الى مادة الفكر في الفن الامريعي .
 ثم الخلاط الامرين - الفلسفة المسححة والزعة المادية -
 عن الفنان الكلاسيكي ، واخبروا غزو الطبقة وسطره العلم
 والوعي بالادواع الاجتماعية وبمبدأ ارتباط الفن بالحياة .
 كل هذه العوامل كانت لها علاقة كبيرة بالفن لا يمكن
 انكارها سواء اعتبرناها نتيجة لحالات نفسية صرفة . او
 بتابع ينهل منها الانتاج الفني لغذاء . وفي كلتا الحالتين
 فان الفن المعاصر وفي مضمونه السرياليزم . ياتي في درجة
 تكامله الا أن يقف جنبنا الى جنب مع الفكر الحديث .
 وهو يهدف الى عكس ما يرمي اليه الفنون السطحية التي
 تتجاهل سر الحياة وسر علاقتنا فيها . وينفع عن طريقه
 اولئك الذين منزوون خلف ستائر تلك الفنون لسطحوا
 منها وسيله لتسر الليم الحقيقية لهذا الوجود .

وان الدعاية التي بنتها عليها مثالتنا - نحن جماعة
 الفن المعاصر - هي الصلة الوثيمة بين الفكر والفن واعتبار
 كل من التصوير والنحت والمسعى كالأدب
 وسيله لتعل فلسفه ما . وهي التي تدفع اعمالنا الفنية

من علة أو مرض أو محل عقدة وهي في الحقيقة تشكو من علل وعقد نفسية ترسبت في اللاشعور على مر الزمان . ويطوف الجزار بالجوانب الأخرى من أرض هذا المولد متنقلا بين مشاهد هذا المسرح القومي العجيب . فيرى أيضا عربة عليها نقوش وطلاسم يجرها حمار اعرج ينوء بحمله بداخلها عائلة السيرك وسرعان ما يلتفت من حولها الصغار والكبار في حلقة كان يشبهها متحكا بالمؤتمر العلمي، ويبدأ أحد أفراد عائلة السيرك وهو جالس على سلك معلق مفلود في الهواء يستعرض عجائب الدنيا ويحل كل المشاكل والمقد السحرية في خفة يد وبراعة ومهارة ، وهم في حيرة من أمرهم غير مصدقين كيف تعجز هذه القوة الخارقة عن حل مشاكلهم .

وهكذا ينتقل الجزار من ساحة إلى أخرى من ساحات المولد المضادة بمصاييح اللهب المتراقصة فترسم ظلالا على الحائط الممتد خلف سور السيدة . من هؤلاء الناس تختلط مع طوائف الجاذيب ، وهو يرى كيف صاغ الفن من ملامحها في صور وأشكال وأزياء مركبة من ألوان مهلهلة وهي تشد على دقات الدفوف وتردد في شيبوبة هستيرية مواويل وأزجالا يستشعر معها الواقفون من الملتفتين حولهم انها تردد ما يختزن في أعماق نفوسهم فيأخذ منها كلا منهم ما يلائمه وينفس بها عن حاله .

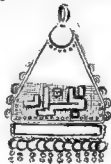
ومع تبشير الصباح تنطفئ أنوار مصاييح اللهب وينفض المولد ويعود الناس لا كما جاؤوا بل يعودون وفي قلوبهم الرضا بالقسوم يحمل كل منهم عروسة أو فارسا على حصان . قطة أو سمكة . قطار سكة حديد أو دراجة . بركة من حلالة المولد . بينما حرص البعض على أن يحصل على ما هو أهم من ذلك فاحتفظ في صدره بأحبيه من الشبيخة سسكينة بها أوراق صفراء ملفوفة بطلاسم مكتوبة ورموز منقوشة تكشف عن البخت ، وتبين الطالع . وتجلب السعادة . وتطرد الأسياء . وتمنع الحسد . وتجنب النسل . ويعيش الأطفال كل هذا بقرش واحد .

التخلف التي كانت تغلف حياة الشعب وتطغى على جميع المجالات الفكرية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ووقفوا منها أيضا موقفا آخر محددا أمام تيارات المدارس الفنية الواقعة من القرب فلم يستسلموا لها باتباع مظاهرها بل حافظوا على شخصياتهم واتجاهاتهم الذاتية ووازنوا بين ما تمليه عليهم طبيعة الأرض التي يعيشون فيها وبين هذه التيارات من جهة وبين ما تتطلبه روح العصر من جهة أخرى .

وبانتهاء المرحلة الأولى سنة ١٩٤٦ وكان الجزار يبلغ من العمر الواحد والعشرين عاما انتقل إلى مرحلة أخرى في ظروف قاسية وقد نضج فيها فكره وعقله وفتح على مأساة بلده وهي مقسمة نهبا بين الاستعمار والاقطاع . وكانت تتمثل أمامه فصول هذه المأساة وهو يعيش في حي السيدة زينب عندما كانت تتجمع الحشود من البشر وهي تمشي في بحر من الغموض تلفها غيباب من التقاليد البالية والمتناقضات . وهي تحمل الاعلام والبارق عليها اسم الله لها تجد فيها الحماية من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان . وعندما كانت هذه الحشود تقف في حلقات الذكر يقودها شيخ طريقة ينشد التساييح مسكاً بيديه الصناعات وهي تمايل كالدمى وتراقص بل وتتلو مع أنغامها وفي الحقيقة كانت تتلو من الجسوع وتراقص كالطير المذبوح .

نعم لقد تفتح عقله وذهنه وهو يرى طوائف الناس في سذاجة بريئة وبساطة أهل الريف وهي تتمسح بجباهاها بالأضربة لتشفى نفسها





(الكورسبى الشخصى أو الرفاق على مسرح الحياة)

لها مستنداً في ذلك الى أسلوب تحليل نفسى عميق يذكروا بأسلوب «بوش» ، بروجيل • وجرنفالد • بل ربما كان في ذلك إبداع • وسجل الجزار ذلك في لوحات كانت في منتهى الذكاء الفنى في معالجة مثل هذه الامور •

القدر والمقسوم • فرح زليخة • أبو أحمد الجبار • المجاذيب • قارئ البخت • العائلة • مجموعة السيرك • الجنون الاخضر المروسة • مجموعة الرفاق على مسرح الحياة • الكورس لشعبى • الطعام والصحن الفارغة •

وقد عرضت هذه الاعمال واللوحات في المعرض الثانى لجماعة الفن المعاصر سنة ١٩٤٨ وصدر البيان الثانى جاء فيه :-

البيان الثانى

تسود العالم اليوم حركة فكرية تقنية ليست بواعثها الاصلية هي مجرد القزوف الاقتصادية المباشرة كما توضح الناس على انهم في حدود هذا التصريف

ويعود الجزار الى منزله ولا يتم بل يظل مستيقظا يستعرض ما رآه •

وقد أثارت في نفسه هذه المشاهد والصور مشاعر الامل والحزن والالام والتعاطف بينه وبين هذه الجماهير ، وكانت مرحلة حاسمة لمواجهة الموقف وكان لا بد أن يحدث شيء فلم يقبل الفنان الثائر الشاب أن يكون مهادنا في فنه مع هذه الأوضاع السائلة في مجتمع ذلك العهد • ويدور مع رفاقه فيما بيننا حوار فكرى • كيف الخلاص ؟

ولما كانت قد تكونت جماعة الفن المعاصر منذ سنة ١٩٤٦ ، وكان شعارها - الفن والمجتمع - هدفها التعبير بصراحة وشجاعة عن حقيقة الواقع وكشف - وتقد المستور من علل هذا المجتمع • قدم الجزار مادته الفنية للدفاع عن هذه القضية من نفس صور هذه الحياة وعرضها في ثلاثة فنية مبررا عنها ومستعرضا ومفسرا العوامل والبواعث المسببة

الشائع دون ادراك ما وراءها من أسباب ، ولكن الباحث الجوهري لها ولهذه الظروف الاقتصادية هو أن ادراك الإنسان في تطور دائم إخل يمس - نتيجة له - قيما جديدة تطلعت نفسه لتوابعها والسيطرة عليها .

إن في تفتح احساسه الزاكن ، وتنبه ادراكه وغير الواعي ، الطريق نحو السيطرة على هذه القيم الجديدة الحقيقة به . والفنان هو المكتشف أو المالك الذي يفتح أمام الإنسان ادراكه ويرفع حساسيته ويعمق تفكيره كشعوره للسيطرة . إن التناقض بين واقع الإنسان من جهة ، ورغبته في السيطرة التامة من جهة أخرى ، هو الذي يسبب هذه الهزلة التي نعاينها الآن ، والتي من مظاهرها تعدد المدارس واختلاف النزعات .

وهكذا نستطيع أن ننسب الفرق الجوهري بين الفن المعاصر والفنون الأخرى القديمة ، التي كان كل منها لا يتفق إلا مع روح العصر الذي عاش فيه . هذه الفنون التي كانت وليدة لظروف اجتماعية خاصة ، ولا تتشى الآن مع رغبة الإنسان في التطور الحديث الذي يتطلع إليه بكلية .

لم يعد منطق الفن المعاصر يتشبي مع منطق هذه الفنون التي نزل بعضها إلى مجرد تسجيل للمنظور ، فقد حلت محطة الكولورغرافية الحديثة . واهتم بعضها بالبراءة والنقاء اللطيف ، وهذه لها حدودها الفكرية التي لا تتعدى

فرح زليخة



حدود الطفل في سادجته ، لحيوية ، ولا يمكنه أن تواجه العصر بتقنياته ونزعاته العلمية المركبة . وبعض هؤلاء الفنون كان يستلهمها طلاب الرأى كتمتة ، وأكثر من هذا فقد استعمل الفن كوسيلة لستر آلام الإنسان في بعض ظروفه ، وتفتيتها بالمظاهر الزائلة .

ولكن الفن المعاصر يابى إلا أن ينفذ جنباً إلى جنب مع قمة الفكر الحديث ، هوبري إلى عكس ما ترمي إليه الفنون الجميلة السطحية التي تهجل أو تتجاهل سر الحياة وسر علاقتها فيها . إنه أداة لتفروغ والمعرفة . لقد أصبح الفن مالكا لنفسه ولقائمه لوعي الناس ، بعد أن ظل وقتاً طويلاً يعمل في خدمة الطامع المستورة ، أو أداة لهو وتسليه .

لم تكن للفن ظروف ثابتة في مدى حياته الطويلة . وتبعاً لهذا لم تكن لديه قط مثالية ثابتة . فمن سحر الغموض في الفن البدائي إلى روحانية الدين في الفن المصري أو الصيني ، إلى عداوة الفكر في الفن الأفريقي . ثم اختلاف الأبرين - الفلسفة المسيحية والزراعة القارية - على الفنان الكلاسيكي ، وأخيراً غزو الطبيعة وسيطرة العلم ، والوعي بالإلحاح الاجتماعي وبمدى ارتباط الفن بالحياة ، في الفن المعاصر .

ونظراً للتغير الذي يسبب عدم فهم الناس للإنتاج الفني المعاصر ، كامن دون وعي منهم في محاولتهم ليعول هذا الفن خلال إحدى التنايلات الفنية القديمة ، أو مثالية مركبة من خليط من هذه التنايلات في مجموعها .

أعرب الفنون إلى الادراك الشائع هو الفن الكلاسيكي الذي لا يفتح النقطة المامية لغيره فنا ، هذا الفن كان يتزعم نحو تجميل الطبيعة نتيجة لظروف خاصة ، نشأ فيها ، بينما الفن المعاصر متجه وجهة أدبية فلسفية علمية لهذا كان من السهل على الإنسان أن يقبل الإنتاج الكلاسيكي خلال ثقافة محدودة أو ادراك عقل بسيط ، له ما يساويه من المواقف والفرائز البسيطة ، بينما عليه ليهم الإنتاج المعاصر أن يكون ملماً إلى حد ما بأنواع التناقضات المختلفة التي تعرج منها التنايلات المتعددة للمدارس المعاصرة .

هذه المدارس عبارة عن نظريات بعضها فلسفي وبعضها نفسي أو اجتماعي مباشر ، كما أن بعضها فني صرف يعتمد على المواقف أو العلم .. وهكذا الخ .

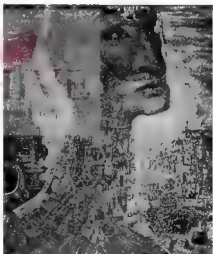
ولذا كان من الخطأ في مثل هذا العرض الذي نحن بصدده الآن أن ينفذ الزائر أمام كل قطعة من هذا الإنتاج ويطلب الفنان بشرحها له شرحاً حرفياً ، عليه أن يرجع أولاً إلى الفلسفة العامة للمدرسة التي ينتمي إليها ذلك العمل سواء كانت سريالية أو تعبيرية . أو رمزية . هذا اللهم العلم هو الذي يؤدي به إلى قبول واستيعاب إنتاج كل فنان في مجموعته وعدم احساسه بإيهام الفروقات أو غموضها عليه .

والمعارضون في هذا العرض مجموعة من الفنانين شق كل منهم طريقته لنفسه ، وسلك المدرسة أو الاتجاه الفني الذي يتلاءم مع كيانه الشخصي الكامن في آفته دون أي



السلام

الثانية من رحلته الطويلة يصنع الفن من أجل الحياة وقد وسع قلبه حب هذا الوجود وحمل عقله ونفسه عبء مشااكل حياة الناس ، وانطلق بكل احساسه لعل رموز التناقض وعالم الروح والمجهول .. الى أن عاش - مرحلته الثالثة - ورأى مواكب أخرى . رأى مرحلة تحقيق الحلم . مرحلة أحداث الثورة يوليو سنة ١٩٦٢ فرأى مواكب النصر . ومواكب العلم وهي تسير في عهد الفضاء في الجامعة - ومواكب العمال تسير نحو المصنع وفي السد العالي . ورأى مواكب الفلاحين وهم يخرجون من وراء أسوار الاقطاع ويدخلون الارض الخضراء من جديد لقد رأى صوراً ومشاهد أخرى كثيرة تختلف عن الاولى فأخرج انتاجاً خالداً كريماً رزينا دائماً يمثل الفعاليات بهذه الاحداث في هذه اللوحات الخالدة النصر - الحلم - بورسميه - السويس - دنشواي - بانفونج - العدالة - الميثاق - السد العالي - عهد الفضاء . وأخيراً السلام . لقد أخرج عبد الهادي الجزار الفنان الشاب كل هذا الانتاج الضخم على مراحل في رحلة طويلة من الكفاح غنية بالمعاني السامية مليئة بالامال الكبيرة ، ولكن مع الاسف البالغ لم تنسج لها رحلة العمر ، بل وقب قبلها بقليل في أشرف مكان وهو يتسلم جائزة الدولة التشجيعية يقول كلمته الخالدة - في لوحته الأخيرة - السلام .



السد العالي

الانتقال أو اكتساب مقصود دُخِل عليه . فشيخصيته أو مؤهلاته الذاتية هي التي حدثت نزعة في لغة تكاملها ولذلك لم يخضع انتاجه للاكاديمية البتة التي لا تهتم الا بمظاهر صفات المدارس الفنية .

بلغ بعض هؤلاء العارضين درجات متكاملة في اتجاهه أكثر من البعض الآخر وإن كان البعض يحمل في نفسه اتجاهه قد يكون أقوى .

ومنذ سنة ١٩٤٨ وهو يعيش في مرحلته



الحصان والجبل

شعر: محمد عفيفي مطر

القصيدة الأولى

حصان الريح - عبر مفازة التكوين والخلق -

تعلم رقصة البرق

ودحرجة العواصف والشموس الخضراء من عرق إلى عرق

وتفجير السطور الخرس في كراسية الرعد الإلهية .

تراكض في بوادي الصهد فانسكبت خوابي الطينة الأولى

وقامت في مسابقتها المدائن والقباب ،

وفجرت بالزيت والخمر الينابيع

ودارت - حيثما مرت سناجك - الروابي

وشد صهيله الوتر المقدس في رباب الأرض .

حصان الريح خوَّض في عباب البحر

فاشتعلت شمس العشب والكبريت والزرق

وأزهرت الصواري الخضراء

وامتلأت من الخير القواريرُ
وفُتِحَتُ الموائى الألفُ ، وانفجرتُ من الضوء النوافيرُ .

حصان الريح مرَّ هنا ، وأبطأ ساعةً بحدائق الشجرِ
فلم يُشبعه عنقودُ من الثمرِ
ولم تُسكره أقداحُ اللقاح العبقريُّ
- وكان يوماً من فصول الجوع -

تمرَّغ ساعةً في الوحل فارتعشت قوائمه
بطين الرعب ، عافَ حشائش الأرض الطفيلية
ومرَّ خلال أبواب الهزيمة نحو أرضِ
الصمت في بَرِيَّةٍ التيه الخرافية ..

حصان الريح غاص وغان في الجبل
وأطبقت الصخورُ عليه ،
أنصتَ للمزامير السديمية

تفتش عن بوارقها الغنائية
فحمحم علَّه يَسْتَرْجِعُ المنسَى من كراسه الرعدِ
ويرقص رقصة البرق الإلهية ..

القصيدة الثانية

في الحقول الحجرية
غرس الليل جذورا غجرية





وأساطير غناء بدوية
فارتوت من كبد الصخر كروم الأزلية ..

• •

في الحقول الحجرية
رنة الأرض حدائق
وعروق غرست في مدن الصمت لكي
تسكب في باطنها خمر الحرائق ..

• •

ما الذي يسمعه الآن حصان الأبدية ! !
ما له يركض ما بين العروق الجبلية
ضارباً في عصب الأرض شراراً
فالعروق ارتعشت ما بين شد وارتخاء .
نفضت رعشتها أبنية الأرض جداراً فجداراً
فهوى صمت الخرائب
والبقايا من طول الزمن الأخدس والرعب اقشعرت
وأمالتها روى الزلزلة الأولى انتظاراً ..

• • •

يا حصان الأبدية
دُس عروق الأرض كي تحترق
الأرض وتخضر الدماء

وانغرس في عصب العالم واركض في الجنود ..

• • •



القصيد الثالثة

أتيتُ - كما أثقلتني المواريثُ -

واستَحَكَمْتُ في دمائي الشريعة

وشيوخوخة الدهر قد أضرمتُ نارها الفلكية ،

فاحترقتُ كلمات الطبيعة

وأطعمني فندق الصمت خبز الفجيرة

فجئتُ - كما طردتني الوصايا -

من البحر والطرق السحيقة

فأوقفتني مولد الرعد والبرق بين العروق العميقة .

أتيتُ خلال فصول الخليفة

بقلبي صكوك الخطيئة

وسفرُ الهزائم والرعب ،

وانطفأت في دمائي شمسُ البراءة

فأرضعني الصيفُ من غرين الجوع حتى يَبْسُتْ

وصَلَّبني قمرُ الملح عبر الموانئ العتيقة ..

أتيتُك - يا جبل البدء والمنتهى - باحترق الجروح

وقد أحرستني التجاريبُ ،

حنجرتي يتفجر فيها صديدُ القروح

تَكَشَّفْتُ عن عورتي وتمرغتُ في طرقات الفضيحة

فجئتُ ليسترني شجرُ الانتظار



لَأَسْمَعَ مَا يَتَهَزَّمُ فِي رَثَيْكَ ، وَأَغْسِلُ
قَلْبِي بِمَاءِ الشَّرَارِ
وَأَكُلُ مِنْ ثَمَرِ الرِّعْدِ كَمَا أَسْتَرِدُّ الْغَنَاءَ ..

...

حِصَانُ الْمَخَاضِ الطَّوِيلِ
يِرَاقِصُهُ قَمَرٌ مِنْ دِمَاءٍ
لَتَنْفُتِحَ الْأَرْضُ بَوَابَهُ لِلْعُرُوجِ ..

...

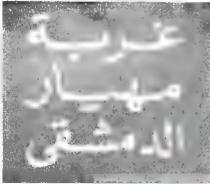
القَصِيْدَةُ الرَّابِعَةُ

ضَرْبَاتُ الْفَأْسِ
تَنْغُرُ بِقَلْبِ الْعَالَمِ كَمَا يَخْضَرُّ مِرَاجُ الْعُرْسِ
فَيُطِيرُ تَرَابَ الْأَرْضِ لِكَيْ تَغْتَسِلَ سَمَاءُ الْيَأْسِ ..

سَبِيلُ الْأَبْنَاءِ
يَتَلَفَتُ فَوْقَ حِصَانِ الرِّيحِ الْآتِي مِنْ رَحِمِ الظُّلُمَاءِ
يَتَعَلَّمُ خِلَاطَ الْأَلْوَانِ السَّبْعَةِ وَاللُّغَةَ الْعِذْرَاءِ
وَيِرَاقِصُ سَيْفَ الْبَرْقِ ..

الْجَبَلُ تَقْصَفَ تَحْتَ الصَّاعِقَةِ الْخَضِرَاءِ
فَاخْضَرَتْ فِيهِ جَذْوَةُ الْخَلْقِ
وَانْفُتِحَتْ كَرِاسَاتُ الرِّعْدِ .. فَمَنْ يَمْلُؤُهَا بِالْأَشْعَارِ ؟ !!





محمد حافظ دياب

وحين حاول أدونيس أن يمتلك التعبير عن مأساة الانسان المعاصر لم يطاوعه الشكل الشعري القديم فتخلل - أو كاد - عن القافية حين وجدها تطل من حركته الشعرية المتدفقة وتقيّد تداعياها •

وفي الحسب أن فكرة التجديد تلاحق أدونيس دائما وتؤرقه ... والمنتج لكتاباته يجد أول ما يجد أن التجديد كفكرة تفلح عليه دائما فيصرخ :

ألا صورة من جديد

تصاغ لهذا الوجود ؟

بحيث أصبح يحق كما يقول عن نفسه « فارس الكلمات الغريبة » أو كما يقول :

نمضى ولا نصفى لذلك الإله

تقنا إلى رب جديد سواه

في مقدمة « ديوان الشعر العربي » الجزء

يديوانه الأخير « كتاب التحولات والهجرة في أقاليم النهار والليل » يدخل الشاعر على أحمد سميد (أدونيس) في مفامرات جديدة في الاشكال الشعرية بحيث نجد فيه مقاطع صغيرة متنوعة البحور مارا بالقصيدة الموزونة المقفاة وغير المقفاة إلى القصيدة النثرية •

... وليست هذه المرة الأولى التي يحاول فيها أدونيس أن يصل بالقصيدة العربية إلى أشكال جديدة ومتنوعة • فقد كتب من قبل ، على طول رحلته الشعرية - في دواوينه : « قصائد أولى » ، « أوراق في الريح » ، « أغاني مهيار الدمشقي » - في كل الاشكال الشعرية تقريبا • وعلى سبيل المثال ..

... كتب قصيدة النثر « أرواديا جزيرة الوهم » وكان بهذا أول من كتب هذا النوع من القصائد رغم أنه لم يتحدث عنها في دراسة « تجربتي الشعرية » ، وكتب الشعر الموزون الجديد • وقصيدته « رؤيا » خير دليل على ذلك •

الثاني ، الفقه صدر لأدونيس عام ١٩٦٤ دفاع عن الشاعر المعضقي - الفاهري أبي تمام لانه « أدرك بعهد الخلائق أن التكرار في الشعر لانفع منه على الصعيد الفني ولا بقاء له هكذا عبر أبو تمام بطريقة جديدة دون أن يقطع اتصاله بجوهر الماضي فمثل هذا الانقطاع يقتل الشعر » بل انه مستحيل لان الشعر يحيا أيضا بقوة الدفع في تراثه »

•• هذه الفقرة تحدد نظرة أدونيس الى الشعر العربي بشكل خاص والتراث العربي بشكل عام •

•• ومن هذه الزاوية - التجديد - اطل أدونيس على التراث الشعري العربي كله • وكان كتابه « ديوان الشعر العربي » بجزئية اعادة نظر واعية في رصد الشعر وفهمه وتقييمه • وبالتالي احدي بدايات اتجاه جديد في النظر الى الشعر العربي اقل ما يقال عنها انها قلب مقسايس واسسا نقدية كانت مسيطرة وكان من مظاهرها تفتيت التراث الشعري الى شعر اباضي عند يشار وأبي نواس وشعر فكرة عند أبي العباسية والمتنبي وأبي العلاء ، وشعر مهجاء عند الخليلية والفرزدق ، وبشكل عام يشكل التراث كله عند أدونيس عملية انتقاء • اختيار حر وواع بين الامكانيات والقيم التي يزرع بها الادب العربي ويمتلى • وعلى هذا فان الارتباط بهذا التراث يأخذ لديه معنى حرا •

وما دامت الروح العربية الآن - في مستواها الفني والتاريخي - تقوم على الابداع والاختيار الواعي ، فان التمسك الحرفي بالتراث يشوهه من جهة ، ويناقض هذه الروح القائمة من جهة أخرى •

التجديد اذن ليس قيمة عابرة في شعر أدونيس وفكره بقدر ما هو هدف دائم يلاحقه • « فثمة حاجة لأن يولد شيء ما » كما يقول هو •• شيء جديد يراه ويكتبه في « متاح الحروف الجديدة » •

وتمثل هذا التجديد ويتفاوت على طول قصائده وعالمه الشعري فيما يلي :

أولا : تجاوز الواقع في عالمه الشعري الى الرؤى والاحلام : فهو كما يقول « الحلم له

قصر وحدائق نار » • وتجاوزه للواقع ليس في كل الأحوال عربيا بل رغبة في تغيير العالم بخلق عالم جديد :

أخلق أرضا تثور معي وتخون

أخلق أرضا تجسستها بعروقي

ورسمت سماواتها برعدي

وزينتها ببروقي

حدها صاعق وموج

وراياتها الجفون

ولانه يتجاوز الواقع ، فكثيرة هي حروف التمني التي يقولها في شعره مثل ربما - لو - كانه - لعل :

لو أني ماء ثقيت الجباد

ونقيت عما وراء التراب

وعشمت مصير الندى والضباب

لو أني حقل لو أني حصاد

تيقنت كيف مع القمح يبدأ

سر الفصول وكيف يعاد •

ثانيا : اهتمامه العقل بدرجة تبلغ أحيانا حد التجريد : كان يصف مهيأ « انه فيزياء الأشياء » كما يقول « مزودج أنا مثلت » أو كان يعنون قصائده التي تصدر ديوانه الاخير والمؤلفة من ثلاثة عشر مقطعا « زهرة الكيمياء » بحث زي أدونيس المفكر يمزج نفسه بأدونيس الشاعر • محاولا - باهتمامه العقل - أن يكشف تجربته الشعرية ويكشف أبعادا جديدة لها •

ثالثا : انقطاع مظاهر الارتباط المنظم في البناء الشعري : فالتجربة الشعرية لديه يتبدى صديقا في اثاره الجوهرية بصرف النظر عن تلاحمها بالصورة الفنية أو خلقها للكلمات المنضبطة المعبرة عنها وحين يقول :

أنيما

اسمع صوت الدهر

يحمل آفاق الرؤى ويفسل الجفون

يزرع أشجارا بلا نخوص

حول ضفاف العمر

فان الفكرة الرئيسية التي تلح على الشاعر هنا والتي تحدد النغم الذي يسود هذه المقطوعة هي الجلب ، نلتقطها حتى من كلمة



رابعا : تجسيد المعاني ومنحها - في كثير من الاحيان - صفات بشرية : ومن ذلك على سبيل المثال ما نراه من أن « الضحى محترق الوجسه شريد » و « أنا موت القمر » و « قامة الريح » .

خامسا : اصفاء المعاني الرمزية والحدسية على الصورة المركبة في بنائه الشعري : التي تستطرد في بعض الاحيان ويقلقها التهويم مما يسبب أحيانا غموض هذه الصور باعتبار أن الحدس هو الانتقال السريع والمباشر الى المجهول فصورة الزمن الميت عنده هي :

لزلن المحول في نقالة الجليد
اشمل نار الجرح

المطلع (أنيميا) المرض الشرقي . ليس ثمة ارتباط شرطى يربط الانيميا المرض بالاشجار التي بلا غصون أو بصوت الدهر . فالرباط المنطقي وأمن بينها . غير أن تداعي الصور يعطى الايعاء المطلوب .

وقد استغل الشاعر هذه الصور المترسبة في لادعية بلا تماثل في الزمان أو المكان ، واستطاع تشكيلها بحيث أعطت - من خلال التقائها - ثراء للفكرة التي يريد أن ينقلها للقارئ . فما هو صسمت الدهر ان لم يكن الجذب وهو اللفظة التالية مباشرة ؟

ومن هنا تبدو القصيدة عن أدونيس بناء كالحلم تتقطع فيه مظاهر الارتيساط المنطقي المنظم وتعطى في ذات الوقت ايماا أكيدا .

وصورة الارض التي يهاها هي :

والارض في جيبتي النبي

رف عصافير بلا انتهاء

سادسا : تحرر الذات الانسانية وتفردا

في شعره : بحيث يصبح الفرد عنده :

يعلو ويمتد ولا يرعى

يريد أن يخرج من نفسه

ويحضن السماء والارضا

وهذا التحرر يؤدي به في النهاية الى

الارتباط الكلي بالسكون وتوحده به تواحدا

جدليا :

وحد بي الكون فأجفانه

تلبس أجهاني

وحد بي الكون بحرتي

فايئا يبتكر الثاني ا

سابعا : التخلي عن مظاهر الرؤيا المباشرة

في تجربته الشعرية : فهو لكي يعبر عن ضياعه

ونهائيه يقول :

انني كالصدفة

تحت وجهي حفرت مقبرتي

فهو يختبئ داخل نفسه كالصدفة حتى

لا يرى الموت وجهها لوجه ولكنه أيضا يراه

تحت وجهه . الرؤيا هنا ليست مباشرة بل

موحية . توحي بها الصورة الشعرية .

... تلك هي أهم المعالم التي تسيج عالم

ادونيس الشعرى وتميزه .

... وقد سجل الشاعر في ديوانه الاول

« قصائد أولى » اتجاهه الى الطفولة في التعبير

عن النفس الانسانية المفردة ، حيث هي في حلم

الشاعر ووجدانه تعبر بدقة ورهافة عن حنين

الانسان الابدئي الى الصفاء والسلام وروؤيته

للحقيقة في أول مسارها :

للطفولة

تشرق الشمس خجولة

هي ينبوع حياة يتفجر

وهي دنيا .. وهي أكثر

في خطاها يصفر الكون الكبير

ويقيق الابد

ولكن هذا التعبير الذاتي لم يؤد به - مثل

كثيرين غيره من أصحاب الشعر الحديث الى

الانفلاق الذي نراه في كثير من نماذج الشعر

الحديث ، بل زاده نراه حين تخطاه . وهو في

ديوان « أوراق في الريح » يحاول أن يتلمس

الماساة ويضع بصماته عليها غير أن الكلمات

تحتسرج فالماساة أكبر منها :

مسافر دون ماحراك

يا شمس . من أين لي خطاك

الانسان مهما سار فانه لا يتحرك بل يموت :

لأنني أمشي

أدركني نعشي

القرية اذن أكثر تجارب الشاعر حساسية

وغرنا :

لا احسى -

الا لأحس موطني

أنا ضليع أم أقرضع تنحو ، وجهة مؤمن

ومن خطواته في الريح الى « أغاني مهيار

الدمشقي » تتخذ تجربته مدى أوسع في

احساسها بالفجعة ، فيبتكر الشاعر شخصية

فريدة « ... تتقص خواطره ومشاكله

ونواذعه وتجسد حياته وتجربته » كما جاء في

مقدمة الديوان ، وتلخص لنا قلق الانسان

المعاصر وانكفائه . الشاعر يرى انسان العصر

الاول أكثر صفا ومحببة ويلج في عودة الانسان

الى منابعه الاولى : الطهر والصفاء :

هو ذا يلبس عرى الحجر

ويصل للكهوف

هو ذا يحتضن الارض الخفيفة

ملك مهيار

ملك والحلم له قصر وحدائق نار

وعلى مسيرة هذه الرؤيا يستلهم ادونيس

في ديوانه الاخير « كتاب التحولات والهجرة

في أقاليم النهار والليل » الابداد السحرية

وهي جماعة أسسها أنطون سعادة عام ١٩٣٢ تحت اسم الحزب القومي الاجتماعي السوري وكانت تدعو إلى سلخ بلدان الشام كلها من غرب السويس إلى جبال طوروس من جسم الوطن العربي والمناداة بما أسموه سوريا الكبرى .

وقد وجدت هذه الدعوة صدى في نفوس بعض المغامرين ، وتلاشت حين كشف عن أهدافها الحقيقية المرتبطة بالاستعمار الغربي وبأساليب الاغتيال والتآمر التي اتبعتها .

وخرج على أحمد سعيد من دمشق ليعيش في باريس . وهناك أخذ يبحث عن أشكال شعرية جديدة . كانت قصيدة النثر تشكل انعطافا هاما في الشعر الفرنسي كرد فعل لقوانين العروض التقليدية الصارمة التي ورثها عن القصيدة اللاتينية ، فإذا بالبيت المتحرر يصبح أداة شائعة للتعبير .

ولابد أن أدونيس خلال اقامته بباريس قرأ نيسا قرأ للشعراء الذين كتبوا قصيدة النثر وتأثر بهم من أمثال يتران في ديوانه Csparsq de la Nuit وبودلير في Spleen de Paris ورامبو في (فصل في الجنون) ، وشكل بيجي في (الاسرار) ، وبول كلوديل في Cinq Cpandes Odes سان جون بيرس في دواوينه : « منفي » ، « رياح » ، « مطر » ، ولوتر يامون في (أناشيد مالدورور) .

وقد تأثر أدونيس بصفة خاصة بسان جون بيرس في تطعيم كلماته بلغة العلم وربط عناصر التعبير ربطا غير منطقي ، كان يقول بيرس في ديوانه (مطر) . . (بلون التبغ الأحمر والبفل) .

وبشكل عام استتوته هذه الحركة - أدونيس يستتويه دائما كل ما هو جديد . في استخدامه للألفاظ الغريبة النادرة ، والإكثار من الجنس مستعصيا به عن القافية ، وإطلاق الفكرة أو الصورة بصرف النظر عن وحدة المقاطع اللفظية ، وحرية خلق الإيقاع الحاس والمميز عند كل من هؤلاء الشعراء .

والصوفية والميتافيزيقية في التراث العربي والروح العربية . ففي مقدمة هذا الديوان التي كتبها زوجته « خالدة سعيد » نجدها تتحدث عن « الرؤيا الادونيسية » ، وهي في مضمونها رؤيا صوفية تربط بين عالم الشاعر الداخلي وجذوره الفكرية حتى تتوحد في النهاية أقاليم النهار والليل . . أو الجسد والروح .

الشاعر هنا يحاول أن يكتشف أعماقه الخفية في رحلته إلى « أندلس الأعماق » :

يضرب ، يجتاح الضحي ، يغرق ، يستزيد
يرفع كالعاشق في تفجر مرید
في وله الصبوة والاشراق
أندلس الأعماق

يرفعها للكون - هذا الهيكل الجديد :
كل سماء باسمه كتاب
وكل ربح باسمه نشيد

... تقول الاسطورة الاغريقية أن أدونيس هو الصياد الجميل الذي خرج يوما ليصنع في إحدى البحيرات استعدادا لمطاردة الخنازير . وحين رآته فينوس عشقته عند النظرة الأولى وأرادت أن تستيقظ بجوارها لكنه فر منها مفضلا صيد الخنازير . . وأثناء جولته للصيد صرخته إحدى هذه الخنازير الضارية - وجاءت فينوس على صوت المصعركة لتجد أن قلب محبوبها قد توقف عن الحركة إلى الأبد - فراحت تتوسل تكبير الآلهة زيوس ليعيده إلى الحياة . وأمام توسلاتها وتهديدها اتفق « زيوس » مع أخيه « بلوتون » إله السماء على أن يعيد أدونيس إلى الحياة ربيع وصيف كل دورة شمس ويغيب ما بقي من شهور السنة في السماء .

هذا هو أدونيس الاسطورة الاغريقية .

أما أدونيس الشاعر فهو الاسم القلي للشاعر السوري اللبناني علي أحمد سعيد . كان يوما أمير شعراء جماعة القوميين السوريين

الاشراقية • عاش في بداية العصر الفاطمي
أثناء الحروب الصليبية ومات في حلب • وله
قصة « الغربة الغريبة » كتبها باللغة الفارسية
ورتبها المستشرق الفرنسي « هنري كوربان »
عام ١٩٥٢ ، وترجمها أدونيس •

والشفعة السائدة التي توجه هذه القصة هي
الشعور بالنقى الذي يعتبر مبدأ رئيسيا من
مبادئ الفلسفة الاشراقية • وقد ذاق
السهروردي الغربة حين سافر الى ديار ما
وراء النهرين ، وحل في « قيروان » القرية
الظالم أهلها مثلما تقرب قبله النبي موسى
والخضر الى قرية « انطاكية » •

وقد عمد السهروردي الى كتابة القصص
ليبين فلسفته ويشرح اصولها في كتابه
« التلوحيات » ومن هذه القصص : رؤيا ،
اصوات اجنحة ، جبرائيل ، حي بن يقظان •

فليس من قبيل المصادفة اذن ان تصاقب
حياة السهروردي وكتابات شاعرا أدونيس
فيكب عليها ويتأملها •

وثمة تلميح آخر هو ابو حيان
النوحدي يشكل مع السهروردي - في مكونات
ادونيس الفكرية - منطقة جذب مهمة ..

والنوحدي عاش عمره مقهورا يتعاطف مع
الغرباء والأفاقين • اتخذ غربته موطننا ثانيا
له • وحين تمكنت منه العجيمة لجأ في آخر
أيامه الى احراق كتبه وغسلها بالماء • فماذا
تجدي للكلمات ؟

لقد احرقها قبله داود الطائي والصوفي ابو
سليمان الداراني ، والفنوي الشهير ابو عمرو
ابن العلاء !

وليس مصادفة ايضا ان يقرأ ادونيس
للتوحيد ، ويكتب مقطوعات له بعنوان « غربة
اطيب من الوطن » •

تغرب ادونيس اذن ورفض • ولكن الرفض
هنده لم يقف عند مجرد حرف (لا) الناق
للجنس • انه - ورغم أشياء كثيرة - موقف
أزاء سلبات شتى باختياره :

• • • وعاد أدونيس الى بيروت لينثى مع
جماعة من الشعراء مجلة « شعر » جاعلين منها
حقلا لتجارب شعرية جديدة • ولكن هذه
المجلة لم تستطع ان تأخذ مساراها الطبيعي
بسبب ظروف كثيرة منها عدم تمثيلها لحركة
شعرية متكاملة واقتصارها على عدد محدود من
رواد المحاولة الجديدة ، فأغلقت منذ عامين •

وهكذا تجد أدونيس على مدى هذه الرحلة
يطلب التغيير ويريد تحت اسم التجديد •
وفي سبيل التجديد يتجاوز الواقع الى الاحلام
التي أدت به الى الغربة •

وقصيدته « الصقر » المنشورة بديوانه
الاخير والمستوحاة من حياة صقر قرش عبد
الرحمن الداخل ومعجزة نجاته من القتل على
يد السفاح ، وهربه الى الاندلس وتحضيره
لها تصور في الواقع غربة أدونيس الشخصية
وان استعار لها من التاريخ بطلا عربيا •

بصور مطلع القصيدة الخطوة الاولى في
غربة الشاعر وبداية التشابه بينه وبين صقر
قرش • فقد تغرب كلاهما :

هدأت فوق وجهي ، بين القريسة والعالس
الرماح

جسدي يتدحرج الموت حوذي والرياح

جثت تغدق ومرثية ، وكان النهار

حجرة يثقب الحياة

وكان النهار

عربات من الدمع

غير نينك يا صوت ، اسمع صوت الفرات

ولم تكن غربة أدونيس عن واقعه وطموحه
مجرد مفارقة فردية بقدر ما كانت تجربة
انسانية تستحق الوقوف عندها وتأملها حيث
تجد لها في وجدانه وفكره أرضية فنية
وتاريخية تتصل في كتابات وحياة بعض
المفكرين الذين تأثر بهم وبالأخص شهاب الدين
ابن يحيى السهروردي وأبو حيان التوحيدي
• • • والسهروردي هو مؤسس الفلسفة

واكتب الزمن الآتي على شفتي
لكن أدونيس لم يعلن بطلان الكل
كالتوحيدى . انه يعود متطهرا كالطفل :
كانه أكبر من حاله .

يطلوا ويمتد ولا يرضى
يريد أن يخرج من نفسه
ويخضع السماء والأرض
يعود وهو يمتلئ بالحاجة الى ذلك الشئ
الذى مازال يبحث عنه : التفسير :
الا ثورة . ثورة في الصميم

تشيد لنا بيتنا
وتجرى معاصرها زينتنا
وتملأ بالحاضدين الحقول
وتملأ بالزروعين السهول
الا ثورة ، ثورة في الصميم تنشئنا من
جديد
وتحقق فينا هو أن العبيد

وتشعل فينا الأعاصير تشعل فينا الزواجر
ان رحلة أدونيس الشعرية تستوحى - عل
مداها - كل مزاجات الجيل المتورد وتمثله
خير تمثيل . وتسجل في لهجتها وروحها
وموسيقاها نصرا على ظروف ضاعطة تحدث
يوما على لسانه وتؤكد لنا نضوجه وعمقه .

وهناك تحولات وأعدة في فهم أدونيس
لأرضه الحقيقية . توحى بأنه - وبعد مسيرة
طويلة وخصبة - قد عرف سر الدفاء وتذوق
حلاوة العروبة وباركها بقلبه وشفتيه .



هدمت مملكتي
هدمت عرشي وساحاتي وأروقتي
ورحت أبحث محمولا على رثتي
أعلم البحر أمطارى وأمنحه
نارى ومجمرتى

القصّة الجريّة

دكتورة سامية أحمد سعد

وظل يتابع حتى اليوم . ومن أشهر ما كتب المؤلف « الغيرة » La Jalousie (١٩٥٧) ، و « في السرداب » Dans le Labyrinthe (١٩٥٩) ، و « العام الماضي في مارينباد » L'année dernière à Marienbad (١٩٦١) . أما آخر ما كتب فقصّة بعنوان « منزل اللقيا » La Maison de rendez-vous (١٩٦٥) .

أثارت مؤلفات روب جرييه كثيرا من الجدل والنقاش ، وجعلت من مؤلفها ، منذ البداية : هدفا للنقاد وأقلامهم . لذا اضطر هذا الأخير الى الدفاع عن نفسه ، عارضا أفكاره تارة ، ومفسرا ما أراد أن يقوله تارة أخرى . ومن ثم ، لم يكن بينه وبين وصفه بأنه رائد الحركة الجديدة — التي أطلق النقاد عليها أسماء عدة مثل « مدرسة النظر » ، و « القصّة الموضوعية » ، ... الخ — الا قيد أنملة . لكن عرض أفكار روب جرييه ، ولا أقسول نظريته ، التي مزيدا من الضوء على كثير من القصص التي بدت لأول وهلة غامضة للغاية ، ولم تلق اقبالا الا من فئة قليلة — وإن كانت مختارة — من القراء .

« من أجل القصّة الجديدة » مجموعة من أربع مقالات كتبها المؤلف ما بين ١٩٥٣ و ١٩٦٣ .

« القصّة الجديدة » عبارة رددتها الالسنة في السنين الأخيرة ، وارتبطت أكثر ما ارتبطت باتجاه فرنسي يتمثل في أعمال آلان روب جرييه ، وناتالي ساروت ، وميشيل بوتور ، وكلود سيمون ، الخ .. وبالرغم من أن الكثيرين قد قرأوا قصص روب جرييه وشاهدوا بعضها على الشاشة البيضاء في إخراج آلان رينيه الرائع فإنهم لم يألوا بتساؤلهم عن القصّة الجديدة ، ولقائتها ، ومضمونها . وما هذا الا ظاهرة كثيرا ما تنكسر في عالم الأدب ، اذ يتوه ما يمكن أن نسميه « بالنظريات » في زحمة الأعمال الأدبية نفسها ، لأن الجدة تستحوذ على انتباه القارئ وتجعله ينسى الظروف والأسباب التي أدت اليها .

وآلان روب جرييه (ولد عام ١٩٢٢) هو رائد القصّة الجديدة ، أو هكذا شاعت الظروف أن يكون . ولا يسع القارئ الا أن يتدهش عندما يعلم أن هذا الأديب بدأ حياته بمنأى عن الأدب والأدباء ، بدأها بدراسة الزراعة والحصول على « الاجريجاسيون » في الزراعة (١٩٤٥) ، ثم انتقل الى عالم الاحصاء ، ومنه الى عالم الأبحاث البيولوجية . أما صلة روب جرييه بالأدب فترجع الى عام ١٩٥٥ العام الذي اختير فيه مستشارا أدبيا لاحدى دور النشر Les éditions de minuit ، بدأ إنتاج روب جرييه الأدبي عام ١٩٥٣ ،

دون جدوى أن - يحولها الى مجرد أدوات زائلة ، الى تسبيح وقتي معيب شكلته كل من الحقيقة والانسانية العليا » .

وعن العلاقة بينها وبين الإنسان :

« لن تكون الاشياء انعكاسا باهتا لنفس البطل المبهمة ، وصورة لآلامه ، وظلا لرغباته ، بالأخرى ، اذا حدث واستخلصت من الأشياء لحظة واحدة كقاعدة للاهواء الانسانية ، فلن يكون ذلك إلا بصفة وقتية ، لن تقبل الاشياء طفنان المعاني الا ظاهريا ... لتبين لنا الى أى حد تظل غريبة على الإنسان » .

ان العالم « كائن » بكل بساطة . وانا لنكتشف ذلك في السينما مثلا ، حيث الكرسي كرسى ولا شيء سواه . ان ما يهم اذن هو « وجود » الاشياء ، و « وجود » العالم ، وعصرنا ، أكثر من أى عصر آخر ، يفسح المجال أمام ازدهار فن قصصى جديد ، فن « التواجد » و « المساحة » وذلك بفضل انفجار المفاهيم الوجودية للإنسان . و يرتب على ذلك تغيير لفة الادب ، التى بدأت تتغير فعلا : « الصفة البصرية الوصفية التى تكتفى بالقياس ، وتحديد الموقع ، والتحديد ، والتعريف ، تشير بلا شك الى سبيل صعب ، الى فن قصصى جديد » .

عنوان المقال الثالث (١٩٥٧) : « عن بعض المفاهيم البالية » هذه المفاهيم هي : الشخصية ، والحكاية ، والالتزام ، والشكل ، والمضمون . القصة ظلت حتى القرن العشرين مرتبطة « بالبطل » ذى الشخصية المعروفة المحددة ، أو ، اذا جاز التعبير ، ذى السجل المدني المعروف . لكن « سلطان » البطل زال اليوم ، وعلى القصة الجديدة أن تثبت قدرتها على الحياة يدونه . كانت القصة حتى الآن تروى احدى الروايات بأسلوب محبب ، وتهدف الى اقناع القارئ بصحة ما يقرأه . لكن :

« قوة القصصى (اليوم) تكمن فى خلقه خلقا حرا تماما ، دون الاقتداء بأي نموذج ، والجدير بالملاحظة هو أن القصة الجديدة تؤكد هذا الطابع » .

النظريات ؟ (١٩٥٥ - ١٩٦٣) يقدم المؤلف لكتابه قائلا : « لا تعد هذه النصوص نظرية فى القصة ، انها تعمل فقط على استخلاص بعض خطوط التطور التى بدأ لي انهما ذات أهمية رئيسية فى الادب المعاصر . واذا كنت استعمل عبارة « القصة الجديدة » فى كثير من الصنحات فانا لا أعنى بها مدرسة أو حتى مجموعة منظمة من الكتاب يعملون فى اتجاه واحد ، هذه التسمية ليست سوى تسمية عملية تفصل كل من يبحث عن أشكال قصصية جديدة تستطيع أن تعبر عن صلات جديدة بين الإنسان والعالم ، وكل من قرر ان يخلق القصة ، أى يخلق الإنسان » .

القصة فى تطور دائم :

« أبطال كادكا لا علاقة لهم الا قليلا بأبطال قصصى بلزك » .

ومن حق القصصى أن يفهم هذا التطور . لكن فهمه لهذا التطور ليس كل شيء . ذلك انه يكتب « ليحاول ان يعرف لماذا أراد ان يكتب » .

ويستطرد روب جرييه : بتلك هى الواقعية الجديدة التى يحاول هذا المؤلف أن يحدد بعض معالمها .

يل ذلك مقال (١٩٥٦) بعنوان « الطريق أمام قصة المستقبل » يقرر المؤلف أولا أن « المفهوم القصصى الوحيد السائد اليوم فعلا هو مفهوم بلزك » . يرتبط بهذا المفهوم مفهوم آخر مؤداه أن حاجة الإنسان وقلبه خالداً أبداً . ويحاول الادب الجديد أن يشق السبيل الى ذلك ، فى حين تستخدم فى تقييمه المعايير القديمة البالية .

وتبدأ معالم « القصة الجديدة » تتضح عندما يتحدث روب جرييه عن « الاشياء » ومعانيها :

« فى بناء القصة فى المستقبل ، مستكون الاشياء » هنا « قبل أن تكون شيئا ما » : « وستكون هنا فيما بعد ايضا ، صلبة لا تتغير ، حاضرة الى الأبد ، وكأها تسخر من معناها الخاص ، هذا المعنى الذى يحاول

عنون المقال الرابع (١٩٥٨) هو «الطبيعة والانسانية والمأساة» - لا شك في أن هذا المقال هو أشهر مقالات روب جرييه - يبدأ المؤلف دافعا عن نفسه تهمة اللا انسانية ، مما يتيح له فرصة لايضاح بعض خصائص القصة الجديدة وتحديدها - الخلاف بين روب جرييه ونقادته ينحصر في جملتين تعبر كل منهما عن مفهوم للعالم : في نظر النقاد ، « العالم هو الانسان » ، وفي نظر روب جرييه « الاشياء هي الاشياء والانسان ليس سوى الانسان » - ويطلب منا هذا الاخير بأن نسلم بأن الاشياء خارجية ولا معنى لها ، ولا يهدف الا الى وصفها :

« وصف الاشياء... هو الوقوف خارجها ، وامامها طواعية - لا يتعلق الامر اذن بتملكها أو ارجاع أى شيء اليها » - ولانه ينظر اليها منذ البداية على أنها ليست الانسان ، تظل دائما في مأمن من الانسان » -

والوصف ، وما يهم فيه ، هو الوقوف على استقلال الاشياء ، ووصفها « من الخارج » ، وتسجيل بعض المسافات والابعاد ، ليس الا : « انه تسجيل المسافة بيني وبين الشيء » ، والابعاد الخاصة بالشيء (ابعاده الخارجية ، أى مقاييسه) والمسافة بين الاشياء ، واصرارنا على أن كل ذلك مسافات فحسب ... يعنى تقريرنا أن الاشياء هنا ، وانها ليست سوى أشياء وأن كلا منها محدود بنفسه - والمشكلة ليست مشكلة اختيار بين توافق حسن وتضامن سيئ - لانه يوجد ، من الآن فصاعدا ؛ رفض كل تواطؤ » -

النظر هو خير ما يتيح الفرصة لتسجيل المسافات ، ذلك أنه لا يتم بالالوان ، ولا بالبريق ، ولا بالشفافية ، بل يهتم بالحدود - بطبيعي الا يكون هذا الابصار الا ذاتيا ، وهو ، بالتالي ، يساعد الانسان على « تحديد مكانه في العالم » -

هذا وينتهي الكتاب بثلاث مقالات متكاملة ، تبدو في كثير من الاحيان وكأنها ايضاح أو تفسير لافتكار المؤلف ، تذكر من بينها مقالا بعنوان « القصة الجديدة والانسان الجديد »

من هنا كان زوال القصة حسب المفهوم القديم للكلمة - حل معنى هذا أن القصة الجديدة قصة بلا أحداث ؟ لا - ولا ينبغي أن نشبه البناء الجديد للقصة بمحاولة لحو الأحداث والمغامرات والعواطف ، بكل بساطة - ويسوق روب جرييه مثلا على ذلك قصص بروسست وفولكنر وبيكيت وقصصه هو المليئة بالاحداث -

عندما يتحدث روب جرييه عن الالتزام ، يدرك أن الثورة والفن متعارضان ، لأن الثورة تتطلع الى حذف ما ، في حين « يخلق الفن من أجل لا شيء » -

« وسوف يظل أهم شيء في العالم ، في نظر الفنان على الاقل » -

ويعبر المؤلف عن فهمه للالتزام بما يلي : « الالتزام - بدلا من أن يكون ذا طابع سياسي - بالنسبة للكاتب هو وعيه الكامل بقضايا لغته الخاصة والافتناع بأصالتها القصوى ، ورغبته في حلها من الداخل - تلك هي فرصته الوحيدة في أن يظل فنانا » -

ولا يفرق روب جرييه بين التمسك والمضمون ، بل يرجع المضمون الى الشكل ويمطى هذا الاخير أهمية كبرى ، مرتبطا بالطبع ، بالأهمية التي يوليها « للاشياء » - « العمل الفني ، وشأنه شأن العالم ، شكل هي ، كائن ، لا حاجة الى تبريره » - في شكل القصة تكمن حقيقتها ، بل ويمكن معناها أيضا ، « معناها العميق » ، أى مضمونها -

« الحديث عن مضمون القصة وكأنه شيء مستقل عنها يعنى محو هذا اللون الادبي كله من عالم الفن » -

ذلك أن العمل الفني لا يتضمن شيئا بالمعنى الدقيق للكلمة - ويلهث روب جرييه الى أبعد من ذلك ويقول ان الفنان الحق ليس لديه شيء يقوله ، وانما لديه أسلوب في القول - من هنا جاء الاتهام « بالمجانية » الفني وجه الى رائد القصة الجديدة وزملائه - ودليل المؤلف هو أن الأسلوب هو غالبا ما تبقى من أعمال كبار القصصيين -

(١٩٦١) يصحح فيه روبر جرييه أخطأ ،
النقد بالنسبة للقصة الجديدة :
« ما هو ميثاق القصة الجديدة كما تتناقله
الشانعات :

١ - القصة الجديدة وضعت قوانين قصة
المستقبل .

٢ - القصة الجديدة طرحت الماضي جانبا .
٣ - القصة الجديدة تريد أن تطرد الانسان
من العالم .

٤ - القصة الجديدة تهدف الى الموضوعية
الكاملة .

٥ - القصة الجديدة تقرأ بصعوبة ، ولا
تخاطب الا المتخصصين » .

بينما ينبغي أن نقول أن القصة الجديدة
بحث لا نظرية :

« إن ما يشترك فيه الافراد ، في كل
واحدة من الحركات الادبية ، هو الرغبة في
الهرب من الجبود بصفة خاصة ، والحاجة الى
شيء آخر .. الى اشكال تحيا وتبوت ، في
كافة ميادين الفن .. اشكال لابد من تجديدها
على الدوام : فالتأليف القصصى في القرن
التاسع عشر ، كان الحياة بمنهال مند ملقة عامي
لم يعد سوى شكل أجوف » .

وما دامت الاشكال تتطور ، فلا يمكن
بالتالى تثبيتها في نظريات تقتض الجبود .

ويدفع روبر جرييه عن نفسه وعن زملائه
تهمة تقنين القصة الجديدة :

« نحن لا نعرف ما ينبغي أن تكون عليه
القصة ، القصة الحقيقية ، نحن نعرف فقط
أن القصة اليوم ستكون تلك القصة التى
سنكتبها اليوم ، وما علينا أن نشبهها بما
كانت عليه بالامس .. »

- القصة الجديدة ليست الا استمرارا
لتطور القصة ، ذلك التطور الذى بدأ في عصر
بزلارك وكافسكا أو فولكتر ليسا مؤلفين
طليعيين ، انهما مؤلفان محدثان فحسب ،
سيصبحان « كلاسيكيين » عما قريب .

- القصة الجديدة لا تهتم الا بالانسان ومكانه
في العالم .

بالرغم من أن الشخصية ، بالمعنى التقليدي
للكلمة ، لا وجود لها في مؤلفات روبر جرييه
فإن الانسان مائل فيها دائما :

« الانسان مائل في كل صفحة ، وكل
سطر ، وكل كلمة (من قصصى) ، حتى لو
وجدنا فيها كثيرا من الأشياء الموصوفة بدقة ،
فإن هناك أولا ودائما العين التى تراها ،
والفكر الذى يعاود رؤيتها ، والعاطفة التى
تقير من شكلها . والأشياء ، واقعية كانت أم
خيالية ، لا يوجد لها البتة في قصصنا خارج
الادراك الحسى عند البشر » .

حتى اذا وجدت الأشياء فعلينا الا ننسى أن
العين البشرية هى التى تراها على الدوام .
- القصة الجديدة لا تهدف الا الى الذاتية
الكاملة . أن وجهة نظر المؤلف ليست وجهة
نظر رجل عليم ، بل رجل هو :

« أقل الرجال حيادا وأكثرهم تحيزا : انه
... ملتزم دائما بمغامرة عاطفية من أكثر
المغامرات الماحا ، الى درجة غالبا ماتير شكل
رؤياه ، وتولد لديه تهيؤات قريبة من
الهيذيان » .

القصة الجديدة تخاطب كل من حسنت
تيته . على القارى ، أن يأخذ القصة على ما هى
عليه ، لا أن يرجعها الى القرن التاسع عشر ،
ذلك أن هذه القصة لا تخضع لمعنى موجود
سلفا .

« القصة الجديدة بحث ... بحث يخلق
سمانيه تباعا بنفسه . هل للحقيقة معنى ؟
هذا سؤال لا يستطيع الفنان المعاصر أن يجيب
عليه : إذ أنه لا يعلم شيئا عن الجواب . كل
ما يمكن أن يقوله هو أنه ربما سيكون لهذه
الحقيقة معنى ، بعد أن يمر عليها ، أى بعد أن
يبلغ عمله نهايته » .

في مقال آخر (١٩٦٣) ، يتناول روبر
جرييه « قضية الزمان والوصف في قصة
اليوم » . كثيرا ما أخذ النقاد عليه وعلى
زملائه المكانة التى يحتلها الوصف في كتاباتهم .
بل انه قيل ان قصصهم ليست سوى أفلام
لم يكتمل نموها وانها أسلوب فاشل في
الكتابة يفسح المجال أمام الكاميرا . ويبرر
المؤلف وصفه للأشياء في القصة قائلا : فيما
مضى ، كانت هذه الأشياء مدمجة في انقضاء
الزمان الذى كان يعطيها معنى ، في حين أن
الأشياء التى يصفها هو في كتاباته أشياء
« لا معنى لها » . أن بناء الكتاب عنده يتأرجح

« القصة الجديدة » • على أية حال ، لا يمكن أن تكون القصة أداة تمبر عن حقيقة خاصة ، ذلك أنها تخلق واقعها وتؤلفه • إنها أداة للبحث ، للبحث عن نفسها • لا معنى إذن لرجوعها الى الواقع اليومي :

« أنا أبني ولا أنقل • هذا ما كان يصبو اليه فلوير : بناء شيء من لا شيء » ، بناء شيء يقف وحده دون أن يحتاج الى الاستناد الى أي شيء آخر خارج العمل الفني نفسه ، هذا هو ما تتطلب اليه القصة اليوم » • هذا البناء نسج من « الزيف » :

« كل شيء يحدث كما لو كان « الزيف » قد أصبح احد الموضوعات التي يعصها خيال كاتب القصة الحديثة ، لقد ولدت فئة جديدة من الرواة : لم يعد الرجل يكتب بوصف الاشياء التي يراها ، انه في الوقت نفسه ، يتخيل الاشياء من حوله ويرى هذه الاشياء التي يتخيلها » •

ولا يرى روب جرييه أن «القصة الجديدة» نظرية ثابتة أو موضة سوف تنقضي • لكنه يرى انها مرحلة من مراحل تطور الادب : « ان كل يقسمه الفن للقاريء أو المتفرج اليوم هي طريقة للحياة في عالم اليوم ، وللتشكك في خلق عالم الغد • ولبلوغ هذه الغاية ، تطلب القصة الجديدة من الجمهور أن يشق في قدرة الاديب ، وتطلب من كاتب القصة ألا يدخل من الاشتغال بالادب » •

تلك هي أفكار روب جرييه عن « القصة الجديدة » • انها أفكار تتفق وافكار ناتالي ساروت أحيانا ، لكنها تختلف عنها في كثير من الاحيان • وجدير بالملاحظة أن لكل كاتب من كتاب القصة الجديدة أسلوبه الخاص وطابعه الخاص • حتى ان الحديث عن «القصة الجديدة» يتطلب الحديث عن كل منهم على حدة • لكن وصف النقاد لهم بالجمود والا انسانية ينطبق عليهم جميعا • ومهما تضاربت الاقوال، لا يمكن أن ننكر أن « القصة الجديدة » اتجاه جديد أتى على المقومات التقليدية لهذا اللون من الادب • ولم يكن ليتسنى لهذا الاتجاه الجديد أن يبعث الا في وقتنا هذا ، عصر السينما والماديات • ولولا أن «القصة الجديدة» تعتمد اعتمادا كليا على مجهود القاريء للاقت اقبالا أكبر • فضلا عن أن الفموض الذي يكتنفها في كثير من الاحيان يحذر من انتشارها •

بين « حركة مزدوجة من الحلق والمحور » ، ويولد « خيبة الامل » تلك التي تلازم قصة اليوم • هذا ويركز روب جرييه اهتمامه على الحركة الوصفية تلك • لكن ، لا الوصف ، ولا الشيء الموصوف يعني أن المؤلف عاجز •

وهنا يبين ضلال القائلين بأن هذا الاسلوب في الكتابة ميسال الى فن التصوير أو الفن السينمائي • ان السبب في انجذاب كتاب القصة الجديدة الى السينما لا يرجع الى « موضوعية الكاميرا » • وانما الى امكانياتها في ميداني الذاتية والخيال •

السينما في نظر كتاب القصة الجديدة وسيلة للبحث ، لا وسيلة للتعبير • وما يسترعى انتباههم فيها هو مخاطبتها لحاستين في أن واحد : حاسة السمع وحاسة البصر • ويسوق روب جرييه مثالا على ذلك فيلمه « الحادثة » و « العام الماضي في مارينباد » • ففي كليهما العلاقات وقف على ما يرى وعلى ما يسمح ومن ثم كانت حركة مزدوجة من البناء والهدم ، تلك التي نجدها عند المؤلف في معالجته للزمان • أن الفيلم السينمائي والقصة يتقابلان اليوم لانه كلاهما ميسر على لحظات وابعاد زمنية لا تسعة لها البنية بالتوقيت الفعلي • بل انه يبتصر على العكس، ان الابحاث الفنية الحالية تعمل على خلق ابنية ذهنية خالية من « الزمان » :

« وقت العمل الفني الحديث ليس بأي حال من الاحوال تلخيصا أو تركيزا لوقت أكثر طولا أو واقعية قد يكون وقت الحادثة أو القصة المروية فعلا • • هناك على عكس ذلك، مطابقة تامة بين الوقتين • فحوادث قصة « مارينباد » لا تدور في عامين أو ثلاثة أيام، بل في ساعة ونصف بالضبط • » من هنا تنشأ خيبة الامل التي سبق أن أشرنا اليها ، والتي تتميز بها القصص والافلام الحديثة • ومن هنا يتحتم على القاريء أو المتفرج أن يخلق ، لا الرواية ، وانما واقع العمل الفني نفسه ، ذلك العمل الفني الذي قدم له ولم يكتفى تكوينه بعد •

ينتهي كتاب « من أجل القصة الجديدة » بمقال عنوانه « من المذهب الواقعي الى الواقع » (١٩٥٥ ~ ١٩٦٤) • ان روب جرييه ، شأنه شأن من سبقوه ، يكتب باسم الواقعية • ومن هنا كانت الثورة الادبية التي قامت بها

عيشة في سوق الغزل

قصة
العدد

بقلم محمد صبيح

البيت اعترضه طلع المجارى يسد طريقه فاخذ يحطى سيارا وهو يحبس انفاسه الى محطة البلاط يشد شبرا ٠٠ ومر به باص وثان وثالث لم يها واحد منها باشاراته ولم يكن فيها موطن قدم ٠٠٠ فرأى أن يقطع الطريق الى ميدان رمسيس مشيا ليلحق باحدى حافلات الجيزة من أول مواقفها ٠٠

وسحب من جيبه الرسالة يستعيد قراءتها للمرة المائة وهو يفكر كيف يحس ابنه من الذئب ويعجب سخطا كيف يتسلل الشيطان في صورة شمس الدين الزقزاقى الى قلب عنده كابتته نسمة يمنيها ويفرر بها - نسمة نورة الاسرة التي يعقد عليها أمل بعد أن خاب رجاءه في ولديه منير فهمي وسهير حسنى ٠٠ منير الذى بدأ دراسته بعد حتى سن المراهقة ثم أخذ يتخلف ويفشل فتسببه اخته الصغرى فيحاول أن يكون من أبطال كرة القدم فيفشل ويدفعه الفشل الى اعتناق المذاهب الهدامة ٠٠ ثم يتحول الى أخيه سمير يضربه ويبتر تقوده ويستولى على سيارته ٠٠

دقت ساعة الحائط الاثرية سبع دقائق رنانة وكأنها صلصلة ناقوس الكنيسة ٠٠٠ انطلقت الزوجة الحبل من سيارتها فالتفت الى بدورها زوجها النائم بجوارها يتمسخر كالذبيح ٠٠

نهض السيد أمين عفاشه متأخرا مصدوعا بعد ليلة أرق يسبب رسالة وصلته من «ناصح أمين» ينصحه بمراقبة ابنه «نسمة لطفي» ومنمها من مصاحبة زميلها بالجامعة - شمس الدين الزقزاقى - المعروف بين الطلبة باسم جيمس دين - يتصيد الطالبات فى سيارته الصغيرة بحجة توصيلهن الى منازلهن فى وقت اشتدت فيه أزمة المواصلات ٠٠

ارتدى ثيابه فى عجل واستمهلته زوجته ليفطر فقال دعينى الحق ميمادى ، وأغلق الباب خلفه وصبط يهروى على الدرج وهو يمتد رباط عنقه ٠٠٠ ثم عاد صاعدا لياخذ حافظة دفتاره التى نسيها ١٠٠

فسألت زوجته - ماذا تتفنى اليوم - وأجاب - نفسى فى الملوخية - وعندما غادر

- ماذا تأخرت يا سيد أمين ؟
- المواصلات يا سيادة المدير . .
- ولماذا لم تعمل حسابها كزملائك ؟
- الاولاد يا بيه !
- وما شأن الديوان بالاولاد ؟

.

- يا سيد أمين . . الاستاذ المفتش الاداري في انتظارك معي منذ ساعة للمراجعة ووجد عهديك . . لا يؤخذنا يا استاذ انظون عن تعطيلك وستنذر السيد أمين لتأخره - نهض الاستاذ انظون القزم . . يتقدم السيد أمين الضخم الى مكتبه فاحتله وتجنح وأخرج نظارته المكبرة التي تجسم أدق الخطأ . . واستل قلعه الذهبي ذا المداد الاحمر . . هدية السيد المدير اليه يوم سوى له بعض اخطائه - وقد اشتهر الاستاذ انظون بأنه حجة في المحاسبة لا تخفى عليه شاردة وان كانت ذمته من السور المطاط . . وبدأ يراجع ويؤشر ويدون الملاحظات التي تبطل من الحجة قبة وكلما جرى القلم بالمداد الاحمر على الورق ازداد وجه السيد أمين احمرارا . . وأخيرا حول الاستاذ وجهه المقلع بالنمش الاصفر الى الصراف يسأله بنبرة خفاه وهو يقذف مع كل كلمة بخاراً تنفأ أحس المسكين أمامه بالغثيان . . .

- ما هذه الاخطاء كلها ؟

- انها خطأ واحد تكرر في الصفحات التالية .

- ولماذا تكرر الاخطاء .

- زحمة العمل . . . جل من لا ينظرو .

- يا حبيبي ليس في عملنا يا أم ارحميني . . . افصح الخزانة .

وجرد الخزانة فوجد بها عجزاً تسعة قروش كاملة فساد يسأل والصراف يحبس أنفاسه عن سبب هذا العجز .

- انه عجزي بسيط في زحمة عشرات الموظفين وحركة مئات الجنيئات وعلى رأى القتل عيشة في سوق الغزل .

أما سبيل فأمره عجيب ! يخرج كل صباح الى المدرسة فلا يعود الا بعد العشرة مساء بحجة أنه يستذكر دروسه مع رفاقه بعيداً عن اخيه المجرم منير - سماره اقصدته السينيات سلاح ابليس في العصر الحديث في نظر السيد أمين . . المشط عدته يسفل به على جبينه خصلات من شعره الملوي . . ويرسل الى محدثه نظرات ناعمة . . ويمشي في استرخاء راقص . . الضرب المرح لم يغير منه شيئاً حرمانه من المصروف لم يؤثر في وفرة النقود في جيبه مع تذاكر السينما والسجائر . . . كيف يحصل عليها ؟ الص هو . . ؟ أم فنان ؟ ام ماذا ؟ . . . أي مصير يترقب بأولاده ؟ وأي عار سيلحق بأسرة عفاشة الشريفة ؟ وبرز لقب عفاشة بشما كأنه وصمة . . يطارد كماً يطارد الغائل ضحيته . .

واعترضته فتاة متبرجة تتسكع امام سينما دولي في استرخاء راقص فقطب لابتسامتها وهي تسأله عن الساعة وترسل اليه نظرات ناعمة ١٠

انت رجل طيب يا سيد أمين / عشت حياتك مستقيماً باراً . . تخرجت من مدرسة التجارة الثانوية متفوقاً فالتحق بالوظائف وتزوجت مبكراً - بلا خطبة - من جارة عفيفة عاقلة متوسطة الجمال لتزواج اليها فاختلعت لك المتاعب وهي لا تدري . .

وعزى نفسه بأن القديس غاندي اخلف ابناً فاسداً . .

وفي ميدان رمسيس شق لجسسه الضخم طريقاً في أول حافلة قادمة من الجيزة محملة بأكداس الوافدين منها الى شبرا وغيرها . . . آه لو يجد شقة صحية في الجيزة بأجر مناسب مثل شقته الواسعة بشبرا . . . وتتم سخاها - دنيا مقعدة - .

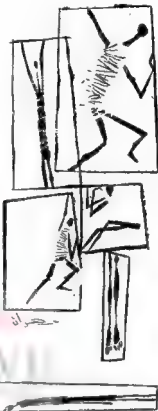
وانطلقت الحافلة كالوحش وهو معلق ذراعه بالعمود العلوي لا يملك حراكاً وسط الزحام . . وصل الى الديوان متأخراً أربعين دقيقة وأخبره زملاؤه أن المدير طلبه مراراً فهرع اليه وهو يصلح هندامه :

الذى لصق به وقد حرص على حماية أولاده
من شره .. وطلب الاستاذ فنجان قهوة
مضبوطا ثم أخرج نصف سيجار ضخم أشعله
بقشاحة يعلم السيد أمين انها هدية من أمين
للمخازن للتستر على بعض مخالفاته ..

وأخذ يحلق فى عيني السيد أمين وكأنه
يومئذ انشبت مخالبها فى طرق حمامة تمص
دمها .. وهو يرشف القهوة فى تلذذ وتشف
.. وينقر على المكتب بالقلم قائلا : ما رأيك
يا سيد عفاشه ؟ هه ؟ .. ماذا تقول ؟ هه ؟
وصرخ السيد عفاشه متفعلا - أهى مساومة ؟
ماذا تريد منى أن أقول ؟ دقى يا مزبكة !

وعاد الاستاذ انظون يبتسم فى هدوء
وبرود قائلا - يظهر أن أعصابك متعبة ياسيد
عفاشه .. لقد انصرف جميع الموظفين ولم
اكمل المراجعة سأعود غدا لانتهى منك ...
ولا تتأخر .. نهارك سعيد !

وقام الجلال الحقود يمشى فى صلف متأبطا
حافظته .. يخرج السيد أمين من الديوان
ورأسه إدري .. وإذا بزميله منصور عند
محطة الباص يستقبله متهللا يقول - لقد
صرح لى المدير بإجلازى السنوية من ياكى
سأقضيها بين احضان عشيقتى .. وعلق
الصراف وهو شارد الذهن - ألك عشيقة ؟
- فربت الصراف على كتفه قائلا - الاسكندرية
يا جميل ! سأترك مع أخى توكيلا لتصرف له
مرتبى .. مالك طاهر عليك الضيق ؟ وأجاب
السيد أمين : الحى يخنفنى .. والصداع يدق
بالمطارق رأسى .. لا بد لى من طبيب
- سلامتك .. تعال معى الى الاسكندرية ولو
يقطار البحر تجدد شبابك فى هوائها النقى
وتفصل هومك فى بحرها البديع وتوفر
نفقات الطبيب والدواء - وغبط السيد أمين
هذا الصغور الطليق .. وهز رأسه موافقا
على اقتراحه .. وجدا مكانا فى الحافلة فجلسا
متجاورين .. وادخل السيد أمين يده فى جيبه
يستخرج بطاقة الاشتراك للمفتش فوجهه
فارغا !



- عذر غير مقبول يا ست عيشة !

وغلا الدم فى رأس السيد أمين وصاح
بصوت يتهدج وهو يلوح بكفه :

- اسمح يا استاذ .. أنا لا أسمح لمخلوق
بأن يخرج كرامتى !

وابتسم الاستاذ فى برود قائلا - أنت الذى
قلت عيشه يا سيد عفاشه .. كلها واحد
يا محترم ! وتحول سخط الصراف الى اللقب

بحطة سيدى جابر على قطار البحر ومعك مرتبى ..

ولما وصل السيد أمين قرب بيته عاد يفرض مرة أخرى فى الوحل الملوث وعارده الفئشان .. وفُتحت له باب الشقة زوجته فدخل وهو ينظر الى الشعر المنقوش والعينين الذابلتين والحدين الفائرتين ثم يهبط ببصره الى البطن المنتفخ فى شهره التاسع .. وفاجأها قائلا - انتقصنا المصائب ؟ فحججته بنظرة احتجاج صارمة - الست السبب ؟ فصاد يؤنبها - ألم تسمعى الرئيس يقول ان تزايد النسل اخطر من القنبلة الذرية ؟

وجلس امام المادة ينتظر الفداء .. وهو لم يخطر صباها .. ورفع ناظره داعيا « يارب تب علينا تب ! »

وجاهه الجواب على لسان زوجته تداعبه مبتسمة وهي تضع امامه طبق الملوخية « لما بوف المكتوب ! »

ولمح دبابه تسبح فى الملوخية فرفع يده وقام عليها يلقي بالمنشفة فى وجه زوجته ثم دخل غرفة النوم ..

حاولت الزوجة ان تسترضيه فصاح فيها - دعيني ... انا قرعان من البيت والوظيفة والاولاد والاكل ... دعيني استرح ساعتين وصحبنى الساعة السابعة حتى انجز الاوراق المطلوبة باكرا متى - واغلق الباب بعنف واستلقى على سريره ينشد بعض الراحة بعد يوم عصيب .. وبدأ له وجه انطون الملعون يحلق فيه كالبومة .. تذكر موعده معه غدا .. تذكر اهائته الجارحة .. عيشه .. غفاهه .. المداد الاحمر ..

دقت ساعة الحائط الاثرية سبع دقات .. اندلع على اثرها صراخ الزوجة الحيلى وعويلها .. واندفع لنجدها جاراتها .. وتكلمت وهي تشرق بالدموع - « لم يكن يشكو من أى مرض .. كان يشقى من أجلنا .. وراح فجأة دون وداع ! »

ثم التفتت الى الجسد المسجى على السرير تغاطبه - « وقيت المكتوب يا أمين ؟ »

ضاع الاشتراك وضاعت الحافظة أيضا إما فيها .. بطاقة تحقيق الشخصية والجنية اليتيم المتبقى من مرتبه .. وهبط قلبه الى قدميه .. هل سقطت من جيبي ؟ هل نشئت فى حافلة الصباح وهو ملق ذراعه الى أعلا ؟ ماذا يفعل ؟ وتطوع السيد منصور بسداد ثمن التذكرة لزميله - هون عليك .. الدنيا بخير - ثم راح يتسلى بالمساهد من النافذة وهو يغنى لنفسه مترنا - يا اسكندرية يا .. يا نور عيني يا .. بينا سرح خيال السيد أمين فى سلسلة المصائب التى انهالت على رأسه واستحكمت حلقاتها حول عنقه تخنقه .. أى ذنب جناه فاستحق هذا العذاب ؟ أين الخطأ ؟ هل أخطأ يوم تزوج ؟ هل أخطأ يوم أنجب ؟ هل أخطأ يوم الحق ابنته بالجامعة ؟ ... وبعد ... ما الحل ؟

هل تعقدت مشاكله كما تعقدت مشاكل الدولة فى المجارى والمواصلات والتموين والاسكان ؟ ولكن مشاكل الدولة ترجع الى سبب واحد هو تزايد السكان بسرعة خطيرة وحلها فى نظر السيد أمين يتلخص فى أربعة سريع وجرى لتحديد النسل وتنظيمه .. أما مشاكله هو فما سببها ؟ وما هو حلها ؟ ان رأسه يكاد ينفجر .. لو أنه سقط تحت عجلات الخافطة التى قفز اليها فى الصباح لانتهت مشاكله فى لحظة ... ام يفعل مثلما فعل بعض ابطال القصص فيستولى على مرتبات الموظفين والعمال فى أول الشهر .. ويختفى بها ؟ لا .. لن يفعلها .. انه ليس نصا ولا خائنا .. لقد عاش شريفا فليمت شريفا ! هل يلقي بنفسه من أعلى عمارة كما فعل قاض نزيه ؟ لا .. ان هذا الحل يفضب الرب ! لو رجع الى صباه لتطوع فدائيا يفتك بكل صهيونى حتى يستشهد ويستحق أن يعلق اسمه على شوارع المستشفى - شيكولانى - ولكن أى اسم ؟ غفاهه ؟ انه لا يصلح اسما لشارع فضلا عن بطل شهيد !

هبط صاحبه من الحافلة قبله بمحطة قائلا - لا تنس يوم الخميس ٤ يوليو مسانتظرك

لمحات من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده

مؤلف: د. عبد المجيد عابدين
عرض وتحليل: د. محمد مصطفى هدار

ثانيا : ان التراث الشعبي الذي امتزجت مودولاته وتعبيرت عناصره المختلفة بعهد الفتح مع تصريب اصحابها ، كان مادة غزيرة ومنبعها غنيا لفلسافة الفصحى في شتى صورها : في الاجتماع ، والدين ، واللغة ، والادب .

ثالثا : ان الحياة الفكرية في مصر كانت دائما بمثابة شرارة تولدت من تقابل طرفين أوطيين - او التقاتلها - في مجالات الفكر الاجتماعي والديني والادبي والفني ، وان ازدهار هذه الحياة التي تولدت من هذه التناقضات الفكرية في البيئة المصرية ، كان يتوقف على وثالة الصلة بينها وبين الشخصية المصرية ، كما توقف على قدرة هذه التناقضات او بعضها على تنعيم كيانها في المجتمع المصري .

ويتلسم الكتاب الى ثلاثة ابواب رئيسية :خصص الاول منها للحديث عن مصر قبل الفتح العربي وباليابان الاخوان يتناولون مصر بعهد الفتح العربي ، اصبحتا يخلص بالفكر الديني ، والاخر يخلص بالفكر الادبي

الاجنبي من وجهة الاصل للمصري والعربي ، ولم يبق المؤلف عند الاصول التاريخية الاولى ، ولكنه جعلها مدخلا للحديث عن عروبة مصر الاصلية بعد الفتح ، واسماهاها القسوى في تاريخ الحياة الفكرية الاسلامية .

ولقد شاء المؤلف ان يجعل كتابه (لمحات) من تاريخ الحياة الفكرية المصرية قبل الفتح العربي وبعده ، والحقيقة انه كان امينا في حسده التسمية اذ جاءت مطابقة لموضوع الكتاب الذي لا يعتبر منها متكاملا او شاملا لتاريخ الحياة الفكرية المصرية ، ومع ذلك ترى هذه اللمحات - على نوعها - ذات وجهة موضوعية لاشك فيها . وهي تدور حول الافكار الرئيسية التالية :

اولا : ان مصر اسهمت بتعصيب في الفكر العربي منذ القدم بصورها على اساس من وحدة الاصل المشترك او وحدة الحضارة المشتركة او كليهما ، كما اسهمت بتعصيب الفكر العربي الاسلامي .

موضوع هذا الكتاب على جانب كبير من الاعمى لانه يربط بين الواقع التاريخي المصري والمصري منذ جهود بعيدة قبل انشا الإسلام وقبل ان يمتد نوره الى مصر عقب الفتح .

لقد اصعب الاستمرار الاوربي نفسه في محاولة تزيق الوحشة العربية عن طريق احياء الاصول الاولى للشعوب التي تكونت منها فيما بعد الدولة العربية الاسلامية اربان ازدهارها وفورها . وكانت مصر بصفة خاصة بؤرة التزييف التاريخي الذي اصطنعه الاستعمار ، ليبيدها من الركب العربي ، ويهدد الركب العربي منها ، فادعى ان الغرامنة بعيدون كل البعد عن الاصول السامية التي ينحدر منها المصري فتكون العروبة في مصر باتت شيئا مستعدنا مصطنعا ، اذ لا تجري فيها على عرق . وفي هذا الكتاب محاولة صادقة لاثبات الصلات العريقة التي كانت بين مصر الفرعونية والعرب ، مما يؤكد مذهب اليه بعض علماء

والفصل الأول من الباب الأول ومثوانه (مصر غير سيناء) يتحدث فيه المؤلف عن علاقة اللون بالثقافات في مصر القديمة ، فيبين أن اللون الأخضر المائل إلى السواد كان معبراً لارتباطه بالخصب والخصاء ، وأن اللون الأحمر كان مكرهاً لأنه يمثل الجذب والفتنة ، وأن المصريين القدماء صوبوا « ستة آلهة الشرى في هيئة حيوان يتشبه العنار ، لأن أهل بلدان الشرق القديم ، فضلاً عنهم ، لم يبحثوا في أصل تسمية «عمر» ويقولون أن التاريخ عرف مصوراً مسدباً ، فكان هناك مصر شمال الشام ، ومصر الجزيرة العربية ، ومصر شرقى الدنيا . واختلف العلماء في اشتقاق اللفظ ، فمنهم من حاول رده إلى أصل مصري قديم ، ولكن معظمهم رجحوا أنه من أصل سامي بمعنى الحد الفاصل بين أرضين . لم يخرج المؤلف بفكرة جديدة هنا حين يربط بين التسمية واللون الأحمر ، فالواضيع الثلاثة التي اشترأ إليها كانت تقع في أرض أكثر صحراً ، حمراء ، لم أن اللغة العربية احتفظ بهذا المعنى لكلمة مصر ، فقد ورد فيها التوب المصر إلى المبرورين الذين الأحمر ، أو بغيره غليظة . وكنت أرجو أن يناقش المؤلف الآراء المختلفة في أصل هذه التسمية ، فلعلها تقدم دليلاً واضحاً على اشتراء الأصول المصرية والعربية ، ومن بين الافتراضات التي كان يصح مناقشتها ما قاله صاحب الساموس الحديث أن مصر الدينية المعروفة سميت كذلك لتمصرها أو لأنه بناها الممر بن نوح .

ثم يتحدث المؤلف عن الجانب الشمالي الغربي من بلاد العرب ، فيرى أن تسمية القسم الشمالي الذي يبدأ بحدود فلسطين شمالاً ، ويمتد إلى رأس خليج العقبة جنوباً ، والجنوبي الذي يقع شمال الحجاز ونهامة ، كانا في خلال عصور الجاهلية ملئتي ثقافات وحضارات شتى ، وأنه من المحتمل أن يكون هذا الجانب أو جزء منه ، مهداً لاسم يواكي العربية النصحى . ولا كانت

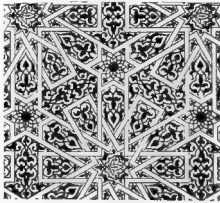
شبه جزيرة سيناء العرب أطيحي الفتوح للطلافة بين القبائل العربية والعربين القدماء ، لهذا لاستغرب تسرب الأفكار والثقافات بين الطرفين فكانت القبائل المصرية تعبد الآلهة ست لأجنادها بما وصف به من قوة البطش ، كما كان للعرب القدماء آثار عميقة في الحضارة المصرية ذاتها . وكان ينبغي للمؤلف أن يبين لنا أوجه هذا التآلف ، بالإضافة إلى ضرورة التوسع في شرح رأى العلماء الذين أثبتوا أن أجداد قدماء المصريين كانوا من أصول سامية ثم يتحدث المؤلف من السمات المشتركة التي يستخلصها من دراسة الحضارة المصرية القديمة ، وحضارة الساميين فيرى أن العرب وصلوا صحاريهم بالبحر ، وكذلك فعل أهل الجانب الشمالي الغربي من جزيرة العرب بل أن الأسماء السامية «مصرية» و «عربية» و «كنعانية» وأسم فينيقية النش من اليونانية ، كلها مشتقة من أصل سامي ، فلذا انتقلنا إلى شمال نهامة والحجاز وجدنا أحاديثاً مماثلة لمصر في كثير من الجوانب ، ويبدو أنها سميت كذلك لأن الجاهلية (الأرض الصخرية) كانت من نصيبها بعد تفرق قبائل نوح بن هاد . وهذا التشابه في التسمية ليس مجرد صدفة أو اتفاقاً من وحى الطبيعة . كذلك نرى في اشتقاق العربية واستعمالها ما يؤكد على الصلة الوثيقة المشتركة ، فلما جعلت اللغة المصرية الأرض صنفين : حمراء وسوداء ، واليه صنفين : حمراء وسوداء ، كذلك العربية النصحى اشتكت اسم الصحراء من الصحرة (وهي حصرة قرب آل غيرة) ، وأطلقت السود في بعض مناطق على الحفرة والفران . وكما ارتبطت الحفرة بمكان شبيه عند المصريين ، كذلك كانت في النصحى فقالوا ستة حمراء أي شديدة الجسد . وسجلت الروايات العربية أن إبليس دخل جوف الحمار لما دخل سفينة نوح ، وهذا يذكرنا بتجسد ست في صورة حمار . ولم يشر المؤلف إلى أوصاف الحمار في القرآن الكريم ، وهي كلها

تبين تبلده وصوته المنكر ، وتتفهم ماثر من العرب في وصفه . ويرى المؤلف أن ظهور ملكات في الجانب الشمالي الغربي كإيزيس وأبوليس يدفعنا إلى التساؤل :

أهو تأثر مصري أم أنه بقية نظم كلفت من هذا التراث المشترك الأقدم بين مصر وبلاد العرب ؟ يسأف إلى ذلك أن أهل الجانب الشمالي الغربي كانوا في الجاهلية أشد ممارسة لنظام حق الأمومة من أي جزء آخر في بلاد العرب ، فانتسبوا إلى أمهاتهم ، ومنحوا المرأة السيادة في الأسرة كما كانت الحال في مصر القديمة . وفي هذه البنية التي يوات المرأة مكاناً رفيعاً وجعلتها في موضع قداسة ، نشأت قبيلة طرية وهي من قبضة ، وكانت مساكنها تمتد شمالاً إلى رأس خليج العقبة . وقد اشتهرت بالعبادة الصليبية في الإسلام ، بل أبحث من هذه البنية صمد من قصص الحب في الجانب الباهلية كقصه حب خندف وزوجها إليس بن مصر التي تذكرنا بقصة إيزيس وأودريس .

وقبل أن ندع هذا الفصل نحاول بحسواتنا التآلف والتساؤل بين مصر القديمة وجيرانها من العرب ، ينبغي أن أشير إلى رأى نقلة الباحث من على العلماء يقولون أن بلقيس حكمت بلاد سبأ الشمالية إذ أن السبئاني عصر سليمان الحكيم الذي جسرت منه لهبتها - وهو القرن العشرين الميلادي - كانوا لا يزالون في موطنهم الأصلي في الشمال أو الشمال الغربي من الجزيرة العربية وذلك قبل أن يتزحوا إلى الجنوب ويؤسسوا هناك حكماً . وكانت أحب أن يترك المؤلف هذه النقطة دون دراسة متعمقة ، لكي نستطيع أن نصل إلى حقيقة نطمح إليها ، ونصحب ملحق إليه كثير من المصريين الذين كانوا يتحدون من سبأ الجنوبية فيما يشرهونه من آيات القرآن الكريم .

فلذا انتقلنا إلى الفصل الثاني من الكتاب ومثوانه « الشخصية المصرية بين تيارين » وجدنا المؤلف يتحدث عن تجارب المصري التي أدت به إلى حماية الحياة التي أجها ،



ومساقية الصف والغناء يشي
صورهما ، وإذا كان جوهر الشخصية
المصرية لم يتغير على مر الزمن ، فإن
صور التعبير عنها قد اختلفت ايجابيا
وسلبيا باختلاف توجهات الثقافات
والأثرات الاجتماعية . أما التيار
الأول الذي كان يتجاذب الشخصية
المصرية ، فهو تيار ايجابي متجاوب
ويتلخص في أن التشعب المصري لم
يستجيب في تاريخه كله إلا للفتن .
اللغة المصرية القديمة واللغة العربية
كما لم تؤثر فيه ثقافة في ثقافتين
الفتن . وأما التيار الثاني فهو
سلبى متشعب بمعنى أن التشعب
المصري لم يستجيب للثقافات الأجنبية

التي جلبها المستعمرون الغربيون
واليونان وغيرهم ، بسبب وجود قلة
ناهية بينه وبينهم ، ولهذا كان المصريون
يتجهون إلى الزمالة والتشكك بدافع
وطني وديني ، وهذا بين يوسف
وخلده أن العرب لم يكونوا مستعمرين
كالفرنس واليونان وغيرهم فدايل
تجاوب الشعب المصري معهم بوجود
أثر من أساس مشترك للتشعب
والوادة ، وهذه النواحي جميعا يكشف
عنها الفصل الأول من الباب الثاني ،
اذ يعتبر المؤلف رسالة الإسلام رسالة
إنسانية في نظرنا إلى الجسماء
والشعوب وإلى الفرد في ذاته بوعلا
وجدت طريقا سهلا يسورا في نفوس
المصريين الذين دخلوا في الدين الجديد
من رغبة وإيمان ، ولم يلبثوا أن
شاركوا في الحركة العلمية الإسلامية
مشاركة فعالة ، فظهر منهم يزيد بن
أبي حبيب النبوي الأصل الذي كان
علما من أعلام الحديث والفقه ، وظهر
مثمان بن سعيد القلق بورش وهو
إمام من أئمة القراءات . وقد كان
المؤلف في غنى عن الرجوع إلى كتاب
(صفحات من تاريخ الاستعمار) في
الحديث عن الفتوحات العربية ، لأنه
لم ينقل إلا القولا العادية جدا لانتساب
في الحقيقة لأحد ، لكثرة ما ترددت على
أفلام الباحثين المسلمين .

ولد سري في مصر التيار السني
منتصرا على بقية التيارات الأخرى .
واستوعب مصر من دراية وفهم ملحق
مالك وإبي حنيفة ، لم ألبت على
ملحق الشافعي . وكان مصر اسهام

كثير من التسلك الذين أطلق عليهم
اسم (البصاة) مثل مصطفى بن يزيد
المجلى والربيع بن خثيم الكوفي .
وفي كتاب الفهرست لابن النديم
وحليه الأديب أبي نعيم ، وصفه
السفوة لابن الجوزي نجد شرات
من الاسماء الدالة في الأجد
والتصوف ، وخاصة في القرن الثاني
الذي شهد تحول حركة الوعد إلى
زهد حقيقي ، لم إلى تصوف وتجريد
وان كان تكلمون يرى أن متصوفة
القرن الثاني طلقوا على ملحق أهل
السنة ملحقين قواعد الشرح ، وأن
تصوفهم لم تكن فيه صفات بارزة
يمتاز بها ، ولا وجهة نظر خاصة ،
بل هم وافوا في منتصف الطريق بين
الزهد والتصوف . وربما كان الفضل
وصف يعبر عن موقفهم هو وصفهم
بالرضا ، إلا أننا نعتقد أن هؤلاء الزهاد
قد تطور إمرهم إلى أبعد من ذلك ،
اذ بدأوا يرتبطون في جماعات متشددة
منتصف القرن الثاني الهجري تقريبا ،
في منازل خاصة وصوامع منزلة حيث
يسكنون بعيدا عن جلبة الدنيا
وفجبتها وفق مثلهم النفسية العليا .
وفي ذلك التاريخ نرى رباطا صوفيا
في عبادان حيث اجتمع ثلاثة الزهاد
الكبر عبد الواحد بن زيد وانتقلوا
من الحياة تجردين لعبادة الله
والوصول إلى نهج الحق ، وقدمنا
أبو الصائغ زهاد عبادان هؤلاء بابيات
منتبة في ديوانه .
وحقيقة أخرى ينبغي أن نذكر في

قوى في إرساء الدعائم الأولى للثقافة
والتشريعة في الإسلام ، حتى لقد
نشأت مدرسة فقهية مصرية يرى
المؤلف من خصائصها أنها كانت أكثر
أحياءا للآثار الروي من مالك ، ويقصد
بهذه المدرسة مدرسة يزيد بن أبي
حبيب القوي سنة ١٢٨ هـ . ملك التي
أفرد لها المؤلف فصلا مستقلا تحدث
فيه عن حياة يزيد وعلمه وتلاميذه
وخصائص مدرسته . ثم بين أن النشاط
العلمي لهذه المدرسة تبدى في عبادان
ثلاثة : رواية الحديث عامة ، والفقه
والتاريخ .

وعند المؤلف بعد ذلك فصلا عن
الاجتهاد الروحي في مصر تحدثت
فيه عن نشأة وتطور الزهد السني
في مصر ، فكان هناك صوفية في
الشمال يمثلون في الزهد الاسكندرية
حيث ظهرت طائفة من البصاة في
حوالي منتصف القرن الثاني
الهجري ، ثم تطور إمرهم بفضل
عوامل مختلفة حتى برزت منهم
كافة يامرون بالصراف ويهتدون عن
(افكر) اتفقت حول عيسى بن النكد
واعتمد أن هذه الثقافة من البحث
كانت بحاجة إلى دائرة أوسع للنشر
في تطور حركة الزهد في أهم مراكز
الحضارة الإسلامية في القرن الثاني
في العراق . فقد تجلى فيه الاتجاه
إلى الزهد منذ عهد الامويين
لارتباطه بالشورى على السلطة
الحاكمية ، وربما كان بدء ذلك في
أيام عثمان بن عفان نفسه وقد وجد
في العراق منذ القرن الأول الهجري

هذا المجال وهي أن طوائف الزهاد في هذا القرن لم يمارسوا الزهد بطريقة نظرية فحسب إنما لميلهم الطبيعي ، ولكنهم بدأوا يجعلون منه علما واسعا ويؤلّفون فيه الكتب التي تعدد طبيعتها مثل (كتاب الريدين) الذي ألّفه يحيى بن عسّال الرّازي التّوّبي عام ٢٠٦هـ ، ومثّل (كتاب الزّهد) الذي ألّفه بشر بن الحارث التّوّبي عام ٢٢٧هـ كما يثبّت صاحب التّهرست .

أما جماعة الأحرار المعروف والنهي عن المنكر التي ظهرت في مصر كما يقول الباحث - فهي تذكرنا كثيرا قويا بحركة (الطّويع) التي ظهرت في بغداد أثناء الفتن بين الأميين والمأمون ، إذ قام رجل يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه وأهل بيته وسعته على أن يملأوه على الأحرار المعروف والنهي عن المنكر ، فأجابوه إلى ذلك ، وشهد على من يليه من الفضلاء والنسابة - كما يقول الطبري - فجمعهم معا كانوا يمتنعون . ثم قام من بعده رجل يقال له سهل ابن سلامة الأنصاري فدعا الناس أيضا إلى ما دعا إليه خالد ، وزاد عليه العمل بكتاب الله جل وعزّ وسنة نبيه صلّى الله عليه وسلم ، وعلّق مصحفا في عنقه فأناه خلق كثير . فأخذوا يطوفون ببغداد وأصولها وأرباعها وطرقها ليمنعوا الطّواف التي فرضها السّاق ، وهي نوع من ابتزاز الأموال . ولعل طبيعة البحث كانت تفرض ربط هاتين الحركتين لملاحظة أوجه التأثير والتأثر بينهما فربما كانت الحركة البغدادية - وهذا ما اعتقده - ذات تأثير مباشر في مثيلتها بمصر ، ولو أنها حدثا في وقت متقارب .

وننتقل بعد ذلك إلى الباب الثالث من الكتاب الذي أفرده الباحث لدراسة الأدب في مصر بعد الفتح العربي ، وقد تحدث فيه عن القصص الرسمي الذي كان يستخدم وسيلة من وسائل الدعاية السياسية ، ثم تحول ليكون قصصا شعبيا ، وانتقل الكتاب نقلة كبيرة حين عبر العصر السنّي الأول ليصل إلى العصر الفاطمي حيث يتجسّد عن سيرة

عطرة ، فثبت بأدلة علمية قوية أنها كتبت في أيام الخليفة المستنصر بالله ، وأن صورة بطل السيرة فتتروا أنها هي صورة معتقة للمستنصر . بهذه الروح العملية الدقيقة ذاتها يتناول الباحث سيرة سيف بن ذي يزن لتتبع له أحاطته الواسعة بالفتن الشريفة أن ثبت أن هذه السيرة إنما كتبت تعبر عن صراع سياسي وديني بين سلطنة الكّلام المسلمة في غرب السودان ، والنوبيا قلعة المسيحية في افريقية . وكانت قد تألفت في أبان الحروب الصليبية قصة ملكة لانيوبيا يقال لها (ماريك) زعموا أنها ذات سليمان الحكيم في بيت القدس وأنجبت منه بالزّواج ولما يدعى (متيليك) تولى بعد وفاة أمه عرش النوبيا ، وواصل أن يعود النوبيا (الملائكة) قد شاركوا في نسج هذه القصة وشاعتها لتنعهم حقا شرعيا في حكم البلاد .

أما سلاطين الكّلام فقد استغلوا شخصية سيف بن ذي يزن الحميري الذي عرف بمدايته للأجانب منذ احتلوا بلادهم في الجاهلية ، لجعلوا عن هذاهم لانيوبيا التي تناهض حركة التّغريب والإسلام في افريقية . وفي هذا الباب نفسه يحاول الباحث تأريخ التّأثير المصري الصّريح ، ويصل إلى نتيجة مؤكدة وهي عدم وجود أصالة فنية مصرية في الأدب الصّريح . وكانت أوجوه أن يتقمى الكاتب الأسباب التي أدت إلى ذلك . في الوقت الذي نهد فيه الأصالة المصرية واضحة في نواحي الفقه والتّشريع .

وقبل أن أودع هذا الكتاب الحافل الذي يضم الوثائق والدراسات الفلّوة والأدبية والتاريخية أود أن أسجل بضع ملاحظات على ما جاء في الفصل الأخير من الكتاب . أما الملاحظة الأولى فهي خاصة بما أثاره المؤلف من احتفال كافر أبي تمام في صوره القصصية والشخصية بالقول في التّون لتصرى التي برزت فيها (صور من التّشخيص والتّجسيم الفنت بين التّصوّر والنعوى على نحو مظالم كما جرى به التّركيب التّقليدي القديم) ، ورأى أن هذا الاحتفال بعيد ، والأغرب أن التّصور أن يكون أبو تمام قد تأثر بمدرسة البديع التي سبقتها وكان من أعلاها كنفوس بن عمرو الغنّاي وتشعار بن برد وابن هرمة ومسلم بن الوليد

وإفراهم ، تلك المدرسة التي أنشأ إليها الباحث في البيان والتّبيين ، وكان محقا في أفراد هؤلاء النّسباء وتمييز مدعهم - وكانت عبارة هذه المدرسة بتأثير التّشخيص والتّجسيم واضحة كل الوضوح ، وخاصة فيها وصلنا من شعر يشاعر الذي بلغت الصورة الشعرية عند هذا من الرّوعة لاحتوائها على تفاصيل دقيقة ، واستقصاء صاحبها لتأثير التّجسيم والتّصوير . وتشاعر لا يترك الصورة دون أن يلج عليها برشة فنان أصيل يفسح كل لون في موضعه ، ولا ينسى أدقّ الأشياء ، وأهونها ، وذلك في مثل قوله :

شفت الشّواء على تنقّر حاجة
أو قوله :

ترجو غدا ولحد كعامة
في الخي لا يدرون ما تكد

وهو أجمل بكثير من بيت أبي تمام الذي أورده المؤلف لعبارة من مذهب التّجسيم والتّشخيص . والملاحظة الثانية خاصة بتحديث المؤلف عن السّجع ، فقد ذكر أنه استخدم قديما شذو المسيحيين أداة للتّشاعر في مواضعهم الدينية - ولكن الكهان في الجاهلية استخدموه قبل المسيحيين في جميع ألوانهم ، حتى نسب إليهم هذا السّجع من الكّلام ، ولهذا الظّهر الرسول سلوات الله عليه كراهته للسّجع ليما أثار عنه من الحديث (اسجع كسجع الكهان) حتى لا يشتبه كلام السّلمون بقول هذه الفئة الفاسدة التي كانت تسمى التّنبؤ والتّوسّطين العرب واليهود من الأصنام - وبهذا انقطع السّجع في أيام الرسول وأخلفاء الراشدين من الطّغاة والظّلمة الدينية إلا ما كان يأتي ظوا . بل يروي أن معاوية كان يعمل على كتابه جملة عبارات مسجوعة ، فغير من ألفاظها حتى ينفي السّجع عنها - هذا مع أن المؤلف يقول في كتابه أن السّجع لم ينقطع من الرواية العربية التّسبؤة التي يراد بها التّأثير على الإسماع في أي عصر من عصورها .

أما الملاحظة الثالثة فهي تتصل بتحديث المؤلف عن سيبويه المصري الزّاهد المخطئ المقل الذي حاول ابن ذؤلال مؤرخ مسيرته أن يبين سبب اختلاطه بوقوع حادثه له ، ورأى أن هذه الظّاهرة كانت تحتاج إلى دراسة أوسع لوجود كثير من غلاة الجاهليين في تاريخ الزّهد الإسلامي ، حتى أن ابن الجوزي عقد فصلا خاصا بهم في كتابه (صفوة الصّلو) ذكر فيه عددا منهم مثل سعدون الجنون الذي يقال أنه صام ستين سنة حتى غلظ دماغه ،

ومثل يهلول الجنون (وهو عمرو بن
الشرية الصغرى الكوفى) الذى كان
مهاجرا لهارون الرشيد وتوفى فى عام
١٩٠ هـ ، وينسب اليه كثير من الشعر
فى الاخلاق والزهد - ويقال انه كان
يسط الرشيد ويرفض عطاءه - ومن
شعره الذى يكشف لنا عن زهادته
الحليقة وتسامحه التيبيل مائة المحين
وعاد بطن الصبية بالهوى فادمنه
حماة :

حسبى الله توكلت عليه
من نواصي الطلق طرا بيديه

ليس للادب فى مهجـه
أبدا من راحسة الا اليه

رب رام لى باحسار الذى
لم اجد بدا من العطف عليه

ولهذا اعتقد ان سقوط سيبويه
الصبرى فى البحر ليس سببا حقيقيا
لاختلافه ، ما دامت توجد قشرة من

التصوف بهذه الكيفية - ويبدو لى ان
استراحهم فى الزعادة والفرقة الروحانية
هو الذى يؤدى بهم الى حالة الجنون
او لعلها حافة العقل .

ومما يستل هذا الملاحظة ما جاء
فى شرح المؤلف لنص من القوال سيبويه
وهو (شغلتم عن العلم اكل الفرايرج
والدراريج ، والتوم فى الدراويج ،
ودروب الهالج ، ومنع المعالجى ،
واباحة الفريه للماليج) ، ان الدراريج
(لعلها جمع دروج وهى الريح السريعة
المرود) واعتقد ان التوم فى الريح
السريعة المرود امر لا يتسق مع معنى
النص ، ولا يمكن ان يكون محل نقد
سيبويه الزاهد ، ولكن الكلمة معروفة
فى الغالب واعتقد ان اصلها الدراويج
جمع (درواج) وهو لوب مبطن يشبه
للحبال يليسه الانثى . اما كلمة
الماليج الواردة فى النص ، فهو
جمع غريب حقا كما يقول المؤلف ،

ديوان .. قلبى وغزالة الشوب بالازرق

للشاعر : محمد ابراهيم ابوسنن عرض : مصطفى عبد اللطيف السحرى

وكل شيء هاهنا يتم فى اوان . (١)
وإلى ابيات نائية ، يرد منهاها
وعوها وقوة فيقول :

أما رأيت المصلى طرفة العسر
وأيتها تجرها سباتك الخيول فى حقرة
اللقا

وشعرها ملبة فى كل زوجة السلطان
فستلم اليسدين فى دمالها
صلبت من أجل ان تصوت
لأهها تكلف الكثير
ومهرها هو الدعاء
وعرخصة الإبياء
ووقفة الطيول للخيول
ويمثل هذا التناول غير المباشر
للحرية القليلة جالدية هذا الأسلوب
وقوته فى مثل هذا الموضوع .

وإلى موضع آخر من قصيدته
« نرجس المدينة » : نراه يستخدم
الرمز الاستعارى فى تصوير المدينة

(١) س ٢٥ من الديوان .

والعلم ، والأسطورة ليشى أبصاذا
مكتفة لعمله الفنى ، ولقد يصير
تعبيره فى كثير من قصائده الديوان ،
بموضعه ، بل وإبهامه ، ولكن هذا
التمسك ، قد يتكشف بعد أعمال
اللحن ، وبذل الجهد .

فحين نقرأ قصيدته المونة نلاحظ
القمره قد تغلف بك الصخرة فيما
يقصد اليه ، ولكن بعد قراءة القصيدة
مرات يتضح انه يعنى بها « البحر » ،
واته يعنى فيها على الناس خصوصهم ،
ومستنتهم وخذوهم للهوان ، والفقر
والى أنهم أسلموا للفوق القادر
« طقة القمر » يتألهما بخبره وهم
رفود مخزون ، وفيها يقول : -

فانتم اسلمتم الى الصدو طلة القمر
اسلمتم عدوة الجدران للجدران
ينام كل واحد بقله ويصغى الدخان
وتهمون :
سيحدث الذى من اقدم الزمان كان
ولا جديد يستطيره الانسان
واتما السلطان من لا يعرف السلطان

شاه الشاعر الشاب محمد
ابراهيم ابو سنن فى ديوانه الكبير
« قلبى وغزالة الشوب الازرق » ان
يكون صادقا مع نفسه وزعامة امراته ،
صدقا حقيقيا ، غير حافل بالزخات
الجزارية فى المجتمع ، ولا آبه بالآراء
الشائعة فى البيئة ، ولا باختلاف
هذه النزعات والآراء مع الجمهرة من
الناس ، لشعوره شعورا عميقا بانه
يختلف عن هذه الجمهرة .

وشباه ان يعبر عن خواطره ،
ومعديه فى الواقع الكادى ، والواقع
النفسى ، تعبيرا مطلقا لا سار عليه
المطب الشعراء المصرب ، فى اتجاه
التعبير النهي ، او التعبير الرومانسى
نازعا الى تعبير اصيل جسيدي ،
جامعا بين الاسلوب الواقعى والخيالى
والرمزى فى وعاء واحد .

فاستخدم صورا فى مائه الفنى ،
متفاوتة الصلة ولكنها صور فى الالاب
الغالب ، جديدة وغير متروكة ، كما
استخدم الرمز الموضوعى ، والاستعارى



وخسدها بسلا ذنود
ونفسك الإنراب من فواميسا
لكنما الأطفال يولدون في بحيرة الشراب
ويعبرون فوق صفرها
نفساحه الصمىذاب
ويعبرون عندما تفيق من منامها
محتشوه بأوجع الآتين
امتصها حشاشي سوداء في الطريق
والنهر رغم صائه الكثر يكره الفريق

نقرأ هذه السطور ، فلامدى كيف
يعبر الأطفال فوق صدر المرأة الفلانة
الطاب ؟ إلا بتوهم وحيمان ، أن
أطالما يمتحن بصلراء ، لم نلتنى
بقوله بعد أن نهضت في ألم وحيرة ،
بان حشاشي سوداء في الطريق
امتصها ، وقد مضى بناويل بعيد ،
انها عرفت من أناس ، ولذلت بالمرء
الوحش ، ثم يصدمنا بعد ذلك مقبلا
على ماسلف : بان النهر رغم ماله

الحبة للمظاهر ، وناسها العين
لأنفسهم ولواتهم ، فيستمر المرأة
رمزا لهذا التصوير . يقول :

خسرت أشد أصحاب
رايتهم جميعهم يهملقون في المرأة
مدبنتي مدبنتي المرأة
تصيد العينون في صملا
مدبنتي من الصباح للسماء
تطسسل في المرأة
فنحن يا حبيبتي نعيش في حصار المرأة

والرمز هنا رمز متقن يفسى على
الفكرة رواد وطزاجة وقوة ، وهو
رمز قريب للالمان .
ولم يمر الشاعر على هذا النوع
الحبيب ، بل أنه لم يصدمنا في بعض
فصائده بالفصل يتحرر الكفن بل
البصيرة في تعرف عنها .

ونذكر مثلا لذلك قصيدته « طائر
الشياب » التي أمكننا بعد الفلطة
فيها ، أن نصل إلى أن الشاعر
يصور حالة الفتاة الرافية في اللذة ،
وتريد فنى احلامها فلذا ماسلتططار
منها فنى احلامها ، فينقلنا من صورة
تجرى في قلبها الباطنى إلى الحسرى
تجرى في ظلمها الواهى بسرعة زائدة ،
وصور وزموز متراكمة ، لم نستطع
أن نرى نقاط الاتصال بينهما ، وذلك
لعدم هيمنة الشاعر على مادته ، ولا
على بنائه وأجراء الفلصات الأخيرة
عليه . فلذا تركنا النظر إلى ثقتينا ،
ونقرنا إلى القصيدة كتجربة مثيرة
انتهينا إلى أنها غير موفقة .

ولنستمع إلى بعض سطورها من
مثل قوله :

ويعبر الربيع في عيون طائر الشياب
مسلماء صدرها بسلا قبسباب

ويعمل من موه من العجاج المؤتمن بها
إلى غايتهم . ويولور قصده في آخر
القصيدة إذ يقول :

مصباحتا لربة الشفق
قد نلتنى بمصافف لفسوب
والليل ربما قد يطلق الدروب
لكننا التساهل لا نكمل
نقلل نطقه الإسماء لتسكل
وبصدها وبصدها نصل (٢)

== ٢ ==

ولأنه أن نستورد في بيان رموز
الشاعر والفازة في ثقتينا ، مرجئين
ذلك إلى الحديث عنها عند التحدث
من موضوعاته ومضامينه .

وأول ما نلاحظ في هذا الديوان ،
أن موضوعه الرئيس هو رفض الواقع
الذى تعيش فيه القرية والبلدة على
سواء ، وليس رفضه لهذا الواقع
رفض الهارب المختل بل رفض الفكر



الذى يريد الهدم والبناء ، ولماذا
نراه يتحدث كثيرا عن الحزن ، الحزن
على ما يراه بنظاراته الزرقاء على هذا
الواقع ، فالحزن يجعل قصائده ، كما
يجعل نفسه ، ولم يخرج هذا الحزن
إلا العيش لحظات في رحاب الحب ،
وجمال الآتى ، وهى لحظات ، تبدو
بصورة خاصة ، قصيرة وسريعة .

فموضوعه الرئيسيان في هسدا
الديوان هما انكار الواقع ، وقبول
الجمال ، فالواقع جاف عقيم مجذب
والجمال في الآتى مشر ، الواقع
كألبال الجرداء ، والجمال والحب
يقربهما بالخر .

والحب الذى يقع علينا من الديوان
هو حب ظهور ، حب يصبو منه
الشاعر إلى تلويب همومه ، والتخفيف

(٢) ص ١٠٦ من الديوان .

الكثر يكره الفريق ، فلامدى مأسلة
النهر هنا ؟ وربما حتى ، أنه نهسر
الحية .

وبمثل هذه التخيلات التي شغلنا
بها الشاعر ، وتراكمت في هذا الجزء
ولى ليرد من أجزاء القصيدة ، أضاع
التجربة ، وأفسدها .

وقد تبدو قصيدته « العجاج في
الطريق » مريكة ، فهو فيها يصرى أن
أرضه مريضة ونهره جف ، والعيش
كلما ، وقرنته نام عارية لم تعرف
القياد ، ولا مخرج لهذه الحالة إلا
باللواء بجزيرة الشفق ، هو وكوكبه
مع ، ويلقون في سبيل ذلك الإلهاء
ولكنهم إذا ما وصلوا إليها بلقوا
مرادهم ، وتأخذ الحرة فيما مضى
بجزيرة الشفق ، ولكن القسم يعزل ،
تمتصاتهم ، إلا كان هذا أنهم صيحوا
أنها الثورة الحمرى ، فيها يصل

من آلامه واحزانه ، حب يتخذ وسادة
رأسه المثل بالتعصب ، وعكازته الى
الامل ، وزاده في رحلته الحزينة كما
يقول في قصيدته «الأسائي» .

حب يقتصر على النظرة في جمال
العينين ، وعلى لغة الكفين ولا يشي
بالضميمة ، او القليلة ، ففي العينين
زاده الذي يلوح في حداث العيون من
لمر ، ول الكفين وسادتين يبرح فيهما
الهموم في المساء كما يقول في قصيدته
اللطيفة « رسائل الى حبيبة غائبة »
التي جاء فيها قوله :

ههنا ما نظرت للنجوم
حبيبي وانت تعلمين
كليساك كاتبها وسادتين
اربع فيهما الهموم في المساء
عينيها كانت السماء
صبت حكمة الحياة فيهما ودوة المجنون

وهكذا اذهب شعره الغزلي بوصف
العينين ، واخذ يتلاعب بالآراء في
تصويرها ، فالعيناك معبدان يودو
رقد فيهما كما يقول في قصيدته «الرحمن
عليه» . والعيناك شرفان رحل
منهما الى العفول كما يقول في قصيدته
«الى مجهولة» ، والعيناك معززان
لهوى واغنية ، كما يقول ، في قصيدته
«العيناك» .

وليس في شعره الغزلي ما يستوفى
الالتفات ، فهو شعر اكثره فكري ،
وليس فيه دفء ولا حرارة الحب كما
قويا . ولكن ما يستوفينا فيه ، هو
دلالة هذا الشعر على نوعية حبه ،
وهو انه حب عفيف ، قصد به اذابة
الهموم ، والخلاص منها كما اسلفنا ،
وهذا ما يتضح من قصائده الجميلة
التي قد تعد في نظرائها خير قصائده
في هذا المجال « السافر وفروزة
البحار » التي انطت الفروزة فيها
رمزا لصديقة لاقاها في احد الشوارع ،
وفي آخرها يقول :

فان انساك اجلسيه
واسمعي جبينه وخفي متاعب الرجال
فالبهر قد انساك من بعضهم
والحزن خلفه يقول الجبال

ويمكننا ان ندخل قصيدته التي
عنون بها الديوان «القبلي وغزالة الثوب
الازرق» ، من بين قصائد الحب
وان جمعت أفكار أخرى والذي

على وفائها . وانتصر على اسدائه ،
وعاد الى ملكه وسعود الشاعر مثله
ليجسد بلاده مزدهره ، وبصرارها
فياسة المياه ، وسيمر قلبه على ثوب
الزرق !

هذه الشطحات هنا وهناك مزقت
هذه التجربة الانسانية الكبيرة ، لان
تداعياتها غير متواصلة ، ولا متحمسة ،
بل كتبت في اعمال ، وكيفما اتفق ،
يلم ثات من قلب الفكرة التي يلج
الاعراب منها .

والا كانت اللوعة او الضائقة
تكشف دائما من فكرة الشاعر ويلووها
لان لوعة القصيدة كانت لوعة شميعة
ولتستع اليه يقول :

اما قلبي فيسير في غابات الموز
على نسوب الزرق
يسمى الرحلة باسم الانسان
ولكن يفسر
سيفيل على ابواب الغيب يسدق
وسيتج كل الشرفات الخضراء على
الشرق

ثم يقول في وصف وانظاف :

اما انت ايا غائلة الثوب
انمي الثوب الازرق !

فالتجربة طيبة ، والبناء مخطط ،
والاسطورة التي الى بها تنسوية
التجربة لم تطلع في هذه التقوية ،
والسفران الاخيران اللذان ينهلان
يكونا قوين ومؤثرين كانا ضعيفين ،
بل متخلفين . واود ان اقول ، مخلصا ،
ان الشاعر مع ما تشعره من وزن
شعري مقدور ، فانه يعمل في مراجعة
بناء طلائع من قصائده ، فيسهر فارقة
بعدم التسلسل المنطقي او التسلسل
الشعوري فيها . وستحدث من هذه
الناحية فيما سيحبر .

- ٢ -

والا كانت قصائد الشاعر الغزلية ،
قصائد لم ذات اهمية كبيرة ، فان
قصائده في الفكر الواقع ، وابداء
العزف على حال قريته ، بصرف النظر
عن اختلافنا معه في هذا الابتكار ، فان
بناء بعض هذه القصائد ، القسوي
فنا وانفن مما في قصائده الغزلية فهي
قصيدته « التهر والذين يعبرون » ،

ليمنه منها بعد اجساد ، ان قلبه
المذنب ، قلبه الصارى ، يريد ان
تكسو الحبيبة بثوب الحبة ، وانه
يريد منها بعد ان ودعا لقلب الرزق ،
ان يعود اليها فيجدها قارة على حبه ،
وهو في الاعراب عن هذه التجربة ،
لم يقتصر على التعبير منها تعبيرا
ذائبا ، بل اراد ان يجعل منها تجربة
بشرة شاملة . واستعار لهذه
التجربة اسطورة الملك اوديسيوس ،
الذي بعد حرب طروادة ورجوعه الى
بلاده ، جرفت الرياح سفنه ، واظقت
به الى امكنة مجهولة ، وبعد حبة
عشرين عاما ، عاد الى بلاده ، وكان
قلبه في هذه الفترة يعود حول زوجته
«بنولي» ، التي اذهبهم حبسوليا
الخطاب ، وقلها ملق بزوجها فكانت
تملهم الى ان تسج الثوب الازرق ،
ولكنها كما تقول الكرافة ، ما كان
بدا في نسجه حتى تسجل الخطوط
فتعود الى نسجه من جديد ، وبقيت
على هذا الحال ، حتى عاد زوجها .

حاول الشاعر ان يفسر نسج هذه
الاسطورة الى نسج فكرته ، ليقربها
ويمتدحها اماديا انسانية فسيحة .

ومحاولة لقلب الفكره بالاسطورة
واعطائها امادا جديده كثنويتها ،
محاولة طيبة في ذاتها ، على شرط ان
تكون الاسطورة معروفة ، وان يقرنا
الشاعر الى تعرفها ولكنه لم يستطع
ذلك .

فلقد اخذ يقول وينور هنا وهناك
الى غير غاية ، فهو في البداية يقول
ان قلبه مذنب عار ، عار فوق صفاف
التساريف يظهر ويقر ، منذ كان
يتألم في السطح هدير الطوفان .

وينقلنا الى روما ايام نيرون ،
ويكشف من عذابات قلبه لظلمة ،
ومظالم الظلمة ثم يتعب بعد ذلك بان
قلبه مذنب لعال بلاده التي جفت
بحرائها ، ثم يدخل في التجربة التي
حاول الاعراب منها ، فيذكر انه هجر
الدار ليترك باب الرزق ، وظل من
يهوى ، تسأل عنه الغرب وتسأل
عن الشرق ، كما يقول ، واستعار
اسطورة اوديسيوس وبنولي ، ويقول
انه سوف يعود متصرا ويعد حبيبته ،
كما عاد اوديسيوس ، ووجد حبيبته

وكما تناول الشاعر مأساة الغربة برؤية قائمة ، فقد تناول كذلك مأساة الأفراد في القرية ، يروح نالسيده ، فتحدث عن خادم العمدة «جابر» الذي كان يعمل في الحقل ، وفي البيت فينظف ويمسح الأرض ، وينظف المائدة وفي أثناء عمله في الحقل ، وفي تنظيف البيت ، وأعداد المائدة لكفسيوف مات ، واخذ الدموعون يتناقلون الحديث هنا وهناك ، ولم يخطر على بالهم «جابر» . وقد استخدم الشاعر القصة في بناء هذه القصيدة وأسماها «من صور الاطعام» ، ولكنه لم يوفق في خلق الانفصال المؤثر على هذه الفكرة .

وبعدنا في قصيدته «الرفقة» في مدينة الغربة عن خادم تعمل بالمدينة ، نقوم بأعمال المنزل ، ونمسح الأرض في الشتاء القارس ، ونشمر بفرقة في المنزل ، ويقص حالتها النفسية قصا مؤثرا بطريق المونولوج الداخلي أو نيار الشعور .

فهذه ذي الضامد تقوم بعمل القوة ، فتستغل الفروع من مينها ، وتحلم بقرينها وتشكو حالها في الحظايا إلى أمها ، فهي سجيبة ، ووجوه الناس لا تعرفها ، وهي قد كبرت ولا تجد من يعرفها ، وقد تجاسرت يوما ، فاصطفت بالناس ، ولكنه تنكر لها ، لأنها فائرة ، وتود العودة إلى القرية ، لأن الناس لا يتجاوبون معها ، لأن الفقراء هناك لا يخالطون الفقيرة .

وقد أدى الشاعر القصة أداها وبها وان كانت تحتاج إلى لمسات تشذيب بعض سطورها فهو يبدأها بقوله :

« كانت القوة تظني وبداها تنسجان » ، ولا معنى للنسيج ، في هذه الآونة . وقسوله «عانت القوة تعسر» ، فتسلت بالكانا ، ولم يقل لنا في البداية أنها كانت تنفي . وفي قوله « وأنا وحدي شديدة » ربما كانوا جميعا شهداء .. تناقضي ظاهر لانها هي الشاهدة وحدها ، والآخرين في الدنبة غير شهداء . وأرى ان من واجب الشاعر ان يحاسب نفسه على كل لحظة وبشارة ، لأن القصيدة تنقية وتكثيف وتركيز .

ولعل أروع وأقوى قصيدة له في هذا المجال الذي يعبر فيه عن رؤيته القائمة للريف هي قصيدته «الافنية المرحلة» - حيث يجري فيها حوارا بينه وبين حبيبته التي انقلب اليه ان يقضي اغنية مريحة والا يعمل هموم الدنيا ، فردد عليها بان عليه لا يطاوعه لأن في القرية جفد ، وهو في هذه المناسبة يستخدم أسطورة أوزوريس ، المصرية القديمة في تقوية رؤيته ، ويقسول لحبيبته أن أوزوريس اله القصب قد مات ، وزوجته ايزيس كتبت ترحمت عنه ليحيد إلى الأرض خصيبا ، ويعود أوزوريس إلى الحياة بقوة الظلم . وقد وفق الشاعر كل التوفيق في تكثيف هذه القصيدة ، وخلع عليه أبعادا جديدة .

اسمع اليه وهو يتأني ان يقضي تحبيته اغنية مريحة :

لكن ياسوستي لو كتبت آتيت إلى أرننا

لو كنت رأيت جنسائي أوزوريس كل القرية كانت تبكي نوحا أخضر أوزوريس الأخضر كان يسبح في الاتحاد الفجر هناك لم يعرف لنا .

الأيام وما أكثرهم قابوا حزنا ما أكثرهم جود يا أوزوريس .

لم نراه في صلب القصيدة ، يأمل عودة أوزوريس ، أي عودة القصب التي قرينه فيقول على لسان زوجته ايزيس .

عسست لي يا أوزوريس الأخضر عسست لي فك حنسا ج كل الطير عسست لي سوف تهزج بأيدينا هكذا الكون الأصغر عسست لي كي ينبت قمح ليسامي هذا السوادى ما أكثر أيتام القوادى يارب الأرباب وبني القصيدة اتاه جعلا حيث يقول من حيث أيتما :

- من أجمل القصب أوزوريس لست أطبق ألقى ياسوستي المرحه من أجلك وحسبك اغنية مريحة !

وليس شك أن هذه القصيدة هي خير قصائده في هذا المجال ، كما أنها من أجمل الدرد في هذا الديوان .

يتحدث عن حال الصياد في القرية ، والتجاع في الدنبة ، والجندى المحب الذي يغيره رسائل الحب في التراب ، ونشعر في هذه القصيدة بجسوا المأساة ، وبخاصة في وصفه لحال الصياد بالقرية التي كنا نود أن يقتصر عليها ، ليعتد وحدة التأثير . وفي هذا الجزء يقول :

رايتهم هنالك يعبرون في المساء ميونهم فجعة بسلا عزاء خيولهم مهموسة غريفة الآن باولها في صمتها الكتيب كاللسان قابلتهم أولئك الذين يصبون حزنهم على الجفاء على الجفاء

شباكهم مشدودة إلى الصخور في القفار

والبحر كالسما واسع بسلا قرار وكلما يسر شياؤه قسديم يتكلمون العبارة الطقوس وينشدون

لاشء غير حزننا يظل الطريق الحزن وحده هو الصديق (١)

ويعاود دلفي الواقع الصلي في قصيدة أخرى هي ، قصيدة «العبور والحلم والنور» وهو يصور فيها حاله عبور ، ويشبه قرينه بها ، عبور تمزقت من الفجر ، والعبور تعلم بأن زوجها عاد ، وأن الحياة ابتسمت لها ، ويلهب الحلم ، وتعود إلى حالها الأليم الفنية . وهكذا حال قرينه .

وفي هذه القصيدة نراه يمزج الحلم بالواقع ، ليعطي صورة للقرية الحزينة ، التي تراودها أحلام جملة هاربة ، لا تلبث ان تطوف بها هينة حتى تزول ، وتعود الدنيا في شئها سوداء أو كما يقول « يصبح القمر زجاجة سوداء من رعاد » .

وهذه القصيدة ، وإن استخدم الحلم في تقويتها ، فإن قارئها لا يشعر بجو المأساة في القرية . لأن الشاعر يترج دائما إلى الصور بعيدة التصور ، كما رأينا في الصورة السابقة صرورة القمر زجاجة سوداء من رعاد . ولو استعمل الشاعر الصور الحسية الواحية ، لكان لشعره تأثير أقوى .

ولم يقف الشاعر عند رفضي الواقع،
وبيان مأساة الصائتين في الريف ،
ولكنه نظر نظرة نافذة صارمة الى
أخلاق سكان المدينة ، وسلوكهم ،
فهم نهائون ومنافقون ، في قصيدته
« الذين يسرقون حبيكم » - وهم
أنانيون ، نرجسيون ، محبون للمظاهر
في قصيدته « النرجس والمدينة » - وهم
منافقون يهبون أنفسهم في قصيدته
« الذين يفتنون لفرع ياولتي » ومن
خير فصاله في هذا المجال ، قصيدته
« النرجس والمدينة » التي أشرنا اليها
في بداية هذا الحديث ، ويصف فيها
سكان المدينة بأنهم أنانيون ، محبون
للمظاهر ، يملكون دائما في المرأة
فهم نرجسيون - وقد بدأ هذه القصيدة
باسطورة ناركسوس الأغرقي الذي كان
يشتق ذاته ، والذي وقف يوما على
الشاطئ، فرأى في الماء صورته ، فأحب
جمال الصورة ، وصبا اليها فغرق
في الماء ، وقد روى هذه الاسطورة
مستقلة كخرقة للقصيدة ، ليوضح
فكرته من رجال المدينة ونسائها ،
ولم يدمجها في بنية القصيدة ، فكانت
أشبه بالتعليق لها .

ويمثل هذه النظرة القسائية ،
رأى الشاعر في سكان المدينة ، بنظرته
الرغبة الساذجة التي تدب بالمثل
الرقيقة ، فحمل عليهم ، واقتل
برمه منهم ، لأنهم يظهرون غريزات
وتلاقيون في نفاق ، ويكتمون ما يجول
في نفوسهم خوفا وخرقا . وكل يعيش
لنفسه . وأعرب الشاعر عن هذا
التورم في قصيدته « المرأة » وهي
تجربة جديدة حادة عبر فيها الشاعر
عن خواطره في توتر وحدة . وبدأها
بنقطة مؤثرة حزينة .

في صمت أحمل كفتك
وأخسبسل
لاقصيرك
سوف يصلي من أجلك
لاقصيرك

فانتاس هنا متكفون على سر
لا أحد يروح
ومدنتنا صوت مبوح

قبضة شيطان يرفض فيها القصر
شعر مر . (6)

وهذه القصيدة في رأيي ، من أقوى
قصائده بقاء ، وأحلاها تسجيلا ، ومع
هذا فإن بعض سطور زائدة تسربت
فيها وكان يمكن حذفها ، فلا تعرقل
حركة القصيدة عن الإنطلاق .

ومن مثال ذلك ما جاء في هذا المقطع :
لا أحد يقول حقيقته
والزمن توقف في منتصف الليل
صالت تحت الفرسان الخيل
الويل الويل

إن قال حقيقته

في كلمات تحمل بعض الفسيفساء
فالكلمات هنا من جسد يشقق
ينزف منها الدم

فترى السطر الثالث من هذا
المقطع « صالت تحت الفرسان الخيل »
سطرا يوقف حركة المقطع ، وهو
سطر لا يوضح الفكرة ، بل يبلبلها لأنه
صعب التأويل علينا .

لم نواجه يتابع هذه السطور ،
معبرا عن صباغ الإمل .

ومقابل المتناقض على سور حديقهم
لنمزي

والإبحار محال

الإبحار محال

لا أحد يملك بروميثيوس السوتق
لا أحد يشير إلى الميتاء
فأراه يقيم هذا السطر « لأحد يملك
بروميثيوس السوتق » ليقوى فكرته
باسطورة بروميثيوس .

ونرى أن هذا السطر يعرقل
التسلسل ، أو على الأقل هو نوع من
التعريض واستعراض الثقافة وصايرة
« الونة » الجديدة التي ابتدعها
ت.س. اليوت وأمثلة ، ولا حاجة
إلى هذا السطر ، لأنه من التوافل في
القصيدة .

وإذا غلبنا النظر عن مثل هذه
الشكليات الثابتة فإن القصيدة
تجربة في ذاتها جديدة وناجحة كما
اسلفنا القول .

ويبدو أن الشاعر بعد عزله ،
ورفضه للواقع رفضا كليا ، ونظره
إلى التناس نظرة تتم على الانعزال
وعدم قدرته على التواصل مع البيئة ،
أخذ يتحول رويدا رويدا في فترة من
فترات حياته إلى النظر إلى الواقع
نظرة فاحصة جديدة ، فرأى أن من
أسباب شقاء بلاده وجود الفارق
الطبقي الكبير بين « الفنى والفقر » ،
وبين أبناء القرية وأبناء المدن ، ولغاية
هذه المرحلة تكشف منها قصيدته
« العبة » « والقرية المرتعشة » .

فمن خلال لعبة يريها صبي فقير ،
كشف عن الفارق البعيد بين الفنى
والفقير فالشاعر في هذه القصيدة
يقول للمصير الذي يتلف لائتساء
عروسة جميلة غالية :

مصيري المزي أنت تجهل الكثير
نى أنها لأخسرين عسرنا
لأخسرين يملكونها وملكوتنا
وسرقون عرنا

وبل الطريق لا يرونا
جوبهم بطيل من عينها الذهب
ثم يقول :

فلك لعبة كبيرة الثمن
لطفة من حصر جنسنا
وأومعها الكبار يملكونها
ويعلمون عالمنا من الذهب
وعالمنا من الرقيق مثلنا
فنستطيع أن نشعر
تقول يا أي ، فيشتري لها قمر !

والقصيدة جيدة فالتات على صورتين
متناقضتين لحال الفنى والفقير ، ومع
هذا فلم يسلم بشاؤها من الصور
الصغيرة الذهبية الجيدة التصوير ،
واستخدام مثل هذه الصور ، شائع
في شعر محمد إبراهيم أبو سنه ،
وهي صور وإن كانت أصيلة في ذاتها
إلا أنها لا توضح المعاني والأفكار في
القصيدة فزعيمها مملوسا ، ومن هذه
الصور قوله في أول هذه القصيدة :

« أهله « العروسة » التي يسيل
فوقها السناء ، وهي بداية لائتساء
حواصنا ونجطنا ننظر إلى جمال
العروسة ، بل إلى جمال الصورة .

ومن هذه الصورة أيضا التي جاءت

في وسط القصيدة كانها فيها عن حال
القراء :

لسمح كانها فيه بلا لحاف ،
كسوة مريزة بلا سماء
كانة حزينة بلا انتهاء

ومثل هذه الصورة التراكمة وإن
كانت أصيلة في ذاتها وغير مطروقة ،
فإنها لا تقرنا من هؤلاء القراء ،
ولا نقوى شعورنا بظلتهم الناعسة ،
بل تبدو وكأنها نوع من الزينة .

ولهذا طألتنا الشاعر في موسوع
سابق باستعمال الصور القصية
الموحية ، والصور الواعية التي تصل
بعبارة البومية ، فمثل هذه الصور
تكون أشد فاعلية في القلب والذهن
مما .

وفي قصيدته « القرية المرتشدة »
نراه يجري مقابلة بين حال القرية
الناعسة ورجالها الضالين وبين رجال
المدينة ونسائها الذين يتمنون بالزهد
والترف ، وينتهي في هذه القصيدة
بدعوة رجال القرية إلى تبيد ظلامها ،
ورفع الجليد المتكاثف من حولها .

والتميز في الجزء الأول من القصيدة
تعبير مهتز مثل فنجد يقول واصفا
حال القرية :

وعلمها يؤقت الجليد
والرياح عامها
تكاد لا تلم هناك صبيب
وعامها الطويل الف
وعامها القصير لم يزد
وربما بجي ، صبيب



وعانى هذه السطور تحمل إلى الدهن
الاضطراب ، فقام يؤقت للجليد
والرياح عامها ، وعام طويل بالقصير
وعام قصير لم يزد ، فلا تجد في هذه
السطور إلا لعبا بالآراء .

وله جاء تعبيره في الجزء الثاني من
القصيدة إذ يقول مبررا عن حال أهل
المدينة :

هناك يا نساء قررتي نساء ،
الهم ما سمعن عنه ، لم يطف
ببالهن ، ما سمعن بالنساء ،
تصبح في خدودهن حمرة النداء
هناك يا رجال قررتي رجال
وجوعهم كالنظن في اليأس
ثم ينهي هذا الجزء بقوله :

لنقرى يا قررتي في هيكल النساء
ولقبي بفاسك الجليل
لمسوف ينتهي اليأس ،
وبداين من جديد I

- ٧ -

وتحول نثر أبي مسنن في هذه
الفقرة إلى لون نثري ، فحين عفا يقته
قلبه عن حب عميق للناس ، ولكنه
يحب في أثناء ذلك بالأسى لأن حبه
لا يتحول إلى أعمال ، وتمثل هذه
الحالة الجديدة قصيدته « يا قلبي »
التي بدأها بقوله :

ما أجهل يا قلبي أن تلهث خلف
حياة الناس

منقطع الأنفاس

تصل في كل عيون أذيلها الهم
وتجلف من فوق جراحت الناس الدم
ثم يصور قلبي بصورة قريبة إلى
الذهن والحق يقول :

يا متدبل العطر الفاحك
في أيدي الحسناوات
يا لون البسات
يا لون الصحن الفخرا
إن كنت تصب

بالون البعصة في عين يتيم فقد الأب

ثم يعاود إبراز حبه لبعض الأفراد
التاسعين :

يقول :

كم تلهث في كل مكان تلهث احلامك
كم تاكل أيامك

في باخرة لا تبصر عند الألق شواطئ
وتصود ترف على عين صافي
مات أبوه

جنة حر قد شمسبتوه I
ثم ينتهي في هذه القصيدة الجميلة
بإهداء أساء ، لأن هذا الحب ، ليس
إيجابيا ، يقول :

لكن عاذا يجدي يا قلبي حيك
والريح ذراع فوق الباب
الريح سواء ذاتك

ثم ينهي هذه القصيدة بقوله :

والحب طيور لا تلت في أيدي الريح
سيظل هناك يا قلبي إيسم

وهذا الحب الذي يطلق في قلبه
للناس ، و لا يقدر على ممارسة دواعيه ،
هو ضرب من الفرح الباطني يمازجه
الأسى ، هو في اعتقادي منتهى الحب .

وقد جلاه في قصيدته العلوة الآسرة
« دعوة إلى القيد » وهي قصيدة تروى
في جهر تحول الشاعر من الرقص إلى
القبول ، تحول فكرى ، وقلبي معا ،
وهي أشبه بالإعتراف ، حيث ينشأ
الشاعر فيها بأنه هجر اتجاهه الفكري
الذي كان يعتنقه ، اتجاه كان يجعله
في دلب الناس في غربة وشياع ،
واتجه إلى والده وإلى شعبه . فوجد
نفسه وعرف دربه .

وبدا هذه القصيدة بقوله :

يا شامي المعبود هددني الصقيع وما
التفت بغير حيك

أنا صيحة الثلج العظم فوق قلبك

أنا قد عرفت الحب يوما

قد عشقت بغير دريك

ودفعت قلبي كالشرع بكل ذوق .



له ما في شعره من وزن فكري مكنون
ومن أصالة موسيقية ، وحسن
استخدام للرموز الكثيفة ، وأهم من
ذلك كله نزعته المستقبلية وبمده من
الحساسية والتقليد في موضوعاته
أو أسلوبه ، وهذا ما يجعلنا نقول بأن
الشاعر محمد إبراهيم أبو ستيف
يشق طريقه في أحسن وتوفيق ،
إذا تلازم مع واقعه ، وهبر عنه
مصوراً أو حافظاً إياه إلى التلصص
كما رأيناه في فترة من حياته في
مثل قصيدته المتأخرة « عودة إلى
المسيد » ، ولتنا وطيدة قائمة على
ما نعرفه فيه وما نسته في هذا
الدبوان من ذكاء ، واعتداد غنيب
بنفسه ، وظوح بعيد ، وهي صفات
عقلية وذاتية ، سوف تجعله من نجوم
الشعر، اللامعين الرموفين في سماء
شعرنا الحديث .

قصيدته « من صور الانقطاع » ودينية
في مدينة القرباء ، وثاقه للواقع الجماعي
في مثل قصيدته « اللعبة والقريبة
المرتحة » واتجاه ثاقب لبيكولوجية
النفس وخلقه في مثل قصيدته
« الذين يرقون حيك » و « نرجس
والدينة » وغيرها من القصائد ، من
مثل « من قرنتي إلى مرهفة » ، واتجاه
واقعي متفائل ، يبدو في قصيدته
« يا قلبى » و « عودة إلى العبد » .

وتتخلل هذه الإنجازات نزع ، ولا
القول الجاهل إلى قبول الحياة في ظل
الحب والجمال الأنثوي .

وفي القصائد المبكرة عن هــ
الإنجازات يوجد في طائفة منها ونذكر
بخاصة « الأغنية المرحية » و « السر »
و « طفلة القمر » و « حب فدفه »
ومسألة إلى حبيبة غالية ، وعودة إلى
العبد ، وغيرها من القصائد .

ولقد أخذنا على الشاعر ، إنه يهمل
في إجراء المصاحبات التهذيبية الأخيرة
بعد الانتهاء من كتابة قصائده ، كما
أخذنا عليه أنه ينزع إلى الصبور
بعبء التخييل ، والتقى لا تتصل بالواقع
وتريقنا بالحيلة اليومية ، بما يوهن
تأثيرها في التلقي ، كما لاحظنا عدم
اهتمامه بجمال التركيب في كثير من
نميراته ، ولا مجال لبيان ذلك ، فهذا
شيء يطول ذكره ومع هذه الهفوات
التي يمكن علاجها ، فانا لنعيد

ويستعد ذاكرة أن قصائده الذاتية
في الحب ، والتي تجاوزت حباً للشعب
كانت ناصلة اللون خافتة اللون ،
فوسدها الظلام ، وما هو ذا الآن وهو
يشتى للصوص وللشعب ، عادت إلى
قصائده النضارة ، وإلى نفسه الأنسى
والطائفة والأمل حيث يقول في ذروة
قوة جميلة ملاعباً الشعب :

لماذا أنا بشجاع حبك اعتدى
وإذا هنالك في صفائك مسمى
النجم يكتب في جبينك كل أحلام الفد
بعمرة العرق الملقى قد غسلت أنا
يدي !

وبهذه القصيدة الجميلة ، موضوعاً
وشكلاً ، وجد الشاعر نفسه ، ووجدنا
الشاعر في بانه القوى ونغماته الدالة
بالقلوب والأفان .

- A -

ولا نستطيع تناول باقي القصائد ،
وحسبنا أننا تناولنا طائفة منها تحدد
إنجازاته وتكشف عن فنه ، اتجاهه
الرافض في قصائده « النهر والذين
يعبرون » و « المجهول والحلم
القول الجاهل ، إلى قبول الحياة في
الطريق » و « الأغنية المرحية » ،
وغيرها من القصائد التي لم نتناولها
مثل قصيدته « الوفاء والقيام المهاجر »
« واتجاه ثاقب للواقع الفردي في مثل



عالم كولن ويلسون

تأليف: سيد في كامبيون عرض، على كمال زغلول

انفق بعض المال في شراء بعض المواد الكيميائية لعمل الذي انتمى فيه في إحدى العجرات الخسائية بالنزل، وكنت أظني وقت فراغي في قراءة بعض الكتب التي كنت أستعيرها من المكتبة العامة. وهكذا استطعت أن ألق نفسي بنفسي، ولما كانت بي رفيعة في أن أصبح ذات يوم كاتباً مرموقاً، لذلك كان يحتم علي أن أرفض أي وظيفة محترمة، أو أية منحة دراسية جامعية. وعشت عيشة المشردين حتى نشر كتابي الأول.



يبدأ الكتاب الذي سرهه يحصل يحيى قصة لقاء سيدني كامبيون بكون ويلسون الذي تزينده على قلبه سيدني كامبيون، وكان قد أعجب بشخصية كولن ويلسون وكتاباته، ففرغ في أن يبحث له عملاً نصلياً. ومن لقاء الاثنين ولدت فكرة هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

وفي الفصل الثاني من الكتاب وعنوانه «الطفل غير العادي» يقص المؤلف قصة ويلسون من أولها فيقول:

«ولد كولن ويلسون في السادس والعشرين من يونيو سنة ١٩٢١ وكان طالاً مزعجاً لا يكف من الصياح والحركة

بحق يمتد عينا وشاملاً لشخصية اللائحة في الأدب العالي، بحيث يصعب علي من لي مثل سمع أن يأتي كتابه على هذه الدرجة من العمق والشمول. وإتنا لنجد في صهرنا هذا كثيراً من الأدباء المشاهير ممن في مثل سن كولن ويلسون ممن يشتهرون بكتابة القصة العصرية أو الطويلة أو قرص الشعر، دون أن نجد من بينهم من يرجع شهرته إلى أعداد مثل هذا البحث الموضوعي الشامل الذي نحتاج كتابته إلى الرجوع إلى العديد من الكتب والمراجع للاطلاع عليها ونلهمها. وقد أثار ذلك فضول الكثيرين ودهشتهم من ذلك الشاب الحديث السن الذي استطاع أن يقرأ كل هذه المؤلفات ليعد منها كتابه من اللائحة.

من أجل هذا ألف سيدني كامبيون كتابه «عالم كولن ويلسون» الذي نعرض له الآن. ولقد قدم كولن ويلسون للكتاب بقوله:

«لقد انعمت دراساتي الثانوية وأنا في السادسة عشرة، ثم قمت ببعض الدراسات المسائية لمدة ستة للحصول على إحدى الدرجات العلمية، وكنت اشتغل ببيع الصحف، ولما لم يكن أبي وامي في حاجة لما حصل عليه من تقود فقد أتاح لي ذلك أن

ألافت الترجمة العربية للكتاب كولن ويلسون الأول «اللائحة» (١) نجاحاً غير عادي لدى القراء العرب، فقد ظهرت له في بيروت ثلاث طبعات متتالية كذلك لم يكن حظ كتابه الثاني «سقوط الحضارة» من النجاح بأقل من حظ كتابه الأول. ولم تلبث ترجمة روايته الأولى «فنتوس في الظلام» أن نشرت وتلقها قراؤه بشغف كبير.

وبدل النجاح الذي لاقته كتب ويلسون الثلاثة في العالم العربي على حاجة مجتمعنا المتطور إلى مثل هذه الكتب التي تلجج أمام شبابنا مجالات أوسع وأغنى جديدة في عالم الأدب والفكر.

ولم يتحرم نجاح كولن ويلسون على الشرق فحسب، بل تعداه إلى الغرب فقد لاقى نجاحاً متقطع النظر في إنجلترا وأمريكا وألمانيا على وجهه الخصوص. ومنذ أن نشر له كتاب «اللائحة» عام ١٩٥٦، والحديث عنه وعن الكتاب لم يتقطع في الأوساط الأدبية والثقافية في لندن. فالألف لم يكن قد تعدى الرابعة والعشرين من عمره عند نشر الكتاب، الذي يعد

The Outsider 1956 (١)

ترجمه إلى العربية أنيس ركي حسن، ونشرته دار العلم للملايين.

يلجأ أبناء من حوله ، ولكنه بعد أن بلغ العاشرة هربا وأصبح يحب المزاولة ويكره الالتصاق الجماعية ، فكانت كرة القدم في نشره وهو في العاشرة عشرة عبارة عن «أناشيد مسطوح يماردون كرة من الجلسه» . وحتى السادسة عشرة غنى ويلسون حياته في شجار دائم مع أبويه ، فقد كان يقضي معظم وقته يترأى في فراشالامر الذي لم يترأخا له . وفي نهاية علمه السادس عشر فشل في الحصول على شهادة انعام الدراسة الثانوية ، فعمل في مغل للصفوف حيث كان يشرف على مغل العائلات ويزن المصروف قبل تسليمه لهم ، وبعد استلامه منهم ، وراى والده أن هذا الفشل دليل آخر على أنه غير صالح لشئ . وكان هذا العمل يستغرق وقته من الثامنة صباحا حتى السادسة مساء ولكن يقضي كونه على المال الذي كان ينتابه أثناء عمله فقد أخبط يخطط لشروحاته الأدبية . وكانت اولي أعماله قصة قصيرة بعنوان «آلة الجوه» (٢) ومسرحية طويلة من ثلاثة فصول بعنوان «أب وأبن» (٣) ، وهي مستلهمة من مسرحية برناردشو «الانسان ، والانسان الكامل» (٤) ، وفيها يعاول كولن ويلسون أن يوازن بين تطلؤل برناردشو ، وتشاؤم ت.س. اليوت .

ولم يستطع ويلسون أن يستمر في عمله بالفزل سوى بضعة أسابيع ، سئبه بعدها وهجره ليحتك في حجرة بومه حيث انصرف الى كتابة مسرحية وفراة اشعار اليوت وقصيدة مقلون الشهيرة «الفرديوس المفلولة» .

وكان ويلسون يترد من أن لاخر على احدى المدارس القريبة ليستمر منها بعض الكتب المقررة لتيل شهادة انعام الدراسة الثانوية ، وفي احدى المرات انتهى به ناظر المدرسة جانبا وعرض عليه أن يعمل أمينيا للعمل بالمدرسة فيستنى له الحصول على بعض المال ليستعين به على انعام

دراسته . ومع ذلك فلم ينصرف ويلسون لدراسته بل وجه كل همه لتساليك ، فكتب بعض القصص القصيرة والمقالات والمسرحيات ومنها مسرحية من فصل واحد بعنوان «الصلح» (٥) ومنها بتظيل برناردشو بعد موته وقد ذهب الى النجوم ، فترتب على ذلك رسويع في الامتحان .

وبعد حوالي سنة من العمل بالمدرسة لم يبق ويلسون البقية فيها ، فتركها وأخذ في كتابة مذكراته بعد أن توجه الى مكتب العمل ياحتا لنفسه عن عمل جديد ، وفي هذه المرة قرأ ويلسون «الجريمة والعقاب» و «المجنونين» لدمتوفسكي ، وأعاد قراءه «بوليسيس» لجويس .

عمل ويلسون بعد ذلك في مكتب للبراب ، كما كتب بعض القصص القصيرة ، وفلم بعضي الدراسات الخاصة بالشر والفرح في احمسد المساعد ، وكان يلطم دائما عندما يطلب منه قراء احدى القصائد او مشهدا من احدى المسرحيات . وقد وأودته في هذه المرحلة من حياته بعض الأفكار القوية فقرر ذات يوم أن يصبح بليغا ، ولكن صديقه المتزل الذي كان يقيم فيه عارضت تلك الفكرة بشدة .

وجاء مياد اداته للخدمة العسكرية وكان لذلك فيها بعد بالغ الاثر في حياة كولن ويلسون ، فقد كان يهاب الجيش منذ الصغر ، ويرجع ذلك الى أن والده كان اذا ما توقعه قال له : « انتظر يسوم تنضم الى الجيش » وعينقت سيحود لك عظيمة وقد فاسي ويلسون الكثر في الجيش إذ الحق بصلاح الطران ، وكثيرا ما سخط اعياد في أثناء ادائه للتدريبات العسكرية الأولية ، فكان يقضي بالمستشفى فترات طويلة .

وبعد انتهاء المرحلة الأولية كلف ويلسون بالتقيام ببعض الامهصال الكتابية ومع ذلك لم يبق الكاتب انشاب الجو العسكري والاوامر الصارمة . وقد كتب ويلسون في

The Reformer (٥)

مذكراته صباح ذهابه الى فرقته متسلا « حل سيفي سلاخ الطران ام سأخرج منه كما انا الآن محتلفا بشخصتي » .

وقد اعتاد كولن ويلسون أن يكتب يومياته منذ صغره . فتجمعت لديه وهو في التاسعة عشرة من عمره عشر كرامات كبيرة ضمنها احاسيسه المختلفة تجاه كل مامر به في سنهيه الاولى ، ولكنه أثر أن يعرضها لسا كان فيها من خواطر لم تعبه هو ، ولم يشأ أن يطلع عليها احد .

وبعد هذه التجربة بدأ كولن ويلسون يكتب يومياته من جديد ، ولكن يتركز أكثر في هذه المرة ، فكان ينقي من احاسيسه وانعاشاتوافكاره مايسرى أنه يستحق التسجيل . وكثيرا ما كان يتناقل عن كتابة يومياته تلك كما لو كان يقضي انياني يوم يعرضها فيه ، وقد اعطى كولن ويلسون هذه المذكرات الى سيدني كامبيون عله يستفيد منها في كتابه «العالم كولن ويلسون» . وفي الكتاب ثلاثون صالحة من هذه المذكرات ذكر فيها الكتاب انشاب انفعالاته الشد خدمته في القوات الجوية وآراءه في بعض الكتب التي قراها .

وقدر ويلسون بعد تسريحه من الخدمة العسكرية أن يعمل عملا جسيماتيا فاشتغل بالبناء ، وكان يعمل المصلاط على كتفه . وكانت الايام الاولى التي قضاها في هذا العمل من اجمل ايام حياته . كان حديث العمال كله يدور حول موضوع واحد هو «الجنسي» وقد استمع كولن ويلسن الى حديثهم هذا باهتمام بالغ فينما كان يترأ «البهجوار جيتا» وهي احدى الملاحم الهندية القديمة في مقصف قريب من مكان العمل . وكثيرا ما فكر في تلك الفترة في السفر الى الهند .

وكانت الفكرة التي خرج بها ويلسون من تجربته الاولى كصامل بناء هي أن انسانية الانسان تكمن في تطلعه نحو المستقبل وشعوره بأن هناك

- The Atmosphere Machine (٢)
Father and Son (٣)
Man and Superman (٤)

هدفاً يغيه ، وهو يغير ذلك يتمنى إلى
لقبح من الحيوانات .

وعمل ويلسون بعد ذلك بالتمساح
على إحدى موائد القمار ، ولكنه
طردت فيه يوماً واحداً من العمل .
ثم عمل في ثلاثة مسازرع مختلفة ،
واحدة بعد الأخرى . ولما لم يكن يملك
من المال ما يكفي لأن يرسل إلى فرنسا
حيث صديق له كان يرأسه في
ستراسبورج ، فقد عمل في أحد
البساتين ثم في مزرعة . وهكذا
استطاع أن يجمع أجر السفر إلى
فرنسا . واستمرت إقامته هناك
سنة أسابيع مليئة بالفاخريات ، فقد
أفلس واختلف مع صديقه إلى حد
العراك . وفي النهاية استدان من
من القنصلية البريطانية لمن تذاكر
العودة إلى بلاده ليشتري حيث عمل
كاتباً في إحدى الشركات الهندسية
الكبرى بمرتب ١٢ جنيهًا في الشهر .

ومرة أخرى مل ويلسون العمل .
في المكتب وتركه إلى غيره ثم إلى آخر
إلى أن أجبه العمل في مصنع للخطوط
وهناك التي بغاية تنهى «بيتي»
أعجبه وأحبها لم تزوجها بعد ذلك .
وكان يلعب اليها ويقرأ عليها آخر
مأثبه ، وكانت رواية عن ستراسبورج
واقتصاد ويلسون أن يسمع برنامج
الإذاعة التي يعيها عند «بيتي» ،
فكان يستمع معها إلى مسرحيات كاملة
وبعد الزواج قرر الانتقال إلى لندن
ليعيش معها هناك حيث انتفى بعمل
في مصنع للبلاستيك بعد أن سكنه
بضع دقائق .

وفي هذه الأثناء عكف ويلسون على
دراسة «كتاب الكوي» فقد كان يبحث
عن إمكانية استخدام مثل هذا الكتاب
كأساس لروايته «خفوس في الظلام» (٦)
تماماً كما استخدم جويس «الأوديسة»
أساساً لروايته «بوليسيس» .

ونشرت «بيتي» إعلاناً تتوصل معرفة
لغرض عليها أحد الرغى الأتقاء أن
لغرضه وتلاميذ طيلة اليوم وتقيمهم
في قصره ، ولم يصلح أن يعمل كولين
ويلسون في مكتبه . وكانت هذه أها

(٦) Ritual in the Dark تنلها ال
العربية . فاروق محمد يوسف *
ونشرها دار العلم للملايين *



وأحداً إياهما ، فلم يكونا يقدسان
أبجراً لمسكن غلاوة على أن ويلسون
تمكن من أن يشخ أولي رواياته على
الآلة الكاتبة . واقتصاد ويلسون أن
أن يقضى أيام السبت في التحف
البريطاني . . فكان يقضى اليوم بطلوه
في التحف حيث يسأل بعض الشطار
إلى يملأها منه . وفي هذا يقول :
« كانت تراودني رغبة رومانسية في
أن أكتب في نفس المكان الذي كتب فيه
صمويل بيكر وكارل ماركس وبرناردشو
و هـ . ج . و » .

وماليت الرغبي أترى أن صمات
ودب الخلاف بين ويلسون و «بيتي»
مما أدى إلى انفصالهما في النهاية
بعد ذلك انضم ويلسون إلى « جماعة
لندن الفوضوية » (٧) . وقضى معظم
عام ١٩٥٢ يحاول أن يشي وجوده بين
صخور هذه الجماعة . وأخذ يستمع
إلى خطب الفوضويين باهتمام بالغ في
«هايدبارك» وخصوصاً خطب زعيمهم
فيليب ساتون ، وكانت فارتويلسون
عن الفوضوية مستفظة من بعض
الشخصيات الروائية في الأدب الروسي
كرواية «الشيابين» أو «الجدوين»
لدمتويشكي ، ومن الأخبار التي كان
يقراها في الصحف من حوادث
الانفجرات التي كانت تحدث آنذاك
في دول أمريكا الجنوبية .

وقد تحدث ويلسون إلى الفوضويين
بصفته فوضوياً كبيراً بعد أن قدمه
لهم فيليب ساتون . وفيه أثار حديث

London Anarchic Group (٧)

ويلسون كثيراً من الفوضويين الذين لم
يوافقوه على مقال . وبعد أن انتهى
ويلسون من حديثه انتهى به ساتون
جانباً وأخبره بطف شديد أنه لن
يسمح له بإذيت مرة أخرى إلا إذا
لهم ووعي مبادئ «الانارشا» (٨) وقد
شعر ويلسون بصيق شديد إذ لم يكن
في نيته أبداً أن يكون داعية لظهور رجل
آخر من الفوضوية .

ولم يلق خطابه التالي اهتمام
السمعين الفوضويين على عكس
ما توقع ويلسون الذي قضى أسابيع
في إعداد وعق عليه آملاً كبيرة . لذلك
انتظر أول فرصة سنحت له لينسخ
عن «جماعة لندن الفوضوية» ، وكانت
هذه الفرصة هي الخلاف الذي قام
بهد قبول هيربرت ريد - أحد أعضاء
أحدى الجوائز الشريفة وتسك
الجمعية باسمه من باب الدعاية لها
بحجة أن الجائزة أعطيت له
لا لشأنه السياسي ، بل لشأنه
الأدبي والاجتماعي .

وقد كتب ويلسون بعد ذلك بسنتين
مدينة مثالا في مجلة «الانكواتر» قال
فيه :

« لم تكن لي أية معتقدات سياسية
سواء أكانت فوضوية أم لفسابية
أم فسرعا . . ولكنني أصبحت في
«هايدبارك» بعد أن خاب أملي (شعر
إلى تجربته الزوجية) وكان لدى
شعور بوجود عمل شيء ما ، كما كنت
أريد أيضاً أن أجرب الحديث إلى
الجمهور . ولم يكن مقدار مساعدتي
لتنفص لي كنت أصبحت من
الشيوعية أو الرغونية (٩) أو من
أي مذهب آخر » .

ثم عمل ويلسون في فصل لبيع
السجاد ، وهناك تعرف على زميلة له
في العمل تدعى «جوي» واشترك معها
في تقديم حفلة مسرحية بهناتمسبة
ميد اليساد فهدا فيها مسرحية
برناردشو «الانسان والإنسان الكامل»
وقام ويلسون بدور «جون لائر» . ولم

(٨) Malatesta قائد إيطالي
عاش في القرن ١٩ . وعرف باعتباره
بالعلم . وقد كثر بهرائه فخره
إليها بيوس الثاني من ولاته للكيسة
(٩) مثالة مسيحية .

لندن بعد ان افصح «جوى» بالسفر معه . وهناك عمل بأحد القنصل ، وكان يشرف على أربعة من العمال يحمل معهم الفسيل ميتلا الى المناشف وكان عملا شاقا بالنسبة له ، وهناك زاره والده «جوى» بعد ان تأكد من ان ابنته لاتتوي الزواج منه وطبعا اليه ان يتوقف من مقابلتها ، وبالمعجزة يس ولسون . وغادره الاب بعد مشادة عنيفة ، وبالرغم من ذلك فقد استمر ويلسون « وجوى » على علاقتهما دون زواج .

واخذ ويلسون يتنقل من عمل الى اخر والتحق «جوى» بعمل في إحدى المكتبات . وكانت مشكلات ويلسون لاتنتهي مع مديرات المنازل التي كان ينزل بها ، فنانها يشاجرن معه ، ولكي يحسم ويلسون كل هذه المشكلات قرر ان يبيت في خيمة يقبضها في اي مكان يناسبه ، وهكذا اشترى خيمة وشمعا عازلا للحر ولطاء ثم اقام خيمته بالقرب من المكتبة التي تعمل بها «جوى» واستألف حياة أمنا من سابقتها فقد انحصرت نظافته في الطعام واشياخ هواياته . وكان يقضي أيامه في التمتع البريطاني بعيد كتابته «نقوس في اللام» للمرة الرابعة ، واما اسمياته فكان يقبضها اما في إحدى المكتبات واما مع «جوى» .

وفي النصف البريطاني تعرف ويلسون على الروائي البريطاني انجوس ويلسون (١٠) وكان موظفا في النصف، وبعد حديث طويل بينهما وعده انجوس ويلسون بأن يقرأ روايته « نقوس في اللام» لذا وجدها جيدة فاستعملها لنشرها لينشرها . وأسرع كولن ويلسون فاشترى آلة كتابة وبدأ بنسخ الجزء الأول من الرواية .

ومرت فترة راحة عمل ليهو ويلسون في إحدى المقاهي الخاصة والنصف مساء وحتى الحادية عشرة يغسل

الأكواب والفناجين وكانت تلك أكثر الاصال التي قام بها ويلسون راحة ، كما جعلت له سبيل القراءة في وقت فراغه قبل ذهابه الى عمله . وفي هذه الاثناء أرسلت زوجته السابقة «بيتي» طالبه بعقة دائمة فاضطر ويلسون للعمل في الصباح ايضا حتى يتمكن من إرسال النقطة لظفته ولابته .

وخطرت له فكرة وشبع كتاب من اللاتسي فيما كان يقرأ في النصف البريطاني رواية النجم L'Enfer التي كتبها باروس ، وبعد ان كتب مقدمة الكتاب أرسلها الى أحد الناشرين الذي رد عليه بأنه مهتم بالكتاب ويرد ان يقرأ في صورته النهائية ، وبعد ان وصل نصف الكتاب الى الناشر أرسل الى ويلسون يؤكد أنه سوف ينشر الكتاب فور اكتماله .

وقد عاد كتاب «اللاتسي» بعد ثمره بمالوف على ويلسون، وما بعد هذا المل على الهروب هو «جوى» من لندن بعد هجوم متيل لانه من الصغاه والتليوير - وكان نصف هذا الهجوم بعدا وحققا في الرجاء الذي حققه ويلسون بكتابه الأول الذي بيع منه في اسبوعه الأول ٣٠ ألف نسخة . وكان عروبه مع «جوى» بعد معركة هاجمت فيها أمرها شتمها فقد انهأ ابوها بعمل سوطا لناديه والمودة بابنه الى بيت الصالة ، فسلذا بالقرار من باب حلق حيث استأجرا كوخا في «كورنول» ، وهناك كتب ويلسون كتابه التالي «الدين والتمرد» (١١) الذي جلب عليه سخطا لاحد له بعد نشره ، وجعل كثيرا من النقاد الذين سبق أن اتوا على كتابه الأول يتراجعون عن رأيهم .

ثم كتب ويلسون ثلثي مسرحياته «موت الله» (١٢) وقدمها الى مسرح «دووال كورث» الذي رفضها ، وكان

Religion and the Rebel (١١)

نقله الى العربية الدكتور أنيس زكي حسن تحت عنوان سقوط الحضارة

قد سبق أن رفض الناشرون روايته «نقوس في اللام» بحجة انها ستثير الرأي العام . لذلك قرر ويلسون ان يعيد كتابة روايته للمرة الخامسة ليعدل من الحوادث التي قد تثير النقاد عليه .

وغادر ويلسون إنجلترا كلها الى ألمانيا حيث مرصصوا عليه أعضاء معارضين في إحدى الجامعات هناك ، وقد جمعت المعارضتان نجاحا باهرا وعاش ويلسون و «جوى» شهرين في ألمانيا أصحبا فيها بجو الحياة الثقافية الذي يتسم بالجدي أكثر من جيو بريطانيا ، هناك لم يحدث ان سألوه أبدا عن حياته الخاصة او عن رأيه في النساء او الأزياء ، بل سألوه عن آرائه ومعتقداته . وكان ويلسون يقضي الليل كله مع الطلبة بعد انتهاء المحاضرات حتى الساعات الأولى من الصباح وهم يتناقشون . ومع أعياد الميلاد عاد ويلسون و «جوى» الى إنجلترا مرة أخرى .

وأخيرا نشر ويلسون روايته الأولى «نقوس في اللام» عام ١٩٦٠ بمسند ان نشر كتابه الثالث عمر الهزيم (١٣) ثم توالى كتب ويلسون في السنين الأخيرة وكلها لم تصل الى مستوى «اللاتسي» ومع ذلك ظلت كتبه تلجأ انتباه الجميع لما فيها من دراسة سليمة واستنتاجات تدل على تفكير وخيال نابجين . وكتب ويلسون روايتين أخريين هما «الضائع في سوهو» (١٤) و «العالم المنكسر» (١٥) .

وبالرغم من الهجوم الذي لاقاه ويللاه ويلسون عند كل كتاب جديد يصدر له فإن له جمهورا كبيرا في أطفال كثيرة من العالم يتلطف كتبه فود صدورها ، فهو يمثل في نظريهم مثلا للشباب الكافع في سبيل الأفكار التي يؤمن بها .

The Death of God (١٢)

The Age of Defeat (١٤)

A drift in Soho (١٣)

The World of Violence (١٥)

Angus Wilson (١٠)

الف والسمين في عالم النفس

تأليف : هـ . ج . أيزنك عرض : محمد فرغلي فراج

يعد أيزنك H.J. Eysenck

(استاذ علم النفس في جامعة لندن)
علما من أبرز علماء النفس الذين
يرسسون قواعد المنهج العلمي في
الدراسات النفسية الحديثة ، وهي
مهمة شاقة ، والإفراد بمكسها أسر
كثيرا . ذلك ان موضوع هذا العلم
زاهر بالجواب التي يشق على
الباحث ان يجد السبيل الى تلويها
تنالوا موضوعيا ، فهي لا تقدم
نفسها طوعا كتشخيصات بدقة في
الملاحظة ، والوصف ، والتفسير
التجريبي ، وبالتالي فقد انزعج
الكثيرون ممن لا يعون المنهج العلمي
وميا كليا ، او لا يؤمنون بموضوعيه
اي صلاحيته لتناول اي موضوع من
موضوعات البحث ، اخرى هؤلاء
باتوجهان في عالم غريب من المفاهيم
او التصورات اللغوية التي لا تسير
الى مضمون واضح العالم ، ولا تقبل
بطبيعتها المصنوع لعمليات التحقيق
العلمي . والنتيجة اللاف تجريها
اللفظ لم لا سبيل الى التحقيق
المباشر او غير المباشر من مدلولات هذه
الالفاظ .

واما هذا العالم الكبير فانه يؤمن
بالتنمذ العلمي الناقم على الملاحظة
والتجريب ، والتفسير الكمي ، وبن
هذا المنهج هو الطريق الاوضح للتقدم
العلمي .

ولي هذا الكتاب الفتح بمصالح
أيزنك بعض ميسادين علم النفس ،
ويحاول ان يميز بين الف والسمين ،
او بين الكلام العلمي وكلام الكلام .
ويتم دائما بالوقائع التي كشفت
منها البحوث التجريبية المصنوعة

كما يتم بمقدار صلاحية التقنيات
وصدقها التجريبي .
وينقسم هذا الكتاب الى جزئين :
الاول عنوانه (المنطق حدود المعرفة)
ويتكون من اربعة فصول :

- ١ - التنويم والايعاء .
- ٢ - أجهزة كشف الكذب ،
وغارات الحقيقة .
- ٣ - التخاطر والاستشفاف .
- ٤ - تفسير الاحلام .

والجزء الثاني من الكتاب عنوانه
((الشخصية والاضياء الاجتماعية))
ويتكون من اربعة فصول اخرى هي :
٥ - هل يمكن قياس الشخصية ؟

- ٦ - الشخصية والارثيات
الشرطي .
- ٧ - السياسة والشخصية .
- ٨ - سيكولوجية لغز الجمال .

في الفصل الاول «التنويم والايعاء»
يعرض ((أيزنك)) لذلك التلرخ
الغريب للتنويم الصناعي (الغناطيسي)
والتنويم الصناعي حقيقة علمية رغم
ما احاط بها في الماضي ، ولما يزل
يعجب بها في الحاضر من غرارات .

ويعرض أيزنك للدراسات
التجريبية العلمية التي أجريت على
التنويم الصناعي . فقد أظهرت هذه
التجارب ان الشخص النائم يقبل
الايعادات التي يوجهها له النوم ،
ويتخذ ما يطلب اليه القيام به . كما
انه تعبت تأتير الايعاء يمكن ان يرى

ويسمع اشخاصا او اشياء لا وجود
لها من حوله بل يمكن كذلك الايسمع
والا يرى ما يحيط به ، او لا يهسي
حتى يلبوس يفرس في جسمه . وقد
استخدم التنويم الصناعي في اجراء
العمليات الجراحية قبل اكتشاف
الكلوروفورم ولحمرة من وسائل
التخدير .

ومن القريبان الذين تجرى عليهم
العمليات الجراحية وهم تحت تأثير
التنويم الصناعي لا يحسون بأية الام
على الإطلاق ، كما أنهم لا يتذكرون
الماء التي تنزل في الجراحات العادية .
وقد استخدم التنويم الصناعي في
عمليات التوليد ، وكذلك في علاج
الانسان دون ألم ودون دماء .

كما انه يمكن الايعاء للشخص -
وهو تحت التنويم - بان يقوم في
بقلته فيما بعد بأعمال معينة
Post hypnotic suggestion
وبعد اليقظة ، وفي الوقت المحدد
يقوم الشخص بتلك الاعمال مدفوعا
بقوة قاهرة لا يدري لها سببا ، ولا
يعلم من امرها شيئا .

ومن الظواهر الغريبة التي كشفتها
التجارب العلمية ايضا ، امكان جعل
الشخص النائم يتنص الى سموات
عمره الاولى ، فتجده انه يتصرف
ويتحدث بنصرفاته وحديثه الطفلي
القديم . بل انه يتذكر حينئذ اشياء
نسبها منذ زمن بعيد ، بل حتى ردود
أفعاله العصبية التي لا سلطان له
عليها تعود - دون ما وعى منه ولا علم
- الي ما كانت عليه أيام طفولته
الاولى في شكلها ومستوى نموجها .
ويناقش أيزنك في هذا الصدد امكان

استخدام التنويم في جعل الشخص يأتي بأفعالا صادقة للمجتمع دون دافع من جانبه ، بل ودون جدوى من مقاومته للقوى المجهولة التي تدفعه الى ذلك .

ولى تفسير ظاهرة التنويم الصناعي يفند ايزنك الكثير من التفسيرات الخرافية . ويأخذ في تفسيره لهذه الظاهرة بنظرية الظل - الفكر - حركى - مع ربطها بنظرية الكف - inhibition

ويرى ايزنك في هذا الصدد ان اجراء التجارب المبسطة هو السبيل الى بناء النظريات العلمية . وصدم اجرائها بشل مرئيا حسباً للنظريات التي لا تقوم على أساس من الواقع. ويعدنا ايزنك في الفصل الثانى عن اجهزة كشف الكذب . وأساس هذه الاجهزة هو العلاقة الوثيقة بين المشاعر التي يعانيها الشخص وبين التغيرات الفسيولوجية المصاحبة لتلك المشاعر لدى ذلك الشخص . بل يرى البعض ان تلك التغيرات الفسيولوجية تسبق التغيرات في حديثها . « فلى اننا استجبنا لوقف معين نصب القصد الكاذب » هرمون الأدرينالين في مجرى الدم ومن لم نشعر بالقلب ، وفي موقف معين نتفق قلوبنا بسرعة ومن ثم نشعر بانفعال الخوف . «

وتقوم اجهزة كشف الكذب الحديثة على أساس التسجيل الدقيق للمصاحبات الفسيولوجية التلقائية للاتصالات ، وتصدر تلك المصاحبات عن الجهاز العصبي التلقائي ولا تطيع لتحكم الإرادي ، ومن أمثلتها سرعة التنفس وضغط الدم . والطريقة القوية في استخدام اجهزة كشف الكذب هي أن تلقى على الشخص موضوع الاختيار أو الاهتمام أسئلة عديدة ، بعضها يتصل بما يرد كشف حقيقته وبعضها غير متصل بذلك ، ويسجل الجهاز الإرجاع ، لكل من الأسئلة المتصلة (بالجريمة مثلا) وغير المتصلة ، يصل الفاحص الى قرار ، عما اذا كان الشخص صادقا أو كاذبا ، حيث ان القادة هي أن الإرجاع الفسيولوجية للاستة

المتصلة اصحط وتختلف عن الإرجاع المصاحبة للاستة غير المتصلة . والجهزة كشف الكذب هوائتها العملية الصديدة ، لكنها كذلك في حاجة الى مزيد من التجارب ، حتى تتحقق لها درجة مقبولة من الدقة. وتحدث ايزنك في الفصل الثالث عن موضوع التخاطر والاستشفاف . ويعنى بالتخاطر معرفة ما بهن شخص آخر بغير طريق الكلام او الإشارة ، ويعنى بالاستشفاف رؤية اشياء حدثت أو تحدث أو ستحدث وذلك دون اعتماد على ادراك حسي أو استنتاج عقلى .

وبين ايزنك ان كثيرا من هذه الامور عرفناها عن طريق شهادته الشهود ، وهي كما آليت التجارب تعرضي للفظا والتخلف ولا يقبل في مجال العلم الا الشهادة القرونة بالفيض العلمى ، والمصدنة ضد تدخل الموامل الداتية .

وسرى بعد ذلك للتجارب التي اجريت في مواقف ، قرب الى الفيط العلمى على كل من التخاطر ، والاستشفاف . ويناقش تلك التجارب مناقشة نقدية بهدف الوصول الى ما لها وما عليها .

وينتهى الى أن النتيجة الوحيدة التي يمكن تلياحتها ان ينتهى اليها هي انه يوجد عدد قابل من الناس ، يصلون الى المعرفة التي توجد اما في عقول الآخرين ، أو في العالم الخارجى ، بوسائل ليست معروفة للعلم حتى الآن . . . ويجب ان ينظر لتفسير هذه الوقائع معرفة اكثر تعمقا بالظروف التي توصل فيها الى هذه النتائج ، ووسائل انتقال المعرفة بغير طرق الحواس المعروفة لنا الآن .

ومن ناحية اخرى فليس هناك شيء معروف معرفة محددة فيما يتعلق بسمعات الشخصية التي ترتبط بالفكر على المعرفة عن طريق التخاطر أو الاستشفاف .

وبخصيص ايزنك الفصل الرابع للحديث عن نفس الاحلام . فيلاحظ اتجاه البعض الى النظر للاحلام

باعتبار ان لها صفة تنبؤية بما سيحدث في المستقبل ، في حين ترى نظريات اخرى ترتبط بنظرية فرويد في التحليل النفسي أن الاحلام تعبرنا عن عقائد اللا شعورية العالية التي لم نعلمها بوقت ترجع بنا الى طفولتنا الاولى ، حيث نشأت تلك العقيد ونمت . وطبقا لنظرية التحليل النفسي هذه فان الحلم في مجموعه ، ولى جزئياته ، له معنى ، وهو تحقيق قرينة تخرج من اللا شعور متخفية في ثوب رمزى ، وذلك حتى نلث من الرقيب أو الانا الاملى الذى يلف لها بالوصاد .

وقد استخدم فرويد في تفسير الاحلام أسلوب ابتداهى العر ، للوصول الى الخطايا اللا شعورية والرموز الظاهرة في العلم .

ويناقش ايزنك بعض الاحلام التي اوردتها المعلقون النفسيون ناييدا لتأثيرهم في الاحلام . وفي كل مرة نجد ان الافكار التي يظن انها كانت وراء دخول الحلم لم تكن بحاجة الى اخفاء أو تعويه ، وعادة ما تشفى لمن الشخص بطريقة صريحة مباشرة في حالته الشعورية .

ويرى ايزنك ان الرموز في العلم اشبه بتعبير بلانق مركز من المضمون وليست ستارا يخفى ذلك المضمون متخفا بذلك مع نظرية كلارك هل .

ثم يعرض المؤلف لبعض التجارب العلمية التي اجريت على الاحلام . ومنها ما اجراه العالم السوفييتى المصغر « لوريا » كجزء من دراسته للعد النفسية . ويتلخص أسلوبه في اعدادات العائد النفسية اللا شعورية تحت تأثير التنويم الصناعي ، ثم ملاحظة اثر تلك العقيد لدى الأشخاص في احلامهم اننا نوههم الطبيعى .

وقد ادى استخدام هذا الاسلوب الى نتائج طيبة ، ولكن ما زالت الاحلام بحاجة الى مزيد من هذه الدراسات التجريبية المبسطة ، بلا من القصص المسببة التي تظهر في تاريخ العائلات ، مليئة بالتعقيدات والجدالات ، والافتراضات .

وبعبارة الفصل الخامس من الكتاب هو : « هل يمكن أن تقاس الشخصية ؟ »

ويعد أيزنك مكانة الشخصية في علم النفس على اختيار أنها دراسة تربط بين العلوم البيولوجية والعلوم الاجتماعية ، أو بين علم النفس الفسيولوجي وعلم النفس الاجتماعي ، وذلك لأن التفاعل بين الأبنية المختلفة سواء لدى الإنسان أو لدى الحيوان - هو القاعدة وليس الاستثناء .

ويشير في هذا الصدد إلى الارتباط بين العنصر (القوي البيلي) وبين البؤل العصبية أو عدم الاستقرار الوجداني ، وكذلك بين الارتباط الشرطي أو التعلم ، وبين الميل إلى الانطواء ، وأيضاً بين السلوك الاجتماعي للأشخاص وبين سماتهم الشخصية .

وعرض أيزنك بعد ذلك للتفرق المستخدمة في قياس الشخصية ، وأولها : طريقة التقدير rating وهي وصف الأشخاص الآخرين بالسمات ، أو القدرات ، أو الاستعدادات ، على أساس ملاحظة سلوكهم في مواقف الحياة العادية ، إلا أن هذه الطريقة تعرض لتدخل العوامل الذاتية التي تجعلها غير ثابتة ، وفي ضوء صعوبة الوصول إلى قياسات دقيقة لسمات الشخصية .

والأسلوب الرئيسي البديل لطريقة التقدير هو أسلوب الاستبيان أو الاستبيان questionnaire ، وفيه يطلب من الشخص الإجابة على عدد من الأسئلة عن نفسه ، ومن هذه الإجابات نحاول الوصول إلى استنتاجات عن شخصيته . وقد انتشر استخدام الاستبيانات انتشاراً كبيراً نظراً لسهولة استخدامها في اختيار أعداد كبيرة من الأشخاص في وقت واحد غير أن التشكوك بدأت تنمو حول هذا الأسلوب ، فالأشخاص المحبون قد لا يعرفون أنفسهم ، وأن

عرفوها فقد لا يملكون الإجابات الصحيحة . وحل هذه المشكلة هو عدم الاعتماد على التفسير الذاتي للإجابات ، وإنما أن تكون العبرة بمقدار اتساقها ، ومشابقتها لإجابات جماعات تعرف مقدماً سماتها المميزة ، دون اعتماد على الاستبيانات ، وتتخذ منها محكات لصدق الاستبيان الذي بين أيدينا . ويعتمد هذا الحل على التجريب والأحصاء ، وعلى التفكير التحليلي .

والأسلوب الثالث في قياس الشخصية أكثر أهمية من الأسلوبين السابقين ، وهو لا يستخدم ما يقوله الشخص عن نفسه أو عن شخص آخر ، وإنما يعتمد على القياس الفعلي لسلوك الشخص ، في موقف أو اختبار مصمم بهدف إظهار هذا التسوع من السلوك تحت شروط تجريبية يحددها الباحث ويتحكم فيها .

ويعدنا المؤلف في الفصل السادس عن الشخصية والارتباط الشرطي . فيشير إلى مفهوم الارتباط الشرطي وكيف أن الفرد يتعلم الاستجابة لشيء ما عن طريق الاستجابة لشيء آخر ، وذلك كنتيجة لتكرار الاقتران بين الشيء الجديد والشيء الأصلي ، وتوقع أهمية هذا المفهوم إلى استخدامه في نفس التعلم ، وفيه بذلك قيمة كبيرة في فهمنا لتكوين الشخصية ، باعتبار أن جزءاً كبيراً منها مكتسب وليس فطرياً .

وعرض أيزنك للمفهومين الهامين في الارتباط الشرطي وهما : الأثر والكتف ، كما عرض للصراع بينهما الذي لوحظ أنه يؤدي إلى العصب أو ما يشبه التحيز العصبي ، وكذلك للفرقة بين مفهوم الأثر والكتف ، وبين مفاهيم المستعرب ، والقلق ، والانبساط والانطواء ، وما يوضح أهمية مفهوم الارتباط الشرطي كأساس تجريبي لتفسير السلوك وفهمه وتناوله نظرياً وتطبيقاً ، وجدير بالذكر أن

تجارب الارتباط الشرطي ترجع أساساً إلى بحث بالمخوف العالم الروسي .

وفي الفصل السابع يناقش المؤلف علاقة الاتجاهات السيسية بمواضع الشخصية مثل الانطواء ، والميل إلى العدوان . وكذلك علاقتها بمفاهيم التجريبية للظواهر الاجتماعية ، غير مستعمية بطبيعتها على أسلوب البحث العلمي الواسع . وبدون ذلك لا يتوقع تقدم كبير في المعرفة في هذه المجالات الصعبة .

يعدنا أيزنك في الفصل الثامن عن سيكولوجية التلوق الجمالي . فالسيكولوجي في دراسته للجماليات يدرس خواص التنبهات التي تثير لدينا إحساساً جمالياً ، كما يدرس سمات الأشخاص الراجية التي تربط باستحسن أنواع معينة من التنبهات ، وفي تلك التجارب يقدم السيكولوجي التنبهات البسيطة المعروفة الخواص لمجموعات من الأشخاص ، ويحصل على تقديراتهم لها . ويتأدى من ذلك إلى استدلالات معينة من الخواص الطبيعية للاستبيانات الجمالية وغير الجميلة ، وبمستخدام المصطلح التجريبي ، والتنبهات البسيطة نصل إلى فهم لأساس التلوق الجمالي للأعمال الفنية الكبيرة .

وعرض أيزنك أمثلة للتفسيرات التي تقوم على أساس مفاهيم التحليل النفسي الفرويدى للأعمال الأدبية مثل (العالمات) لشكسبير ، و (اليس في أرض العجائب) لـ لويس كارول . ويناقشها وينتهي إلى أنها تفسيرات يستحيل أخضاها لأي اختبار يحدد مدى صحتها ، أو زيفها ، ومن هنا لا يمكن قبولها كتفسير علمي .

إن هذا الكتاب الممتع ، بمثابة نظرة عملية في التحول الكبير في علم النفس ، من ميدان الألفاظ والمفاهيم الخائفة ، إلى واقع الحياة النفسية القابل للملاحظة والتجريب والقياس



رسائل جامعية

تمتدھا، بجاء شاہین

عرف في اسلامه بالزهد والتسك والوقار والعلم ، وهي صفات قل أن توجد مجتمعة في شاعر من شعراء عصره ، ولبيد يجمع كذلك بين تراث الجاهلية وتراث الاسلام ويعمل في طبائعه مثل الجاهلية ومثل الاسلام .



وقد جعل الباحث منهجه دراسة شعر لبيد دراسة فنية ، بأن يجعل شعره صورة لكهده وحياته ويؤنسّه ، لأن الدراسات السابقة - على قلتها - لم تفسّر شعره ، أو تدرس فنه .. فدراسة المستشرقين كانت - في الغالب - تاريخاً لكهده وحياته عاماً .. وإن كانوا أسبق من الغرب إلى العناية بلبيد وشعره ، ولكن دراساتهم تفتقر إلى الجانب الفني .. وقد دسّ لبيد النسل من المستشرقين الأول - سالون - ، الذي لم رجالة صغيرة من حياة لبيد بعنوان (لبيد الشاعر) في مجلة ليبريج للوصول إلى درجة الدكتوراه سنة ١٨٧٧ م ، وهي رسالة موزجة تقع في ست وثلاثين صفحة كتبها بالإنجليزية ، واستعرض فيها بسرعة حال الشعر منذ الجاهلية حتى العصر العباسي المتأخر ، ثم تعرض لحيات لبيد كما ورويت في كتاب الأتاني ، ولم يتعرض لشعر لبيد إلا بقدر ، لأن ديوان لبيد لم يكن قد طبع بعد فقد ظهرت طبعة المجلد سنة ١٨٨٠ ، وطبعة الهيرتز سنة ١٨٩٦ ، وقد أغفل - سالون - كثيراً من العيوب التي تفتقر إلى الحياة ، كما أنه لم يقطع برأي حاسم في كتبه من القضايا .. وعلمه اللغوي موجوده في مكتبة المتحف البريطاني بلندن .

اما الدراسة الاخرى ، فهي التي كتبها « فون كريبز » باللاتينية عن شعر لبيد بعنوان (حول اشعار

لبید بن ابی ربیعہ
حیاتہ.. وشعرہ

نوقشت في كلية دار العلوم أعمال الوصالة للفتحة
من الطالب العراقي يحيى وهيب الجبوري ، اعتمد بكلية
الشريعة بجامعة بغداد لتبليغ روحه الدكتوراه في الآداب ،
وكان موضوعها « حياة الشاعر الجاهلي ليبد بن ربيعة »
وشعره ، وتضمن في مخرج منه ، وقد اشرف على
الأساتذة الدكتور احمد الحادي

يقول الباحث إن مما دفعه لاختيار هذا الموضوع تلك المكانة الرفيعة التي يحتلها الشعر الجاهلي بين القائلين من أدب العرب ، فقد تشكّله العلماء والادباء بالاعتناء ، وتهذيب بالرعاية والحفظ والصون ، وانصرفوا إليه يدرسونه ويردونه ويتشكّلون به . ولعل الرغف من اختلاف البيئات وتباين الأزمان ، فإنهم لم يستطيعوا أن يبحرخوا على نظم ذلك الشعر وتقاليد التي سلفا فعول الشعراء الجاهليين - ولا كان ليبيد بين ربيعة واحدة من أولئك الفحول المجددين الذين تركوا الأثر الموضح في شعراء العصور المتأخرة . كما أنه وجد من اصحاب المجلات الشعرية ، فقد رأى أن يصطب موضوع بعثته كتيل درجته العظمى .

وليد شاعر فرد بين شعراء الجاهلية وشعراء الاسلام
 .. ويمتد بصفتا تنبؤ الانبياء ، وتدعو الى الاعجاب ،
 فهو شاعر من شعراء الشعراء ومجودهم ، وهو فارس ،
 وسيد من سيدات الجاهلية ومعلم من معلمهم . ولقد

انى امرؤ منعت ارمومة عمام
فسمى وقد جنت على خصوم
جهدا العادة كلها فاصبها
على مناكب عزا معلوم

ونخصبة ليد القوة المعلقة في قومه تظهر اول
ما تظهر في حادثة انقسام بني عامر ، وخلالهم الذي ادعى
الى نفي بني جعفر لقوم كيد الى اليمن ، فقد حاول بث
الولام والفساد جهده ، ولكن الحرب قامت وهزمت جعفر .
وقد مكث الجعفريون في اليمن مجاورين بني الحارث بن
كعب عاما كاملا .. فعرس بنو الحارث على بني جعفر ان
يزوجهم عشرين من نسائهم ويتزوجوا عشرين من بني
عامر .. وقد احس عامر بن خالد سيد القوم بما يريد
بنو الحارث من الاذلال والاستعانة بهم ، وكان لهم مولف
معروف هو الذي دعاهم الى العودة الى بلادهم ومسالمة
بني ابي بكر .



الوصف عند كيد

وتفصح في شعر كيد جملة فنون ، منها ما يبرز فيه
كالوصف والزنا ، والفخر ، ومنها ما لم يبلغ فيه مبلغ
فيه من التسعرا ، الجاهلين كالقول والهجاء ، والمدح . على
ان ابرز الفنون التي جلى فيها هي الوصف ، وقد رصد
الجزء الاكبر من شعره لهذا الفن ، فوصف الطبيعة مشقة
في حيوانها ، وللطيفون في نفس كيد شأن كبير فقد
تحدث عن صفاته الجسمية والنفسية وعاداته وطباعه ،
وصور نواذحه واحاسيسه ، واكثر في شعره حيوانات
كثيرة مما الف في البداية واهم هذه الحيوانات التي
وصفها :

١ - التناقص ، وقد تحدث عنها في خمس عشرة
قصيدة ، فوصفها مبيتا قولها ولطامة جسمها وشده ،
ثم وصف هزالها ونحوها بعد ان قطعت الليالي وجابت
القلوات ، وعين اصلها ولونها وصلاتها ، وشبهها بالبراة
والشور والعمار والالان والظلم ، كما شبهها بالبتا ،
الشامخ والسفينة والسيف والدلو والسحابة .

بطلق اسلار تركن بقية
منها فاحتق صلبها وسنامها
واذا تفال لجهها وتحصرت
وتقطعت بعد الكلال خدامها
فلها عياب في الزمام كانها
صهبا خف مع الجنوب جهامها

ويضيف كيد للصفات الجسمية اوصافا اخرى ،
فيبين نميها وسنها وطبيعة شعاعها وعملها في غير اوقات
الرحلة والسفر فيقول .
يكرت به جرسية مقصورة
تروى الصاجر بازل علكوم

كيد) ، وخطبت في مدينة وين سنة ١٨٨١ ، وهي عبارة
عن مقالة نشرها في مجلة المستشرقين الاثان ، ثم اخرجها
مستقلة ، وتقع في احدى وخمسين صفحة ، وقد اعتمد
في دراسته على المصادر العشرين من رواية الطوس التي
طبها الطالدي ، وقد تناول فيها الحديث عن مهلكة كيد
وما فيها من تشبيهات واوصاف ، واستدل من الشعر على
معارف العرب وعن الامم البائدة والمواضع الكثيرة في
الجزيرة العربية .. وقد كانت عنايته بالنتيجة الجغرافية
من الجزيرة العربية كبيرة ، كما استدل على معرفة الجاهلين
بالدين ، واستشهد بشعر كيد ، وقارن ذلك بما عند
الشعراء الجاهلين وما عند العبرانيين والتصاريف والاختلاف .
ثم سجل ملاحظاته عن المصادر العشرين التي نشرها
الطالدي وما فيها من تصحيف وروايات ، ولم يتطرق لحياة
كيد واخباره ، وتسم الرسالة بكثرة الاستطراد موضوعات
خارجة عن شعر كيد .

وكيد من بني جعفر بن كلاب من بني عامر بن
صمصة ، وكلنا القليلين الجفيرة والعامرية ذات شرف
وسيادة ، ومكانة رفيعة في المجتمع الجاهلي ، ولذلك نشأ
كيد في كنف أسرة من الزعماء يتشعر بكرامة أسرته
وحسبها وعزاة نسبها ويظهر بذلك ويژهو .

فلا تسالكنا وسالكنا عن بلاتنا
ايادنا وكلنا من معد وواللا

وليسنا ومن لكت تميم ومزحينا
وكنته الا واقت عليك التنازلا

لاحسابنا فيهم بلادنا ونتمنا
ولم يك سماننا من الجسد لخاللا

وعلى الرغم من المكانة الرفيعة التي تمتع بها أسرة
كيد فان المعلومات عنها قليلة بل نادرة ، مع انها لها
صلة بأحداث كبرى في حياة الجاهلية وحياة الاسلام .

وكليد اخ يدعى - اربد - كان يملأ عليه حياته ،
وينزل من نفسه منزلة كبرى .. ويروى انه ولد على
رسول الله صل الله عليه وسلم يريد الفخر به فصمته
الصاعقة .

وله اخ ناز شقيق هو - حزام - ، الا انه لم يشتهر
وكم يذكره في شعره .

واكبر رعاية لقبها كيد كانت من عمه ابي براء الذي
كان افضل اعمامه والرفيع الى نفسه :

كعبت على اكثافهم وحجورهم
وليدا وسومني لييدا وعاصما

وكيد رغم انه معدود من فرسان قومه ومعروف
بالشجاعة والاقلام ، فانه لم يذكر نفسه في واحدة من
الوقائع وهذا امر يلفت النظر ، ويرجع الفارس انه كان
يشارك في أيام قومه ، وهو ذو جرأة وقدم ، ولكنه كم
يكن مبرزا مثل فرسان قومه .. كما انه اقرب ما يكون
الى البعة والهدو ، ويأثر السلم .

عظم متين كجذع الهاجرى ، طويل المتق شديد العظام ، ذو نشاط ومرح ، يتجو به من الخفاوف ، وهو كريم من عتاق الغيل وقد لعت عذاره على حده الاسيل ، مولى الخلق ، مرتفع الكتفين تعود الصهيل عنه مشارف الاحياء ، حين يعود من غزوه ، اذا ما حسى وتصيب العرق من جسمه الساب على منته الاناس كما يتساق الماء على الصخرة الناعمة النساء ..

ولقد اغنو وما يصلمنى
صاحب لبح طويل العتبيل

سأهم الوجه شديد اسره
فيط الحارث محبوب الكفل

ياجنى الصوت بعروب اذا
غرق الى من الفزو سهل

وكما استعار لبيد لثلاثه صفات البقر والعصار والثور ، كذلك استعار لها أيضا صفات الظليم والنعامة .

وقد تبدو اوصاف لبيد في الخيوان وفي الطبيعة متصلة ، وهذا في صحيح فهي متصلة مترابطة متداخلة . فلهذا يوسم لبيد للطبيعة لوحات كثيرة يوجد التامل فيها الفرح والسحاب والسيول والتبات والرياض والتفصيل ، وظلام الليل ولجوم السماء وحل الهجر ويلجج السراب والبرق ، ويعرف الطرق ويعيون المساء .. ومن لوحاته الغنية :

اصاح ترى برقا هب وهنا
كمصباح الشمسية في الدبال

ارقت له وأنجد بعدد هدو ،
واصباحي على شمس الرجال

يضي ربابه في التسنن حيشا
ليسا بالعراب وباللال

كان مصفحات في لواء
وانوا على السكك

لأفرح في الرباب يفسود بقاء
مجبوة تلب عن السلال

وأصبح راسيا يرغام دهر
وسال به الضفائل في الرمال

فليبد لا يصور البرق وحده وانما يوفى كصورته كل اسباب الكمال فهو بعدد الزمن ، بعد هدو ، الليل ، وتوم اصحابه على شعب رجالهم ، فهم على هذا في قافله راحلة .. وهو يرسم صورة دقيقة للبرق يسطع غزوه على صفحة السحاب الاسود الكثيف ، كان الر . يرى اجابنا صاعرين شديدي السواد .

وهو يشبه سمور نالته مع شدة احتمالها بفقد السيف فهو مع وقته شديد الاحتمال أيضا ويشبه سفانها بالسليقة العظيمة ، كما اظهر عواطفها من انوف والفرح والحب والكره والجرأة وشدة الاحتمال .

٢ - البقرة والثور .. واكثر ما يرد ذكر البقرة الوحشية او الثور الوحشي في سياق قصة من القصص ، ويستطرد اليها لبيد حين يتحدث عن نالته ، فيشبهها بهذه البقرة او ذاك الثور . وقد ذكر البقرة في سبع من قصائده ، وفي كل من هذه القصائد الصبح يروى قصة حزينه ، فيها قلق وخوف وعطش وظلام لم يبركه ودعاء وتكاد تكون هذه القصص متشابهة .. ففي حلفت يروى قصة البقرة التي راحت ترمي مع صواحبها فظلمت عن وليدها .. وهي تتبع اللعل الذي يتقدم القطيع فافترتت السباع صفرها على لثة منها .. وتقضى البقرة ليلتها البروة وفي الصباح تعاود البحث عن وليدها . وقلبت كذلك سبع ليال ، حتى شجست وجف فرعها واستبد بها الخوف والجزع .. ويلاحظ ان لبيدا في وصفه للبقرة يعني بعائلتها التفصيل وعواطفها وحركاتها اكثر مما يعني بوصف جسمها وانفعالها . ولكن لبيدا لم يتفرد بين شعراء الجاهلية بهذا الوصف للبقرة بل شاركه فيه « الاضي » .

اما الثور الوحشي فقد اظهر فيه لبيد معاني القوة والششاط والسرعة وشدة القتال ، وقد شاء ان يبرز فيه هذه الصفات ليستبعرها بعدله لثلاثه ابيات تشبه الثور في هذه القصائد . وقد جاء وصف اثنتين في ثلاث قصائده يصف فيها حاله اكثر مما يصف جسمه .

٣ - الحمار والانان .. ومثلما سأل لبيد قصصا نالقا عن الثور والبقرة ، وصور احاسيسهما وعواطفهما وما مر عليهما من محن ، سأل عن الحمار واثانه قصصا اخرى عدها لمان تشابه كلها في اظهار العلم ، في التعجب الفنى ، وفي التفاصيل وفي الجو النفسى الذى يعنى به كل العناية . ويتخذ لبيد من تشبيه نالته بهذه الحيوانات وسيلة للحديث عنها ، والا استطرد في متابعة اوصافها . والقصة التقليدية للحمار انه يتأمل العصر الاخرى ليتفرد بالانان ، فيدبها امامه ويضلو بها بعيدا ، فيقضيان اشهر الشتاء راتين يجترآن بالربط عن الماء . حتى اذا اقبلت شهور الصيف انطلق بها يبرد الماء ، وهما في علوها يشعان غلالة رقيقة يتجاذبانها .. حتى اذا بلغا الماء شربا منه وغافا فيه .

٤ - الفرس .. ولم تخط الفرس من كبد العناية التي حظيت بها بقية الوحوش ، فليس للفرس قصة مثل القصص الذي صاها حول البقرة والثور والحمار .. فكان في وصفه لها عيلا غير متليل ، صرف همه بوصف جسمها وتشاكلها وفطرت سرعتها .

وكان لا يد ان يقرن وصف الفرس بلذكر فروسية لبيد ، وحسن بلائه في القتال . ومن اوصاف حصانه أنه

وفد وفق في التعبير بالكناية عن موت خصمه بهذه
التأوهات التسلية اللواتي يدين ويصرخ • وهو لا يظلم
في وصف المارد ولا يفصل في ذكر القتال • بل يحمل
ذلك في أبيات لها دلالة وفيها غناء ..

ومن شعره بقوله :

بنو عامر من خلع حبي علمتهم
ولو نطق الأعداء ذودا وباخلا

لهم مجلس لا يحضرون عن الندى
ولا يزدهيم جهل من كان جاهلا

ويبقى على النعمان من كل شتوة
سراة الغشاء يؤجرون السابلا

ومع أن فطرس يفتي الجاهلين يعيل إلى المبالغة
والتوهيل ، فإن لبيدا قد شاء لشعره أن يبرأ من هذه
التزعات ، فهو حين يفتي إنما يعبر عن خصال مصروفة
في قبيلته ، وفي نفسه ، وتكمعها الحقيقة التاريخية ،
كما أن صياغته لم تبلغ حد المبالغة • ويرجع ذلك إلى
أنه لم يكن غرا طائشا ، وأية ذلك أنه ينصف خصومه
حتى في ميادين الفخر ، فعين فقر في معلقته بمجانس
النعمان كان يقول :

عندي ولم يفتخر علي كرامها

الغزل ..

إذا عد شعراء الرثاء في الجاهلية كان لبيد بينهم ،
أن لم يكن في طليعتهم • وإذا كانت الغنساء أشهر
الشعراء ، فإن لبيدا أشهر شعراء الرثاء في الجاهلية
أيضا وقد عرف له الدكتور طه حسين فضله لطفله على
الغنساء ، وقد بنى لبيد أخاه « أريد » بكاه مرا حزينا
وداع اسم « أريد » بكاه لبيد • وقد شغل الرثاء
جزا كبيرا من ديوان لبيد وكل مراهبه في أهله وعشيرته

اكتوت باخلها ويؤت بخلها

فلا واحدة في رثاء النعمان بن النضر ، فقد دلى أياه
وأخاه وأعمامه وأبناء أعمامه ورجالا من قبيلته • على أن
اكثر قصائد الرثاء وأجودها وأصدقها عاطفة هي قصائده
في رثاء أخيه لأمه « أريد بن ليس » وكان أكبر منه ،
كما كان بطلا شديدا وفارسا من فرسان قومه ، وكريما
من أجودهم • وقد فقد لبيد أخاه وهو صبي صغير لعاص
في رعاية أخيه وعمه أبي براء • ولبيد يؤكده موت
« أريد » بالمعاطفة في شعره وذلك حيث يقول :

أخشى على أريد الخوف ولا
أرهب نور السماء والأسد

عرف لبيد في حياته الجاهلية أنه صاحب فطرس ،
فخر بنفسه وفطرس بقومه • وفي شعره يظهر هذا
الغريبان من الفطرس • فقد كان سيدا شريفا يشعر بهذه
الكثافة ويعرف لنفسه هذا القدر ، وشعوره هذا جعله
شديدا التقني بملأه وماتى ، منها ما ورثه عن أبياته ،
ومنها ما كان من صنع يديه •

ويبدو أن لبيدا قد جعل قصائده الطوال ، وأن
حفلت بشتى الموضوعات ، ملاحم للحفاظ • وهو من
هذه القصائد الطوال يتناول موضوعا ما ، وسرعان ما ينتقل
إلى الفطرس بمناسبة يستطرد بها ، والاستطرد أداة طيعة
في شعر لبيد •

فبعد أن يذكر ناقته ويصف سرعها والطريق الذي
طفت في الهواجر حتى ينتهي إلى وصف مجلس من مجالس
الملوك وقف فيه للجدال والخصام ، لعله أحد مجالس
النعمان ، ويذكر خصومه بأنهم سادة اشراف يفتي
الوجوه نعمين مترفين ، جادلهم في ذلك المجلس ولأفخرهم
حتى فطر عليهم ، لم واج بين أسلوبه في الجدال •

وعصم قيام بالعصراء كأنهم
قروم غيادي كل أزهى مصعب

علا السك والديباح فوق نورهم
فراش المسج كالجنان المنقب

تشن صجاج البيد كل عشية
بوج الرءاء غطف باب الحجوب

وأصغرهم شئى كان قسيهم
قروم صوار ساقط متقلب

فإن يسهلوا فالسهل حظى وطرفتى
وإن يحزنوا أركب بهم كل مركب

وأول ما يلاحظ على هذه القصيدة أن لبيدا فطر
فيها بصفات متعددة ، فلم يقتصر على خصلة من الخصال •
ويلاحظ أيضا أن فطره لم يكن متوجها في سياق واحد
أو مجتمع من أبيات متصلة ، فقد حاول أن يتوخى في
معالجة موضوعاته ، لبيد قليلا عن الفطرس مشغولا بالوصف
أو الحكمة أو الرثاء ، ثم يعود إلى الفطرس • ومن أسباب
براءة لبيد وتمكنه من فنه ومعرفته بأسرار صنعت أنه
يحتال لموضوعه بصفات ، فلا يقحمه الضمما ، بل يجهد
له ببراعة ، فعين يتحدث عن الكرم يصطنع له وسيلة •
كلام زوجة وعنايتها ، أو ذكر الدهر الذي لا يبقى ولا
يدر • ويلاحظ أن كرم لبيد قرون بالسرد ويرج
الثناء ، وذلك أدعى للفخر لأن الناس في قفص وجذب ،
يدلهم إلى شدة الحرص على أموالهم •

وهو حين يفتخر بفخره لغرات العروب أو أحياته
الاستجد الكزوع ، نراه يعنى ببيان قوته وشمة ينشده •

فجعلني الرعد والصواعق وال
فارس يوم الكوفة والتجسد

وتأثر الى مصرعه أيضا في قوله :

فان يك نو ، من سحاب أصابه
لقد كان يعمل في اللقاة . ونظير

وقد رثاه في إحدى عشرة معلقة بين قصيدة طويلة
ومقطوعة قصيرة وأرجوزه واحدة ، بكاء بكاء حاداً فيه
لوعة وتلجع وحزن :

لعمري أباك الشعر يا ابنة أربد
لقد شقني حزن أصاب فلوحيما

فراق أخ كان الحبيب لمساتي
وولي به ربيب المشون فاسرعاً

فيعني إذ أودى للسراق ياروبه
فلا تجعدي أن تستهلا فتدعيا

وتبيد في رثائه كتب النظر الى افعال الزمان وغدر
الايام ، كثير التفكير في مصير الماضين من ملوك وعظماء
يجد في ذكركم العبرة والعزاء على مصيبتهم ، وهو يتناول
قضية الموت والفناء ومشكلة الإنسان وقضته أمام قدره
الحتم وبهذا يفسلي لبيد العزن على عوائل كثيرة ..

الغزل وذكر الديار ..

لم يفرغ لبيد للمرأة فيحبها ويغازلها ويبتها أنشواته
.. لأن لبيدا كان من الشعراء الذين اختلفوا أنفسهم بالجد
وعرفوا بالهابة والوقار ، ولذلك فقد قل في شعره الحديث
من النساء .. كما أنه لم يكن من فرسان المهجاء لأنه
يميل الى المسألة .

ويكاد يجمع الرواة على أن لبيدا هجر الشعر منذ
هداه الله الى الاسلام ولم يقل في الاسلام غير بيت واحد
.. غير أن البيت الذي ذكرته المصادر للبيد ، لم تتأكد
نسبته اليه .

هذا وقد قسم الباحث بحثه الى ثلاثة أقسام
رئيسية ، أصغرها عن حياة العصر الذي عاش فيه لبيد ،
وأوسطها عن حياة الشاعر وقبيلته ، وأكبرها شعره وما
فيه من فنون وما له من خصائص .. وقد درس الباحث
الطيمات المختلفة لديوان لبيد ، وبين ميزة كل منها ،
ووقف وقفة طويلة عند العجبة الأخيرة التي تعد كاملة
وهي طبعة الكويت .

ولعل من أهم نتائج عمله الدراسة أن الباحث
استطاع أن يثبت أن الدعوة الثلاثية بأن لبيدا هجر
الشعر بعد اسلامه دعوة باطلية ، فقد أثبت أنه قال شعراً

كثيراً عربيقاً بأحداث اسلامية في زمن اسلامه .. ومن
شعره الاسلامي قوله :

من يسبغ الله عليه اصباحا
بالحسح والشرب بأي أولمنا

يملا له منه ذنوباً مشرعاً
وقد آباد اربما وتيعاً

وكان لبيد يحاول التماس آيات القرآن في شعره
ودعا الناس الى اتباع ذلك .

وحاول الباحث تخريج ما لم يخرج من شعره خاصة ،
وأثبت أن جزءاً من شعر لبيد فقط هو الذي جاء بروايه
مؤلفة هي رواية الطوس ، أما سائرهم فجاء عن نسخ
خطية مجهولة الاصل فضلاً عن أنها حديثة النسخ .

وقد عمل الدكتور احسان عباس تخريجاً لشعر لبيد
يذكر فيه جهداً كبيراً افاد منه الباحث فائدة كبيرة ، وبعد
التقصي وجد أن التخريج غير دقيق ، فإخذ جميع شعر
لبيد من جديد والرجوع الى المصادر بصورة واسعة ..
واستطاع الحصول على لروية كبيرة من شعر لبيد ، كما
أضاف الى التخريج مصادر جديدة خلقت شعر لبيد كلها
قدسية .

بدأ الناقد الدكتور أحمد العوفي الشرف على
الرسالة ، فإشاد بالجد الكبير الذي بذله الباحث ، وهو
معيد في كلية الشريعة جامعة بغداد وله مباحث وعقالات
علمية مثبورة كثيرة .

ثم تحدث الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، عرجه
للبحث عدة ملاحظات أهمها أن الباب الأول الخاص بعصر
لبيد كان في حاجة الى الضغط الشديد ، بل لعله كان
من الأفضل الاستثناء عنه ، ثم أشار الى أن الأبحاث بدافع
حجاسته للحرب حاول أن يفتي عنهم تهمة الشرك ، لأن
معنى هذه الكلمة في رأيه هي عبادة الأصنام ، في حين
أن العرب كانوا يتخلون الأصنام وسيلتهم الى الله .

وأخيراً تحدث الأستاذ مصطفى البغا فايد ملاحظات
الأستاذ محمد خلف الله أحمد وأضاف أنه يود لو استفتى
الباحث عن الباب الأول ، ووضع بدلاً عنه ديوان الشاعر
كاملاً بما عرجه من شعره .. ليكون لدراسته أثر
أعمق .

وقد نال الباحث على رسالته درجة الدكتوراه مع
مرتبة الشرف الأولى .

كلية الآداب جامعة القاهرة

قسم اللغة العربية :

● الفرق في الشعر الأموي

رسالة دكتوراه مقدمة من النعمان القاضي ، بإشراف الدكتور شوقي صيف -

● القشيري .. أدبه وتصوفه

رسالة ماجستير مقدمة من إبراهيم إبراهيم السيوني ، بإشراف الدكتور شوقي صيف -

قسم الفلسفة :

● التهج الجدلي عند هيجل

رسالة ماجستير مقدمة من أمام عبد الفتاح أمام ، بإشراف الدكتور ركني نجيب محمود -

● فكرة الضرورة المنطقية

رسالة ماجستير مقدمة من محمد مهران رشوان ، بإشراف الدكتور نونين الطويل -

● الوعي الترانسندنتالي في الحكم الاستطقي عند كانت

مقدمة من فتحى حسين على قوده ، بإشراف الدكتور غُزَّاد الأهوازي -

● دنايات العلاقة بين السلطة وقوة الأنا

مقدمة من عبد الستار إبراهيم محمد ، بإشراف الدكتور عثمان فنجالي -

قسم التاريخ :

● بحثي من ١٩١٠ - ١٩١٤

لمقدمة من فتحي محمد عبد الحفيظ ، بإشراف الدكتور سميد ماضور

قسم الدراسات القديمة :

● اسطورة الكترا عند شعراء المأساة اليونانية

رسالة ماجستير مقدمة من محمد حسن وهبة ، بإشراف الدكتور صقر خفاجة -

كلية دار العلوم :

● الأعمال المصرفية والاسلام

رسالة ماجستير مقدمة من مصطفى عبد الله الهمشري ، بإشراف الدكتور مصطفى زيد والشيخ عبد العظيم صفاتي -

● الامام الأوزاعي .. منهجه كما يبدو في فقهه

مقدمة من عبد الرزاق الحاج قاسم الصغار من العراق ، بإشراف الدكتور مصطفى زيد -

● الزرائع في الشريعة الإسلامية

رسالة ماجستير مقدمة من هشام برهان ، بإشراف الدكتور مصطفى زيد -

كلية الحقوق جامعة القاهرة :

● المسؤولية اتأديبية للموظف العام

رسالة ماجستير مقدمة من محمد جودت أحمد القط ، بإشراف الدكتور محمود حافظ -

كلية التجارة جامعة القاهرة :

● المشاكل العمالية بالقطاع الأميري وأثرها على الكفاية الإنتاجية

رسالة ماجستير بإشراف الدكتور على عبد الجيد ، والدكتور علف عبيد -



رسائل تناقش
خلال شهري
أبريل ومايو

رسالة العراق

بقلم: مندوب المجلة

توليق العلاقات الفكرية والثقافية بين مختلف الافكار العربية من اهم الغايات التي تستهدفها - المجلة - في سيمها الدائب نحو التطور والاستجابة لرغبات قارئها. ولكي تنفذ هذه الغاية صورة عملية واضحة ، فقد اعلنت - المجلة - بعدد من كتاب الافكار العربية ليوافوها باخبارهم وتعليقاتهم حول ما يدور عندهم من نشاط ثقافي ، وما هي الرسالة الاولى من العراق الشقيق ، نرجو ان تتلوه رسائل اخرى من سوريا والجزائر ولبنان وبقية الافكار العربية .

وانتقل بعد ذلك الى تقسيم الشعراء الى شعراء انصار في المدينة : كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وفي مكة عبد الله بن جعش وابو احمد بن جعش والشارح السهمي وشعراء معارضة كعب الله بن الزبير وضراء بن الخطاب وأمية بن أبي الصلت وشعراء يهود وشعراء ينادية وختم مطافه باستعراض الأوضاع السياسية وعلاقتها بالشعر .

وتجسد السيد عبد الله الجبوري عن تاريخ مكتبة الاوقاف وكيف جمعت كتبها من خزان عدد من الجوامع والمساجد العراقية والكتب التي اوقفها القهرون من علماء البلد وذكر آلاف الكتب الموجودة فيها وعدد المخطوطات واستعرض بعض هذه المخطوطات النادرة وكانت النشرة في رايه (أما) بسبب كون النسخة فريدة أو قديمة العهد أو طريقة وذكر ان المكتبة مستعدة للترتيب بأي طابع من ناحية المقالة أو الاستنساخ أو التصوير (بالميكروفلم) .

وتناول السيد الدكتور بحري في بداية محاضراته عن التفلغل الاسرائيلي في افريقيا بيان تاريخ هذا التفلغل فذكر انه لم تكن علاقات اسرائيل بنفس القوة قبل عام ١٩٥٦ ولكنها بعد مؤتمر بالندونج احست بضرورة ذلك فتشقت في تأسيس السلاطات والقنصليات وارسال البعثات والفرقراء واستدعاء وفود افريقية لزيارة اسرائيل وتوقيع معاهدات الجامعة امام الطلبة الافريقيين وعمل الدكتور بحري نجاح اسرائيل في عملاقاتها الخارجية مع الدول الافريقية التامية بكونها مثلت دور الوسيط الاقتصادي والسياسي بين هذه الدول والدول المستعمرة .. فخلد تواد عنه الشعوب الافريقية في اول عهدها بالحرية شعور بالكره والعداء للدول التي استعمرتها وامتصت غيرانها وكانت من جهة اخرى لا تستغنى عن اقامة علاقات مع هذه الدول ولكنها لا تريد علاقات مباشرة لاستغلت اسرائيل هذه التاحية ونجحت في معصاتها .. ولد بين الدكتور بحري ان الجمهورية العربية المتحدة تذل جهودا جبارة في مواجهة العدائية الصهيونية في افريقية لئلا تشار الى الجانب الاذاعي والجانب الصحفي وال الزيارات والوفود الافريقية للقاهرة وال اعداد الهائلة من الطلبة الافريقيين الذين

يملأ نفس الاديب العراقي خلال هذه الايام شعور غثيف بركوند الجو الادبي وجمود الادباء ويشكو اديب لاديب بضرورة الحركة والانتعاش .. وكان من نتيجة هذا التنادي ان قروت جمعية الكتاب والمؤلفين العراقيين تنشيط الحركة الثقافية وانعاشها باقامة الندوات والمحاضرات الاسبوعية واصدار مجلة ادبية تجمع شتات الافلام العراقية وتعد من هجرتها الى مجلات عربية اخرى في لبنان أو الجمهورية العربية المتحدة .

ومن المحاضرات الثقافية التي اقيمت في مقر الجمعية خلال شهر شباط (فبراير) ١٩٦٧ محاضرة عن البناء الفني في ادب نجيب مطسوق للسيد عبد الجبار داود البصري ، ومحاضرة عن الشعر في عهد الرسول والخلفاء الراشدين للدكتور يحيى الجبوري ، ومحاضرة عن هيكلة الاوقاف والمخطوطات التابعة الموجودة فيها للسيد عبد الله الجبوري ، ومحاضرة عن التفلغل الاسرائيلي في افريقيا وموقف العرب منه للدكتور كؤى بحري .

تحدث البصري عن فن محفوظ في الرحلة الاولى من الاصيص خمس الجنون الى ثلاثيته الروائية لبدأ بيان أسلوب الكتابة وانواع القصص وطبيعة الحوار والحيكة ومقدمة الاقصصة واختارها في - خمس الجنون - ثم انتقل الى عرض مظاهر الفن ومديك البناء في روايات رادويس وطبيعة وعيت الافكار واعتبر زفاق الشك والمأهرة الجديد ولحان التليل مرحلة متميزة لثالثه والسراب وبداية ونهاية مرحلة رابعة .. وكان من راي البصري ان الثلاثية تمثل قمة الفن عند محفوظ وفي تسميتها وبناها تتكامل كل عناصر الفن التي ابدعها في الروايات السابقة .. ومحاضره البصري فصل من فصول كتاب اعده منذ اكثر من خمس سنوات ولم ينشر حتى الآن .

وبدا الدكتور الجبوري محاضراته ببيان ندرة المصادر التي تتحدث عن الشعر في عهد الرسول واشهر الى المحاولات المتعمدة لطمس ماله لم تترك الى التواحي الفنية في هذا الشعر فذكر ان فيه عظم ولينا بالنسبة للشعر الجاهل وحاول ان يجسد تيريرا لهذا الضعف واللين في تسمية الشاعر السلم وآثر القيمة التي اعتنقها

لتج الله العليّاني ولهم وللناسي السيد حسام الدين السليبي .

وعلى اثر انتقال السيد عبد اللطيف الكعالي مدير الاذاعة والتلفزيون العام في العراق الى السلك الخارجي وتعيينه في المهلكة الثقافية في سلطة الجمهورية العراقية بمشرف صدر مرسوم جمهوري بتعيين السيد خالد الشبيط مديرا عاما للاذاعة والتلفزيون وقد استهل المدير العام أعماله بأن عقد يوم ١٨ شباط ١٩٦٧ مؤتمرا صحفيا تحدث فيه عن أهمية الاذاعة والتلفزيون في التوجيه التربوي وفي المجالات الادبية والفكرية والعلمية والفنية ومجالات الحياة الاخرى . . . وذكر ان هذا الجهاز كل مدة طويلة مغفلا على انة واحدة من الادباء والفكرين ورجال الدين ولم يفتح مغفلا على الطلائع الكتوزية في بلدنا . . . مما أدى الى شيوع السلبية منذ كثير من مفكري العراق . . . واصاف ان من حق الاذاعة الجديدة ان تفتح في مختلف الالوية مراكز للفراسلين الاذاعيين يصحون فيها البرامج وذلك تكون الاذاعة عراقية لابدية كما كان شأنها في العهود الماضية .

ولد دعت مديرية الاذاعة والتلفزيون العامة عن طريق مسائل موجهة الى نحو اكثر من ٦٠٠ اديب ومفكر وفنان ان يساهموا في اعداد برامج اذاعية وتلفزيونية وان يبدو اقتراحاتهم في تطوير هذه المؤسسة .

كما كتبت مديرية الاذاعة ايضا الى رئاسة جامعة بغداد ورئاسة المجمع العلمي وعمادة معهد الفنون الجميلة وجميع وزارات الدولة نرجوها حث منتسبيها من اجل التثاقف والافتقار الى اجيزة اعلام ناجحة تحقق الرسالة والهدف الذي قامت من اجله .

وخلال الشهر الثامن الملتحج المؤتمر السادس لثقافة المعلمين في العراق ولد تحدث بهذه المناسبة السيد رئيس الجمهورية العراقية والسيد نقيب المعلمين في العراق والسيد احمد عبد الحميد عتارة أمين عام الاتحاد للمعلمين العرب والسيد عوفي عبد الهادي ممثل نقابة معلمين ومعلميات الثانوية في السودان ثم ألقى السيد ادهم وشارودي ممثل نقابة المعلمين في سوريا ثم السيد محمد الجوهري ممثل نقابة الكهنة التعليمية في ج.ع.م. والسيد سليم مطلوب ممثل نقابة المعلمين في لبنان والسيد داود عودة ممثل منظمة التحرير الفلسطينية .

وبتاريخ ٢٠ شباط صدر قانون يلقي بانشاء جامعة في مدينة البصرة تسمى (بجامعة البصرة) وينص القانون على تطوير مجلس الجامعة انشاء مؤسسات تابعة لها في اماكن اخرى من الجمهورية العراقية . . . ونص القانون كذلك على ان الجامعة حرم آمن وأشار الى انها تعنى بتهيئة ثقافة جامعية متقدمة حرة وتنمذ البحث العلمي ولغنى بالثراء العربي والاسلامي والتربية القومية والفنانيات المحلية . . . وتتألف الجامعة من ست هيئات هي : الطب ، العلوم ، الهندسة ، الزراعة والبيطرة ، والانسانيات ، القانون ، الاقتصاد .

وينص القانون على ان اللغة العربية هي لغة التعليم في الجامعة .

يبدسون في الازهر . . وفي رأى الدكتور ان اعتراف كثير من الدول الافريقية بالاسلام يفسر القوى الركات التي يمكن الاستناد اليها في مقاومة الصهيونية داخل افريقيا .

اما عن حركة التأليف والنشر في العراق خلال شهر شباط فقد صدرت الكتب التالية : غفران ، ديوان شعر للسيد محمد جميل ششلي ، وبغداديات . . للسيد عزيز الحجة ، واحد الصافي النجفي للسيد تركي كاظم جوده والوفائية في الادب للسيد عباس سفر وانا رجل مجبور ، الفاصيص للسيد فخرى عبد الجيد فؤاد والانقياء مسرحية للسيد عبد الستار الغزواني .

يلغ كتاب الصافي في ١٦٠ ص من القطع الكبير وقد كتب مقدمته الدكتور يوسف عز الدين الامين العام للمجمع العراقي فإتني في مقدمته على المؤلف وخصي مشاعره النبيلة حول ضرورة تكريم الادباء وهم احيا ، وتضمن له هذا ادبيا زاهرا . . ومؤلف الكتاب عامل كادح من عيال القطيع يلغ به حرصه على الادب والنشر ان يبيع اثاله من اجل ان يدفع لمن طبع كتابه الذي تضمن فصولا عدة من حصة الصافي النجفي ووقته ونزعتة الانسانية وحببه للحرية والكتلة والكفاية وأشار الى لقائه العجيبين والمتأولين مع مختارات من شعره وقد افعل المؤلف التحدث عن عناصر الفن الشعري عند الصافي ومصادره عن الصافي في حاجة الى تنمية واكمال .

والشاعر محمد جميل ششلي من شعراء الشباب . . سبق ان أصدر مجموعة شعرية من الشعر النقي (الحب والحرية) طبعت في لبنان وقد كتبها الدكتور احمد عبد الجباري الجوابري وديوانه الجديدة (غفران) من منشورات وزارة الثقافة والارشاد يتضمن ١٤ قصيدة بعضها ينحو منحى عموديا وهو الغالب وبعضها ينحو منحى حرا وقد كتب مقدمته السيد عبد الجبار داود البصري الذي قال فيه : ان الشاعر محمد جميل ششلي يلجسلى ينشئ لأول الانثية جزء من ذاته فهو يفرغ سواء كان وراء القضبان او خارج الاسوار لم يمكنه القيد ولم يشغله القيد . . وذكر السيد البصري ايضا . . ان ششلي لم يستطع التذلل على ظاهرة الواصل العادة التي تطغى التصيد لا في شعره العمودي ولا في شعره الحر كما أشار الى الرائي التي حام عليها الشاعر دون ان يستقر او يرسو على مرأى فيها .

ويمثل كتاب (بغداديات) تأليف عزيز جاسم الحجة وهو الكتاب الرابع عشر في السلسلة الثقافية التي تصدرها وزارة الثقافة والارشاد / مديرية الفنون والثقافة الشعبية من التيارات التي يفرى الاعلام العراقية الجديدة ويشهد ههنا لأن تلج هذا البلدان وأغنى بذلك ميدان البحث والولكلوري . . يتضمن كتاب بغداديات تسجيلا أميناً للحفلات والاعادات الشعبية السائدة في بغداد مع ذكر اكلات بغدادية وألعاب صبيان ببغداد وأغانيها وتقاليد الزواج والولادة ومراسم الوفاة .

ومسرحية الانقياء ومجموعة الانقياء (انا رجل) من منشورات جمعية الفنون والآداب . قدم للمسرحية السيد

يرحب هذا
الباب بنشر كل
ما يصله من الآراء
والتعليقات
والاستفسارات
حول ما تنشره
«المجلة» من مقالات
وابحاث أو غيرها
من الموضوعات
الثقافية العامة .

آراء

و

تعقيبات

حول قصة الحضارة المصرية

بقلم : حسين ذوالفقار صبرى

والله اعلم الاصلح للحصيلة الفكرية لآى جيل
هى تلك القيم التى ترتفع كالأهرامات طبقة فوق اخرى
وانها تستمد امكانيات التسامق بما توفر لنفسها من
توسع على مستوى القناعة حيث مجالات البحث
والدراسة .

لما من علم او مجال فكر لاند على الاستعداد الى
التسامق اذا ما سبق على نفسه في افكار من قاعدة
شديدة التخصص وانفسا كل صولة او التقاد مع
الجيلات الفكرية الاخرى .

فلذا كنت قد حاولت في مقالتي ان ارسم صورة
لتعاقب الحضارات على ارض القلعة الافريقية ، فقد
سحرت الى اكون مقصرا ان لم اسع الى محاولات
جادة - هي غاية جهدى - في اللوامة بين ما قدمه
الينا ابرز العلماء المتخصصين ، كل في مجاله .

فقد قدم الينا علماء الآثار حصيلة غسطة من
معرفة عن مصر القديمة ، ولكن ما اثر الآراء المتصارعة
واته لآخر طبيعي امام ما فسح منها وما قد درس ،
وما يزال منها في جوف الارض ، فقد اعتمد علماء الآثار
كما يقول الدكتور عبد النعم ابو بكر « على التساؤل
من ناحية ، وعلى الحسد والتطمين والاجتهاد من ناحية
اخرى » ..

ولي خضم تلك الآراء المتصارعة ، كالماء هي اذلال

اخلمت بمسئ الانعام والتقدير على فقال الأستاذ
الكبير الدكتور عبد النعم ابو بكر عن « قصة الحضارة
المصرية ونشأتها » (١) خلاصة وقد لهمت من جهة
التحرير المؤثرة لمجلة « المجلة » انه قد قصد به الى
الفاد المسود جانبية على مقالتي عن « الحضارة المصرية
الافريقية ام آسيوية » .

وانى لسعيد جدا بذلك الفرصة ، فليس ادنى الى
الاتراب من الصواب ، من ان يقابل الفراء بالراءى ،
فانى لا ادنى لنفسي القصص ، بل كلما افرقت من علم
او غشت في بشار معرفة ، اتفصح لي بسعق ابعاد
ما اجهل ، او خطاي فيما اعتنقت حين كان مصببول
اقل واكثر شعالة ، ويترى انها حال الاجيال البشرية
جميعا ، فلم من اراد في العلم او المعرفة كالت لهسا
صدارة ، فلذا بها تنهاوى في تصور لاحقة بفضل زيادات
نظرا على الحصيلة الفكرية للانسان او مهارات تضفى
على اساليب الاستزاد والتفكير ، وجميعها نظرب بيننا
وبين الصواب ، خطوة اثر اخرى ، والطبيعة الكبرى
في حق البشرية ان يتفاد انسان او جيل من الناس
ان قد ملك ناصية الحقيقة في اى من ميادين الفكر ،
انما هي بطبيعتها سعى دالب نحو مزيد لم مزيد من
نور ومعرفة .

(١) انظر « المجلة » العدد السابق ص ٣٤ .

أسئلة موحدة ، تشابكت أشجارها واختلطت فيها الأفارح حتى أنها تشجب نور السماء ، ألا يحق لنا إذا ما بدأ له قيس يظرف من بعيد أن نحاول أن نجد فيه بعضاً من مدى بالفتح ثم السكون) .

إني لا أدعي أنه لآله نجم ثابت يحدد لنا الاتجاه الذي لا يخب ، ولكن هي عدد من أجرام ربما اعتدنا إذا ما قابلنا بين وصفاتها « الى الاقتراب من جسد طريق » .

أولها التطور المذهل الذي أرفعه بالأساطير الى دراسات لها أسس علمية ، لم يات هذا عن صياغة وإنما هي طرق شتى شتيا ، أو على الأقل اجتذب إليها ، أساطير علوم مختلفة الأصول - التحليل النفسي أبرزها ، والآثار أحدها ، بل والأصول الفوقية منها - فلذا بتلك الطرق المتعددة الأصول لتقني آخر الأمر ، لا أقول على اتفاق مطلق ، ولكن على الأقل حول خطوط دوائر تداخلت فتتلاقز برازها حتى تتكاد أن تتلاحم .

ومن قبل ، طرفة في العلوم الجغرافية أو على الأقل تلك الفروع التي تركّزت حول دراسة التوزيعات البشرية خلال العصور الجيولوجية ، ثم حول التفاعلات المتبادلة بين البيئة والأحياء ، واتقاء ذلك جميعه مع ابتلات العلوم الاجتماعية حتى كادت أن تعد لنا - لا أدعي تفصيلا فهو الصواب مع المثال - ولكن الخطوط العامة فيما يتعلق بكان نشأة الإنسان ، وممراته هجراته الكبرى في العصور التي شهدت تكوين الإنسان اعتمادا على نظرية « المناخ والطبقات » ، إلى تمثل - أعود وأقول ليس الصواب المطلق - ولكن فيه في الفكر الجغرافي تسامحت عن سابقاتها ، ثم هي بعد ذلك مغلقة إلى نساق مقبل ، فلذا هناك علماء يرفضون الانحزال التخصص فيسمون دوما إلى الاستعانة كلما أمكن ، بما قد تقدمه لهم فهم المعرفة في علوم ربما بدت أول الأمر بعيدة كل البعد من مجالاتهم ، ولكنها ليست كذلك بآية حال ، فالعلوم جميعا إنما هي آخر الأمر تتساج احتكاكات الفكر البشري بطواهر التكون ، وأنها لتقني آخر الأمر في سبيلها جميعا إلى القرار مكانة الإنسان انطلاقا من مقاييسه إلى مستقبله عبر جسور الحضارة الذي نعيش .

وان الإنسان لمصر أشد التقصير إذا ما حاول أن يعزل أيا من فنون المعرفة في سجون من تخصص طلق فيتيم الحواجز بينها وبين غيرها من مجالات العلم ومختلف أوجه النشاط البشري ، جليلة كنت أم ناهية فانما مردها جميعا إلى العقل الذي نعمل ، منه نتبع وإلى الإنسان مرجعها .

فلو أمكننا مثلا أن نفع على نماذج من الملح والموارد التي اصحكت مصرى القديم بينما يحضر لها وجه القلعة الممراد إذا ما أقيمت على صاسها ، لربما كانت عوناً إذا ما وجدت الباحث الجهدى على رسم حدود القيم الإخلاقية في ذلك المجتمع ، فكيف يحق لنا إذن أن

تجاهل الأساطير والتي هي التجسيد القصصى للقيم التي قامت عليها الحضارة المصرية ؟ .

وبعد تلك المقدمة الطويلة ، التي لم يكن منها بد وان كنت قد حاولت جهدى أن أدركها تركيزا ، هي تفسير لتعاج - والله لست أدري كيف وجدته مفروضا على - وليكنه يصفى دوما إذا ما حاولت التعرض بخرج بالووسوع عن الهدف الرسوم ، وإنما كان موضوع ما إلى محاولة الألف قدر الامكان بإبرز موصول إليه الباحثون وكيف فعلوا وعلام انضدوا ، ثم أحاول بعد ذلك إذا ما اختلفت بينهم الآراء أن أستعين على الفرز بينها بما وصل إليه البحث في علوم أخرى لها بالووسوع صلتها لا يمكن إكتراثها .

وقد وجدت في الجزء الأول من كتاب الدكتور عبد العزيز صالح عن الحضارة المصرية وآثارها أكبر العون أن يبرز من خلال أسلوبه السلس ضخامة الجهد الموسوعي الذي بذله في استيعاب مختلف الآراء التي توصل إليها الباحثون حول مختلف نواحي الحضارة المصرية القديمة ثم عرضها علينا في أيجاز غير مغل وبقابل بينها باحثا مطلقا مؤيدا أو معاندا وليس من شك في أننا نرغب جميعا الأجزاء التالية لهذا السفر الطويل ، الذي لا نرى عنه لكل مصرى نوال إلى استكشاف ما فيها الجيد .

ثم أحاول أن اتناول في مقال الحضارة المصرية في مجموعها فهو أمر يلوخ طائفي وأمكانياتي ، ثم أنه يخرج بالووسوع عن الهدف الرسوم له ، وإنما كان المسائل حول أصول تلك الحضارة ، التي كثرت الإبداعات من أسسيتها ، وكان في تقديرى أن أبرز ما تميزت به الحضارة المصرية هو اتجاهها الصامد إلى الوحدة السياسية منذ لحظاتها الأولى ، أقول الحضارة المصرية وليس التقلات البحرية والتي منها « مرمة » فهذا لها حكم آخر ، وإن كانت بمثابة دوائر حطت عبر الأزمنة بعضا من خصائص أصبح لها فيما بعد طابعها المميز ، وقد التحت إليها في مسائل سابق : « النيل إذ جرى » في العدد رقم 112 من المجلة .

ولا شك أتى تأثرت في هذا الشأن أيضا تأثر بالبحث القيم المتعلق - تلك الدراسة المتفحة إلى البحر ما وصلت إليه العلوم الجغرافية - التي قدمها لنا على صفحات المجلة الدكتور جمال حمدان عن « الشخصية مصر - دراسة في بشارية المكان » .

كما لا يغوتنى أن أتود بفضل « هرمان كيس » في كتابه عن مصر القديمة ، فهي دراسة من حيث « الطبوغرافية الحضارية » والتي هي المنسوان التوضيحي لكتابه ذلك .

وكت قد وفقت طويلا عند تلك الفقرة التي وردت في كتاب هرودوت ، وهو الذي كذب مرارا فيقهر صدقه فيما بعد ، من أن « النقلة الطيبة » قد عرفت الحضارة - الحضارة وقيس التقلات البحرية - حين

متجانسة مع بيئتها لا تفلح حثلا بينها وبين التوسع ، بل انها تعشها اليه حثا ، سيما الى ما قد يبعد لها في النهاية وحدها البيئة التي تلتفت ، فلذا ما وقعت آخر الامر على منطقة القاهرة العالية ذلك الموقع الذي « وكفته من صنع الآله » كما يقول الدكتور حمدان ايضا ، فهو الذي يحدد لها آخر الامر البؤرة المركزية لمر جيمعا ، حين يلاحم صعيدها مع دلتها .

والذي اريد ان اقول ان الحضارة في صعيد مصر لم تشع لطف في اياها بانها تمثل « كلا » ، بل وان عليها دوما احساس عميق نابع من اوضاعها البيئية بانها تلتفت شيئا ما ، يقول بينها وبين التمام فهي مدفوعة ابدا الى استكمال « نقص » يشوبها ، وان عليها ان تسمى وان تواصل التسمية .

وليس مثل هذا دائما الى تطور ثم الى مزيد من تطور ، فتتلقى الحضارة المصرية بسرعة مذهلة الى مرتبة التصنوع .

وابعد ما يكون من ذهني ان المحط حق الدلتا ، بل ان فرووها الكلية ربما جعلتها سبالة الى مستويات من ترف فكري ، يشتمل في تكامل بلورة شخصيات اهلها الكلية التي استوعبت فيما بعد في « الباشيون » المصري ، وانما الذي اريد ان اقول انها كانت بحكم البيئة عبارة عن مراكز حضارية محصورة متعددة متعاقبة ، متصارعة ، حربة لولا انه الطغى من الصعيد بان يتطور آخر الامر الى التخط السومري ، حيث المدينة بصيغ بها المنافع من كل جانب ، فهي وحدة حضارية قائمة بذاتها ، تشعر بذاتها وتتم منذ اللحظة الاولى يشعور من تمام والكفاد ، وان كان تزايد السكان يدفع بها تدريجيا الى مزيد من توسعها في استزراع الاراضي ، فتتصادم حدود المدن في النهاية ، وتسمى كل منها الى فرض السيطرة على جاراتها .

لك البيئة السومرية لم تعرف الوحدة الا فرسا واستعلاء ، حين تبلغ إحدى المدن من القوة ما يبيد لها السيطرة على شقيقاتها جميعا ، ولكنها وحدة مضطربة غير مستقرة لا تفرط الى ان تغرق بالوحدة السياسية التي عرفها وادي النيل منذ فجر التاريخ فتميزت بها الحضارة المصرية عبر القرون .

وان تاريخ الدلتا نفسه ليحمل دكا ماثلة ، اما الصعيد فقد كان دوما انطلاق الى اعادة توحيد مصر خلال تاريخها الطويل .

فهو - ان صبح التشبيه - مع الفارق الكبير روما مصر « في مواجهة » المدن الدول « Polis » على التمثيل الهليني التي في الدلتا ، الصعيد دينه الوحدة السياسية ، غلاب في النهاية ، وان كانت قد يزده فكريا عن الدلتا التياعه بذاتها ، ولكن الاوسع البيئة في مصر سمرت على الصعيد فرض الوحدة قبل الانعزال كبير في تلاوت المستويات .

كانت المستنقعات طافية على بقية العالم مصر ، والثقافة الطبية تعبر الفريخ احتوى على الأرجح تلك الامتدادات من القليم « تنى » شمالا الى القليم نحن جنوبيا ، انها نفس الثقافة التي تتوسطها ثنية لنا والتي اشار اليها الدكتور سليمان حزين في دراسته عن « مقومات الحضارة المصرية » (تاريخ الحضارة المصرية) بارشاف وزارة الثقافة) تحت عنوان فرعي عن « الاطلاق الصغرة في وادي النيل الأدنى » ، فابرز طريقتها الفريدة من حيث انساع الوادي وانعراج النهر فيكثر الارسباب وتحتها ولا شك نبعنا لذلك القدرة على سهولة تعريف الزائد من مياه الفيضان ، ثم انها نفس المنطقة التي اضهرها الدكتور جمال حمدان حاضرة الجنوب فهي مقنى لعدد من طرق التواصل شرقا الى البحر الاحمر وغربا الى الواحات .

انها منطقة قد برزت فيها من حيث هئية جميع الميزات البيئية للانطلاق الحضارى المبكر ، لم هي النواة لظفرة اقتصادية طافية طبقا لنظرية « جوردون تشايد » التي هي عماد كتابه « ماذا حدث في التاريخ » ينتج عنها ثلاثيا ظفرة سكانية نووية ، هي وحدها الكلية اذا ما اكتسحت ما حولها من اقاليم باستيعاب تجمعاتها البشرية فضيلة العدد ، المتخلفة عنها نسبيا ، فتفرض عليها موجة طافية من شعور بالوحدة ويحفرس في هذا لتمام تلك التفراسة الاخرى القيمة التي لهما لنا الدكتور جمال حمدان على صفحات « القجلة » ايضا عن « جغرافية الاستعمار » فانزل دون البيئة المتجانسة حين سمرت لظفرة البشرية المتخلطة من توبة موسكو فرض عناصر الوحدة على روسيا في تقسور التكوين ، لم تلك المتفرسة التي قضتها بين طبيعة الاقلية في روسيا والاقلية في أوروبا ، لهذه الاخرة وليدة التصارعات بين مراكز حضارية متعددة متعاقبة .

لم هناك تساؤل بحيث لاكنه الاكمن التي تريد ايماننا بانها لولا الانحساب السومري لما قامت الحضارة المصرية او لتأخر على الاقل ازدهارها قرونا طولا ، فهي تشع الى السرعة الثالثة والفترة الزمنية القصيرة التي نسجت خلالها فجأة الحضارة المصرية في حين انها استازمت قرابة الالف عام في سومر فتعز الاام الى دلمات خلافة طرات على مصر من خارج ، وكثما ليس من مجال لتفسير سواء .

وذاك موضوع كنت اخزن الكلام فيه لقالي الثاني ولكن لا بأس لو تلاوت الآن بعضا من جوابيه ، فهو مرتبط اشد الارتباط بتأثيرات « ايكولوجية » الصعيد على الحضارة المصرية .

فقد استمرت في حديثي عن الصعيد تعبر الدكتور جمال حمدان « تلك المسافة التي ليس لها مساحة » واثرت في ان المراكز الحضارية في « ثنية لنا » ووجهت باستعدادات الوادي شمالا وجنوبيا - من حيث ياتي النيل والى حيث يذهب - امتدادات « مساهلية »

الحرمين » ، فذلك لقب يغني قليلا على شخص ليس هو قسرا حاشيا لهما أو زائدا منه .

فالكاتب الهيرغليفية التي لا زلنا نسمي الى فك طلاسها ، ليست هي اللغة المنطوقة ، بل ان اللغة المنطوقة نفسها ، حسب أحدث ما وصلت اليه العلوم اللغوية تنقسم من حيث وظيفتها الى لغة معنية وإلى كلام لغوي ، هذا عما ما قد توجي به الدراسات الصوتية وإلى غير ذلك من فروع أبرزها لنا مؤرخا الدكتور محمود السمران في مؤلفاته الرائدة .

وطالما هذا حالنا فندعي لنا ألا نهمل دراسمة الأساطير سعيا إلى مزيد من أضواء تلتقيها على تاريخنا القديم فتعبر لنا الطريق إلى خصائص مميزة هي التي صيغت لم وجهتنا وربما ما زال بعضها يحركنا دون أن ندري .

ومع ذلك فلا قليل لنا ان التهاج الحق هو نغمة القصص الديني من مجالات الاستقصاء ، فلماذا نلجا إليه حين يفيل اليئا انه مؤيد لوجهة نظرنا فنقول ان من الزرائع على تليب سلطة الشمال على الجنوب « قصة الأوزير الذي كان يحكم مصر شمالا وجنوبا في حين حكم ابنه حوريس منطقة غرب الدلتا وحكم اخوه ست مصر العليا .. » الخ

ومن قال ان أوزير كان يحكم مصر شمالا وجنوبه إنما هي رواية مبهمة فمن عهد من روايات ، والأصل كما يقول الدكتور عبد العزيز صالح وغيره من كبار الأساتذة المتخصصين ، ان أوزير لم يصور أخلاقا مليكا على البشر في حياته ، إلا بعد ان طرات على الأساطير تطورات اثر تكتورات وقد اشرت الى هذا في مقالتي بما فيه الكفاية .

الفضية ، هي نظري ، هي : هل تكون الأساطير عاملا مساعدا أم لا تكون ؟

لم هناك موضوع « النقاء السلاقي » وإلى لتلق في الرأي مع الدكتور ميد القمم أبو بكر ، فان مقالتي عن « الحضارة المصرية » هو الرابع في سلسلة متصلة ، ثانياها بعنوان « الاجناس البشرية ونشأة الانسان » (العدد ١٠٨ من المجلة) فيه ارجعت كل تقدم بشري في الصور المصرية الى اتحام الثقافات ، أما تلك الجماعات التي عزلت عن غيرها ، فقد أصابها التدهور بل أحسبنا الانقراض .

وفي ثالث المقالات « النيل إذ جرى » (العدد ١١٢) أسهمت في وصف القنار الذي تمتعت به مصر حين اتفت على أرضها ثقافات شتى من جميع الاتجاهات . ثم كيف اجتذبت جميعا الى حواف حوض وادي النيل حين زحفت مصور الجفاف فسهرتها أرض الوادي الى تجانس مبدع استمد حيويته من احتكاك المسلمات مختلفة الأصول .

لست من أنصار الحزم الجفراني ، فلاتأسان هو عنصر المبادرة ، ولكن البيئة لها أحكامها وخاصة حين تكون امكانيات الانسان متغلغة عن فرض سيطرتها على الطبيعة بالصورة المتزايدة التي أراها الآن ، تماما كما هو الحال بالنسبة لنهر النيل العظيم فإن طبيعة الأرض المصرية لم تخلق هذا النهر الى وجود ، وإنما كان لها أكبر اثر في تحديد الجرى والاتجاه ليحياه الثلاثة الدافقة .

وقد ذهبت الى التساؤل ، هل من دلائل على ما افول في جوف الأساطير ؟ خاصة وإن البعض قد حله ان يصور أوزير في صورة الزعيم الآسيوي الذي نقل الحضارة فخرها على وادي النيل .

وقد فعلت ، فهل جانبتي التوفيق فيما استخلصت من نتائج من خلال استقرالى للتواحي التي ركزت عليها من أسطورة أوزير ؟ قد يكون ، ولكن القدامى على ما اقدمت عليه إنما في حقيقته خطوة في سبيل انتهاز أسلوب في البحث ، هو جديد في المناخ الفكري مصر على الأقل .

فاني لا انصور ان تنهى الأساطير جانباً فنقول انه « من المؤكد اننا لا نستطيع ان نستمر في تفسير القصص القديمة على أساس استخدامنا في البات دمي الزرعات التاريخية » .

لم أحاول أولا « البات » وقائع تاريخية وإنما ارتكز جهدي حول محاولات استقراء لرسم ألبها ولا تدعي انها قد أصابت . بقينا مطلقا ، فأينما هذا فوق طاقة البشر في كل زمان ومكان .

ولماذا تنهى الأساطير جانباً وقد ارتقى بها العلم الحديث الى مراتب تؤكد أهميتها كمستودعات للحقائق الحضارية ، تطورها المستمر نفسه مرآة لتطورات القيم الحضارية .

هل يحق لنا بعد هذا ان نقرر دراسمتنا على المخططات الأدبية وحدها - وإنما أحيانا بضع من اوان فطرية أو مكامل ولا تزيد - أم انه يجب علينا ان نتجه أيضا الى المخططات الروحية - ان صح هذا التعبير فلما الحضارات الفكر ومفاسير ومفاد هي القدرة وحدها على دفع الانسان الى الصمكة للآلية لم على طبعها بطايقها الخاص المميز .

بل ان الكشف عن النصوص المكتوبة فيما يسمى بالصورة التاريخية والتبحر في فك طلاسها ليس وحده كافيا طالما اقتدنا القدرة على التخال الى « الخلق » الذي تحكم في أساليب تفكير أسلافنا الأولين ، حكم من لوحة تحكي لنا فتوحات هذا الفرعون أو ذاك فلا بها متبقة من رمزية مطلقة ، تعداد لصفات مفروضة إنما كائمة في شخص الملك ، وليست بالضرورة سرد لوقائع فعلية ، كما اذا قيل ان الملك فيصل هو « حامي حمير

تنازع ، فينهار حجر الأساس الذي قامت عليه الحضارة المصرية في ذلك الوقت .

الموضوع ليس في أن حور كان ملكا على الدلتا وست ملكا على الصعيد ، فالشمال والجنوب إنما تحكمهما نسبة الموقع الجغرافي ، تماما كما هو الحال الآن ، إذا ما توجهنا بسؤال إلى المصري في بني سويف فيشير جنوبا ويقول « يا هناك يا قبل » كأنها ليست بني سويف من محافظات الوجه القبلي .

المفرد الحضارى الحقيقي لفظة الصراع بين حور وست ، هي في أن حور كان يستمد أحقيته في ارتقاء العرش من أن « إيسن » هي أمه ، حيلته حينئذ بين الفتى نفسه على جسد أوزير بعد قتله ، بل أن بعض الروايات تزيد على ذلك فتقول بأنه كان يتلصص حينئذ العضو الذكر ، الذي سوف يثر به « حور » فيما بعد وقد أخلاه ست في يده فينتزعه منه انتزاعا .

وأخشى أن أطيل فائق ، فأتكى بالإشارة إلى ذلك القرص الذي كان يقضى على ولي العهد أن يتزوج من أخته ، وهو أمر كان قاصرا على الأسرة المالكة فلم يتعداه إلى المجتمع المصرى بعامه ، فتحدد شخصية فرعون من خلال النسبين الأبوى والأممى جميعا ، لا خلاف عليه طالما كان النسب الأبوى متصلا ، فإذا لم يظف فرعون أمنا ذكرا ، انحصر الحق الأولوى في كبرى نثاته ، ويصبح ولدها كأنما هو من نسل «أوزير» (أي فرعون الذوات) ، هو « ابن إيسن » ، الذي له حق الطوبى في جبرها (أي على العرش) ، دون العم حتى ، (أي ست) إذا كان له أعمال .

فإذا ما أسفطنا كشوف قاعدة ، ربما وجعنا هنا تفسيراً للظلال الغريبة التي استمرت بين فرعون الاسرتين الأولى والثانية ، إلى أن استقرت القوانين المتكسمة لورثة « الوهية » العرش ، خشية انهيار التركيز الذي فيه استقرار الدولة الفرعونية ، إذا ما ظل عرشه لمنازعات أو تطعات .

وربما وجعنا في هذا أيضا تفسيراً ليسر الذي صاحب انتقال الحكم - من أسرة إلى أخرى دون ظهور بؤاد صراع أو نزاع ، ألا في أقل القليل وإنما نجد - كلما ليسر لنا تسلسل الاسماء في الدولة القديمة أن كبرى بنات آخر فراعنة الأسرة الواحدة ، هي أم فرعون الجديد، وأنه كثيرا ما صاحب ذلك هبة أو اختلاف في الرأي بين عظماء الآثار في مكانة زوجها ، أو راس الأسرة الجديدة أم لا ، فإن موقفه في الحقيقة لم يتعد أن يكون همزة الوصل .

واتى الأقدم بطالع التفسير للاستناد الكبير الدكتور عبد المنعم أبو بكر وإلى هيئة تحرير المجلة ، ففعل أن يكون هذا التطبيق على التطبيق قد هيا القاء مزيد من أعضاء جانبية على الموضوع .

أشياء كثيرة قد فصلتها في هذين المقالين ، فلا أرى مجالا لتكرارها وإنما الذي لم أذكره إذ لم يكن هناك مجاله ، ولم اتطرق إليه في مقال الأخير خشية مط وتغويل ، إن ارتباط شرق الدلتا باسم أوزير ربما كانت له رواسب تعود إلى تلك المصوّر المسخية بالإسالة إلى الربط الذي حدث ، حين أصيبت الحضارة « الجزرية » بمرية قاسية في شخص أحد ملوكها الكبار ، قتل على الأرجح في معركة دارت هناك .

فقد هبطت إلى الوادى من جميع الاتجاهات حين زحف الجفاف عديد من قبائل بني استقرا ، ومنها تلك القبيلة التي يصعب الظن في أصولها الآسيوية والتي أصبحت مدينة « منجت » ماصتها فيما بعد ، وقد ضاع كما حدث لقبها اسم إلهها الأصلي - بل يصح هنا ألا نقول أنه قد ضاع ، فتلك كانت عادة متناصلة في القبائل الرحل ، يتحاشون التلق باسم الإله عن رعية وكبار ، ويلجأون عوضا عن ذلك إلى نسبته للمكان ، فهو « منجتى » ولا يزيد ، ذلك الذي أصليت صفاته من بعد على « أوزير » حين أثقلت مكانته ، إلى الوهية عالم الاموات ، فحق تكون الأهرام أن تغلبه بقولها : « وبث فيك حور حياة إذ سميت منجتى » ،

فانقول بأن « أوزير » قد أتى من الشرق لصة لها أصل ، ولكن الذي أتى لم يكن أوزير صانع الحضارة وإنما « منجتى » الراعي الجلف هربا من جفاف زاحف ، فإذا ما استقر وعارس غنوة الزراعة ، وارتقى بها كما ارتقت به ، تطور به الأمر إلى حضارة محلية بحت ، هي لمصرى ما عشت له غروره البنية ، التي أنشأت عليه الحضارة الجزرية بميزاتها الفريدة والتي كانت منتقلا إلى الحضارة المصرية .

فإذا ما بثت الحياة « المفهوم الأولوى » استجابة لمطالب حضارية رأت أن تطلق تلك القوة الطبيعية المؤهبة صورة بشرية ، فلها تغنى عليه ، من أن تدرى وطريقة تلقائية ، متبقة من اللاشعور الجسمي ، صفات « منجتى » ، مسافا إليها تلك الرواسب التاريخية ، الحرية بأن تصح لأولوى في صورته الجديدة ، تاريخا قادرا على إشعاع أخيل من أصول بشرية وإنى لاشكر الدكتور عبد المنعم أبو بكر على التحدير الذي أطلقه فلا نتردى في الخلط بين الأصول المختلفة لآله الواحد ، فقد كان هناك فعلا على الأقل أربع صور متباينة الجذور لآله « حور » ، وما انطبق على حور ينطبق على غيره وخاصة تلك الآلهة التي ارتفعت فيما بعد إلى مكانة كبرى ، كما هو الحال ماكتسبة لمتحور (حت حرو) فهي أمور كان لها فضل وأى فضل في تراء رمزية الأساطير المصرية .

وإنما في نظري تركز أهمية ذلك الصراع الآخر بين حور وست ، في أنها درست الأصول الحضارية التي خلقت « الوهية » فرعون ، من أن تصبح موضوع

أخي مصطفى مشرفه

بقلم : د. عطيه مشرفه

(١) الأستاذ هوداكس رئيس القسم الإنجليزي بها .

(٢) الأستاذ فيلر استاذ لغة اللغة بجامعة لندن .

(٣) الأستاذ اينانز بجامعة لندن .

(٤) الأستاذ إيريسيت بنياثر عميد كلية سانت جونز بكمبردج و مدير الجامعة السابق . .

فولقت السياسة الإنجليزية في تعيين الأستاذ المصري ليكون رئيسا لقسم اللغة الإنجليزية بكلية اداب القاهرة بالمرصاد ، حتى لا تعسر وقيلة ممتازة كلن يشغلها الانجليز دائما .

وفي سنة ١٩٤٥ نشر كتاب « تاريخ حياة جمال اتاتورك » بالانجليزية وسماه :

Attaturk, A Biography

ثم صاغر لانجلترا حيث عين مديرا لادارة الدعوة والنشر بالعهود الثقافي المصري بلسمين ، ولطافة لسانه وتمكنه في اللغة الإنجليزية عهد اليه بتحرير « المجلة » التي كان يصدرها العهد من سنة ١٩٤٥ الى سنة ١٩٤٧

ومن انجلترا كان يرسل الجرائد المصرية اليومية باسم « ويتكر Witeker » ، عل انه مراسلها الخاص مانجلترا ، وبذلك استطاع ان ينقل اليها كل الاحداث الهمة التي كانت تجري بانجلترا ولها علاقة ببلادنا ، وفيها نشر ايضا سنة ١٩٤٦ الجزء الاول من كتابه « مسح ثقافي لمصر الحديثة

Cultural Survey of Modern Egypt

ولد اخي مصطفى مصطفى مشرفة في ٢١ من مايو عام ١٩٠٢ في مدينة دمياط ، وسافر عقب حصوله على البكالوريا الى انجلترا للعلاج من الروماتيزم . وهناك اكب على الدرس والتحصيل حتى حصل من جامعة كمبردج على شهادة في الشعر الانجليزي . ثم انتار امتحان البكالوريوس في اللغة الإنجليزية من جامعة كمبردج سنة ١٩٢٩ ، وبذلك اتقن اللغة الإنجليزية كانيالها الانجليز انفسهم . فهدت اليه كلية جنوب غربى انجلترا بتدريس اللغة الإنجليزية من سنة ١٩٣٩ الى سنة ١٩٤٩ .

وكا عاد الى مصر ، اختير لتدريس اللغة الإنجليزية بمعهد الصحافة بكلية الاداب بجامعة فؤاد (القاهرة) في اواخر عام ١٩٣٩ ، وكا شغرت وقيلة الاستاذية للغة الإنجليزية بهذه الكلية وكان يشغلها استاذ انجليزي تقدم بمذكرة رفعا لمجلس الكلية قال فيها :

« ان من التقاليد المتعارف بها بجامعة الغرب (انجليزية) ان غير الإنجليزية (ان يكون مدير سياسة تعليم اللغة الأجنبية فيها وطنيا ، حتى يعمل بها يوافق حاجيات أبناء وطنه وتكريمهم ، فاذا توافرت كفاياته كان خير من يقدر على ان يحل مشاكل اللغة ، لغرفته بلغة اهلهم وعوادهم وتقاليدهم الأدبية ، لذلك أقدم لمجلس الكلية التماس منتمسا منه ان يتقدم بمؤهلاتي ومؤلفاتي كلن كمرسى الاستاذية بها :

(١) الدكتور جون مري مدير كلية جنوب غربى انجلترا بجامعة اكستر .



مصطفى مشرفة

الرجل الذي يعتبر بحق أبرز الأدباء والعلماء الذين أنجبهم هذا العصر ، ممن طرّفوا بعلمهم وأدبهم ميادين مختلفة جعلت من منهم علينا أن نعمل على تقليد ذكراهم . من هذه الذكريات ما يتور حول روايته « قنطرة الذي كفى » المليئة بالصعور والحكم والأمثال الشعبية التي تنبش في حواري عابدين وأزقة السيدة وغيرها ، والتي اتارت شجرة كبيرة بين الأدباء ، والتقاد ، واعتبرتها لجنة القراءة بمؤسسة السينما عملا أدبيا عاليا في الفنون الروائي . وقررت صلاحيتها للإنتاج السينمائي مع نسخها إلى مكتبة السينما الأدبية ، وبذلك أدخلها الاستاذ نجيب مطوف ، وكان وقتها المستشار الفني للمؤسسة المصرية العامة للسينما والإذاعة والتلفزيون ، في خطة الإنتاج .

وعلمها كانت تجربة عامة في الكتابة باللغة العامية ، لغة الشعب التي تعبر عن مشاعر الفلاح وأحاسيسهم ، وغلجات أنفسهم ، بل كمنه أراد أن يطرّج في كتاباته عن لغة الفلاح إلى لغة الأدب الشعبي الذي يفهمه سكان الأقاليم والحدود من المصريين .

أما كتابه الثاني « هديل » الذي أخرجه أيضا قبل وفاته ، فقد كتبه في أسلوب متين بسيط وعبارة سهلة ، استنبطها من واقع المشكلات الكثيرة التي تواجه المصري في نظامه من أجل حياة أفضل ؛ فقلقه قبل لورثنا اليانكية عن « فلسفة الألقاب » أراد أن يلقى به سواء على موقف من المؤلف كي يستشف منه معنى معين يريد إبرازه لتأكيده لقيمة الألقاب بقوله : « هناك أصحاب العزة والسعادة والصفوة والعلامة والفضيلة والطمعة والجد والتبيل والسوء والظلم والرفعة والصحة ، ثم أصحاب الجناب والدول واللقامات والقيادات ، ثم الشيخ والجليل والشريف والتعظيم والوجيش والسيد والحقايق والأديب والفاضل ، وسلسلة الشرف وكريمة المجد والعالم العلامة ... مما لو أحصيناه لألا صفحات ... ومن الواضح أن هذه الألقاب لا تستعمل في معناها ، فليس صاحب السعادة بأحد من غيره ، ولا صاحب العزة بأحد من غيره ، ولا صاحب القوة بمالك لها ... وإنما لأعلام الخطاب بأنه ممتاز عن المتكلم أو المكس ، ولذلك تترجم بعض هذه الألقاب إلى لغة معلومة تدل على معناها ، فقل رحمه الله : أن الأندلس = ممتاز ، والبلد = ممتاز جدا ، وسعادة البابا = ممتاز جدا جدا ، ومعال البابا = ممتاز جدا جدا ، ودولة البابا = ممتاز جدا جدا جدا ، الخ مع أن معظم دول العالم حرمت نظام الألقاب ، ثم أضاف منهاها :

« وهناك ظاهرة غريبة لا أعرفها في أية لغة مصر ، ففي بلاد كاتجنترتا مثلا لا تجد الأفراد الشعب تتعاضد الألقاب كما نعمل نحن ، إذ لا يعطى على بال « مستر » جون سميت ، إذا أراد مداعبة مستر جون سميت آخر أن يقول له « يا سيح جون » ولا « السح » جون إذا أراد منهاها :

الذي قدم له الاستاذ جون هوري John Murray مدير جامعة اكستر ، ولما كتب الجزء الثاني ، فلم له الاستاذ هولدين .

كذلك اشتراك مع البروفسر جرانفيل الاستاذ بجامعة كمبرج في كتابة مقال عن مصر ، تناول فيه العديد من النواحي بالتاريخ الحديث في دائرة مطوّف هالكينسون . وقد ترجم الكتاب بجزيه للغة الروسية فيما بعد .

ثم نقل لمن وثقته لأمريكا ، حيث قضى عدة سنوات في المعهد الثقافي المصري ، ولزم الشعر باللغة الإنجليزية وكتب عدة دراسات أدبية بلغت من الجودة حداً أدى إلى اعتراف الأجانب به والدا من رواد الفكر المصري ، وكانت لغته متأثرة إلى أبعد حد بالروح العلمية المصرية ، فتعرف على الحضارة الغربية وأمن بها وتحسس لها ، وعاد إلى بلاده داعياً لها ، كما نقل إلى البلاد الأجنبية حضارة المصريين وثقافتهم وتراثهم ، وبه أن حصل على درجة الدكتوراه في اللغة الإنجليزية عاد لمصر فعمل في وظيفة المستشار الفني لهذه اللغة Technical Adviser

بوزارة التربية والتعليم ، وبمجرد أن شغل هذه الوظيفة ، رأى أن الطلاب يقرأ كتباً أجنبية عن بيئتهم المصرية ، فابتدأ يجمع هذه الكتب الإنجليزية عن المدارس الإعدادية والثانوية ، ليحل محلها كتباً أجنبية عن أسماء مصرية صعبة وموضوعات شيقة محببة للمصريين لتذكرهم بمجتمعهم الطائفة ، وبذلك مصر الكتب الإنجليزية ، وتعلمها إلى بيئة التلميذ المصرية الطبيعية ، ولما تلوس التلاميذ بالترجو والانحياز بعرفة مدينة المصريين وتراثهم الطائفة .

إن مشاعري تتلجج بشنى الذكريات ، وفي خاطري تتزاحم صور واضحة متتابعة كلها واقع في تاريخ هذا

الظواهرات ضد القاصب ، ودخل السجن وانكوى بتارها : وتحرك في إطار الفكر الاجتماعي الاشتراكي ، وفي إنجلترا وأمريكا وعصر كان يستقبل شباب الصربين ويعرفهم بالفكر الاشتراكي المستنير ، ومؤسسة طباعة الألوان المتحدة التي أسسها عام ١٩٥٧ دليل ساطع على اشتراكه فقد كان يصطب على عماله ويعمل على رفع مستواهم المادي والأدبي ، وكان له دور هام في تدريب بعض الشباب وتسليةهم ورسالهم على نفقته للقتال أثناء العدوان الثلاثي ، وكان يزودهم بمصانعه الغالية وارشاداته ، وكان يود أن يذهب معهم لولا العجز الذي قصده في السنين في السنين الأخيرة من حياته .

وكان أخى الرحوم مصطفى مثالا للرجولة في تحمل المرء والقدرة على تحويل العجز إلى مقدرة ، فقد متى في ربيع حياته برومازيم مزم من القدم عن الحركة ، مما اضطره أن يحيل نفسه إلى العائش للعجز الصحي عام ١٩٥٧ وفي خريف حياته أصيب أيضا بفرقة الانثى عشر نتج عنها نزيف داخلي كان يفاقمه بين العجز والآخر ، ومع ذلك ظل يؤدي رسالته على أحسن وجه ، فأصدر الكثير من الكتب والمقالات العلمية والأدبية ، وأنهى معلم معجسه الانجليزى العربى الذى أسماه « معلم مشرفة » .

وكان رغم آلامه المبرحة من مرضه مثال الشغف والوديع الهادئ الرقيق . وكان من الشغفيات النادرة التي تمثل المعنى الكامل للإنسان للتلف في العصر الحديث .

وعندما استشهد عليه القرحة بالانثى عشر ويزاد نزيفه المكافئ ، اندخل ذهب إلى كثن في الشهر السادس من سنة ١٩٥٨ ليرضى نفسه على الدكتور نوبمان كان بمستشفى « ميدنكس » ، لأجرا عملية جراحية ، فشجعت العملية ورجع كصر معافى .

وفي سبتمبر ١٩٦٦ سافر إلى روسيا سسيا وراء التخليف من مرض الرومازيم ورجع منها في أكتوبر من نفس العام دون إجراء أية عملية جراحية لأن الرومازيم كان قد أثر في قصص الصدر مما جعل من الصعب جدا إجراء عملية جراحية له لصعوبة التنفس .

ويكفي المحي فخرنا أن اسمه مدرج في الدليل الدولي International who is who ، كما قررت دائرة المعارف الأوروبية سنة ١٩٤٧ وضع اسمه فيها تحت قائمة أشهر شخصيات الشرق الأدنى .

وفي الرابع من سبتمبر ١٩٦٦ مات أخى مصطفى أيضا ميتة المفاجئة التي أحب أن يموتها فسكت اللسان ، وخمد اللحن ، ووقف الفؤاد ، وطواه الردى كمنج البصر بعد أن كان يجيش بالحياة وينبض بالخطوح . عليه الموت وهو الذى ظلنا نلجأ للأحوال ، وارتفع على الشبدائد والأحداث ، ونفذ حكم الله الذى لا مرد لقضائه ، أسكب الله على جدته شاييب رحماته ، وأسكن قلب التكوين فيه الهدوء والعزاء .

أرفاه ، سبر جون « آخر أن يقول له « يا لورد » سيحت اما في مصر لكل الفتى « بك » وكل بك « سعادة بك » . وكل التصاد في استعمالها يعتبره المجتمع وقاحة وخروجاً عن آداب اللياقة ، وكما يستغل صاحب القلب لقبه ليمتص بلذة الامتياز وباعجاب الناس حوله ، وليوفر على نفسه متونة القيام بواجبه ، بأن يخلق حوله سياجا من الخوف ، وبأن يعتمد على ارباب الناس : كذا يستغل صاحب الحاجة لقب صاحب القلب لنوال مآربه بأن يستشعر الخوف أو يتفاه به .. وبأن يهدى الضغوط ويسرف في الشئاء .. وبذلك يرتب نجاح أحد الخصم على قدرته في تمثيل دوره .

وينهى مقالته بقوله :

« وهكذا نحن قوم صغار في أمة صليحة ينقصنا فهم احترام الغير ، بأنه لا يبدو احترام النفس ، كما ينقصنا الكثرة مما يمتز به الرجل الفاضل من خلق العلم والجمال وتقدير الغير والقيام بالواجب ولذة التدرج من النفس إلى الكمال » ١ .

وباقى قصصه ومقالاته يجد فيها القارىء باقة يانعة من لرح لا يجيده سوى الصربين ، ولا الشها تقبل في مستواها عن كثير من القصص العالمية . وبذلك جاءت أعماله القصصية محاولات جريئة لتطوير التمتع الأدبي ألارت الاهتمام والمناقشة لأنه صالها في قالب فريد من لغة التغاطب اليومي العادية .

كذلك كان حياته .. رحمه الله .. تسببا تسع القعدة ألوان من الجمال ، فكان يعتقد أن الموسيقى ترمي إلى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، وأن إصاها نفس في تهذيب الحواس ، لذا كان أحد أعضاء الجمعية المصرية لهواة الموسيقى سنة ١٩٤٢ ، وألف رسالة فيها أسماها « كتيب عن الموسيقى الشرقية والغربية » Pamphlet on Music — Eastern and Western نشرت بلندن ، والرسالة عبارة عن تلخيص لمعاصرة اللها في جامعتها في أسبوع الاعم المتحدة ، بناء على طلب الجامعة ، وقد دلت على دراسة واسعة للموسيقى مكنته من إدراك أسرارها النظرية والعلمية والفلسفية .

كما استهوته منذ صغره الفنون الجميلة فكان نابغا في التصوير وفي رسم اللوحات وفي كتابة بعض المسرحيات وعزف البيانو والفلوت (الصفاة) ، وكان مستواه في كل هذا أرفع من مستوى المحترف وأعمق من مستوى الهواة .

اما بالنسبة لتشاطفه الوثقى ، فقد كان للرحوم مصطفى مشرفة ماهرة في شبابه في صيد الانجليز في لورد مصر سنة ١٩١٩ فقد كان عضوا في الطيلة الثورية التي كان بها اولاد متسايت ألقاب الوطيسية المصرية ، ولقد

نقد .. لنقد

بقلم : ألفت الادلبي

في سورية فقد بحث اليهن جميعا برشاش من عطائه فقال :

(وهناك فئة غير قليلة تنطد الأدب (موهبة) مصربة فتجرب كل واحدة منهن نصيبها . والطبع لا يكون تاريخها الجيد من العليد أو الإصهار والنسيان) الصفحة (١٢٣) من المجلة .

ويتخلص من هذه الفضة الكثيفة تشكيلا غريبا الى انه كتابي فيختار من سبع عشرة قصة فيه خمس قصص لمختصها على عجل وكيفما شاء . ثم يكاد يقف في نهاية كل واحدة منها كجوجة الأسبلة ، وبلهجة المعلمين حين يؤشرون على أقرانهم تلامذتهم ، ولو انه حاول أن يلهم ساق القصة لا وجد مسوغا لاستلته هذه .

في قصة (الرولية الجربة) يقول بعد ان يخلص القصة :

تنتهي القصة هنا ويقف الر - متسائلا : المرأة الزوجة بسيطة غاية البساطة كما صورتها الكاتبة . ألم يكن بإمكانها أن تستجيب بأولادها من زوجها حل المشكلة ؟

الجواب على سؤاله هذه يجده في الحوار الذي يدور بين الزوجة وابنها البكر في الصفحة (١١) من الكتاب حين يقول فيه :

الله يرفي عليك ، ملائكة السما ترفي عليك ، ابوك رجل عتيب لا تعظم معه ، لا تعمل لنا فطيرة ، لا تصنعنا سيرة بكم التالي .

الا يلهم من هذا الحوار ان الزوجة كانت تترك ان زوجها رجل عتيب لا يتصاح لآراء اولاده ، وقد خشيت ان هي عرضت عليهم الامر ان يعظموا مع ابيهم فتسلوك

في العدد (١٢١) من - المجلة - بعد السيد عدنان الداعوق ، الذي اخذ في ربيع حياته الادبية - كما يتلخص من متابعة عمله الادبي - الى النقد وذلك بفرض الكتب الادبية وتعليل موضوعاتها فيكرس صفحات كثيرة من دراسته لكتابي - وداعا يا دمشق - ، والتد ما يروح وهو يسير مع تطور الحركة الادبية فسرقتنا العربي مباحا لن اراده ليس ما يعتم على من ينسب نفسه له ان يكون ملما الكام الاحاطة بكل منحنى من مناحيه . خيرا كل الطيرة بطوافيه وابعاده شأن النقد الإلحاح من الطير - القمامى الذين هم بمثابة المرشدين أو الرؤيا . ولكن كان من نتاج ذلك ان صعب كثيرا على من أسهواهم الانصراف الى الاعمال الادبية من رجال أو نساء . ان متعودا بمن اخلوا على انفسهم تقدمهم ، وان يطمأنوا الى مايدلون به من نصح وارشاد وفاقا للقاية المثل التي وضع من اجلها النقد .

ولعل من امثلة ذلك ان السيد الداعوق يعثر في مقدمة مقاله هذا ، وفي أسطر معدودة طائفة كبيرة من ادبيات سورية ، ومن بينها الادبية وداد سكاكيتي التي يقايس بينها وبينى ، وكوليت خوري ، وغادة السمان، وجورجيت حوش ، ورنيه عيسى ، وقدر كيلاني . وخديجة التشنوي ام عصام وغيرهن ، ثم يتمجل تصنيفهن تصنيفا ديكتاتوريا يسميه تصنيف الادب النسائي في سورية .

ثم يأخذ بتوزيع الصفات والاتقاف عليهن بتقسيمات جعل له تركز على خلاصة دراسة كتاب واحد ، او موضوع ، او مقطع ، او عنوان قصة كتبته احدهن - ويعمد بعد هذا فيسلم لكل منهن وثيقة شهادته بها وكأنه عميد كلية الادب القصص النسائي في سورية . اما الباقيات اللواتي ما اراد ان يذكرهن من ادبيات القصص

بها ولذا اختاروا قصة (الرقية المجرية) من بين عشرات القصص التي عرضت عليهم ليخرجوها فيلماً ، لأنهم وجدوها خير ما كتب في هذا الموضوع .

أما عن قصة الحقد الكبير فيقول الناقد :

كان من الممكن جسداً أن تبدو هذه القصة رائعة لو استطاعت المؤلفة أن تنقلنا إلى صميم الجو الساتر ، لا أن تتحدث لنا عن الثورة والثوار من الخارج وعن لسان ظل ساذج لا يدرك ما يدركه الكبار . ولعل نقطة أخرى كانت تستحق أن تبدأ القصة منها . كان تبتدي . بالقصة مثلاً حين يغف الصبي في ساحة المرجة ويلمع جنة الحلاب بين الجثث .

لا أدري إذا كان الناقد يجهل أم يتجاهل بأن القاص حر في تصوير ما يريد ، يصور من الزاوية التي يريدها ويبدأ من حيث يشاء ، لا من حيث يشاء له الناقد . وإن الثورة يجب أن تصور من الداخل ومن الخارج على السواء ،

وأنا حلاً لـ أن اصور مشاركة الذين لا يحصلون السلاح للذين يحملونه في الثورة مشاركة لا يقل خطرها والتضحية فيها عما يبذله الذين يهوضون المراكب . لأنني أجد في هذه الناحية جدية أيضاً بالتصوير . ولا يجب القصة إذا صورت من وجهة نظر ظل ساذج تاتر بظلال المستعمرين ، وفي اعتقادي أن هذا يعطي القصة قوة . فصور الأطفال وانطباعاتهم يشغل جزءاً كبيراً في أدب الأمم كلها . وربما هذه الصورة بالذات التي لم تعجب الناقد أزعجت لجنة المؤلفين في وزارة التربية والتعليم فحلتهم بدرجتي قصة (الحقد الكبير) في كتاب القراءة المقرر لدور المعلمين والمعلمات في سورية لتدرس كنموذج للآداب القصصية الحديث في سورية .

أما قصة وداعاً يا دمشق فيلخصها الناقد كعادته في التلخيص ، ويظهر من تلخيصه أنه لم يفهم الهدف الأساسي الذي تدور حوله القصة ، فهي لم تعالج معضلة امرأة متزوجة وذات عشيق كما توهم ، إنما تركز على تصوير لحظة الفهم عند رجل عشق في مطلع شبابه فتاة عشقا جامعاً فلما زوجها أهلها من غيره هاجر إلى البرازيل ليعبد عن مأساته ، لم يعود إلى دمشق بعد عشرين سنة وقد ظن أنه قد شفى من عشقه القديم فلما الصلات تعود بينه وبين المرأة ذاتها وإذا هي في السادسة والثلاثين من عمرها أجهل منها في السادسة عشرة ، وتعود جذوة الحب أكثر اشتعالاً في قلبين العائنين فيفكران بالهروب معا . وهناك فارق كبير بين التفكير بالأمر وتنفيذه . وإذا طُفلا المرأة يائبان كملكين صغيرين ليقبلا أمهما قبل النوم ، فإذا الأم تحنو على طفليها وتعاتفهما ، ويؤثر هذا المنظر في شعور الرجل العاشق فيستيقظ غميره فيفر هارباً ليدع الأم لتفليها .

يستغرب الناقد أن توجد في دمشق امرأة متزوجة وأم أطفال وذات عشيق وتستطيع أيضاً أن تدعو عشيقها

الأسير سيرة الأسرة ولذا أثرت أن تخفي الأمر عن أولادها ما استطاعت ، وتلجأ إلى السحر ، ومن الثابت أن لبعض الناس إيماناً بقوة السحر الفارقة تفوق أي إيمان آخر . وبطلة قصتي كانت من هذا النوع .

ثم يستطرد الناقد فيسأل :

هل أفلح الزوج عن الزواج ؟ إن الكاتبة لم تخبرنا بذلك .

الجواب على سؤاله هذا يجده في الحوار الذي يدور بين الزوجة وجارتها (خندوج) في الصفحة (١٢) من الكتاب حين تقول لها :

هاتي المشارة .. لقد بطل زواج أبي صافي ، وعادت الياء إلى مجاريها ، ألم أقل لك إن أم زكي أم العجائب ورفقتها المجرية لا تخفي أبداً .

ألا يفهم من هذا الحوار أن الزوج قد أفلح عن الزواج ؟ فلم لا يفهم الناقد ؟

أيريدني علان أن أكتب له تقريراً ؟ إن ماكتبته كان واضحاً لا يس فيه ، فلما أريد أن أتبسط في عرض قصتي ما استطعت ، لأنني اعتقد أن التقيد في الأدب عيب مهما يكن لونه ، والبساطة في الأسلوب لا تتعارض مطلقاً مع عمق الفكرة .

ولكن الناقد لأمر ما لم يشأ أن يفهم ، وهذا مايتعارض مع أمانة النقد وصداقه .

ثم ينتهي السيد الداعوق نقد لقصة الرقية المجرية بقوله :

(زد على ذلك أن القصة لم تترك عند القارئ أي انفعال أو تأثر) .

حين قرأت تلخيص الناقد للقصة فهمت أنه لم يدرك الهدف الأساسي الذي تركز عليه القصة ، ولذا فلما أعلمه إذا لم يتفاعل بها لأنه لم يفهمها ؟

إن قصة الرقية المجرية لا تعالج مشكلة تعدد الزوجات فحسب إنما تصور الحنان الأنثوي حين يتفجر في قلب زوجة بسيطة مغلصة عطف . قد لا نجد هذا إلا في شرقنا هذا . فيجعلها وهي الفاتسية على زوجها أن تعدل عن تردد الرقية التي تعلمتها ودفعت لمنها غالباً لتحول دون زواج زوجها عليها خشية أن يصيبه سوء من الرقية أو يصبه عارض من الجن فتضره إلى الأبد . أنه أيو أولادها التسعة ، وعشرها مدى خمس وعشرين سنة وذين رجال الحارة فكيف ترمي به إلى التهلكة ؟ أنها تمنى أن يظل زوجها سليماً معافاً ولو تزوج من غيرها . ألم يتفهم السيد الداعوق وينتاز بهذه الطائفة الانسانية النبيلة ؟ أما القاصون على مؤسسة السينما في سورية فقد تأثروا

أل بيتها لتعرفه على زوجها فيسألني في العطفة (١٢)
من العطفة قاللا :

أين دمشق هذه يا ترى ؟ ومتى يصعب هذا ؟ وكيف
يا حفرة الكاتبة ؟

ضحكت وحملت للرجل حسن قلته بدمشق ،
فهو يربا بها إن توجد فيها امرأة من هذا القبيل ..
انني اطمئنته .. فلا يصعب دمشق مطلقا إن توجد فيها
امرأة مثل هذه المرأة . فمع الأسف الشديد هذا النوع
من النساء موجود منذ الأزل وإلى الأبد . وفي كل بلدان
العالم وحتى في أكثرها ترحما ، والمرأة لا تموزها الحيل
في مثل هذه المواقف منذ قديم الزمان فكيف تكون الحال
ولنن نعيش هذه الحياة العصرية التي تبيح اختلاط
الجنسين في أية مناسبة ؟

ثم يستمر الناقد في نقده فيقول :

إن المشكلة لم تنته عند هروب العاشق من حبيبته
ومن دمشق كلها . فهو قد هرب بالفعل . ولكنه ترك
المشكلة قائمة وراءه ، والمؤلفة هربت أيضا من الحل الذي
يجب أن يكون في نهاية القصة .

إن سؤال الناقد يدل على بدائية في فهم الفن
القصصي !

متى كان حتما لزاما على القاص أن يفسح المجال
في نهاية قصصه ؟

قد يدفع القاص الحل أحيانا حسب مقتضيات القصة ،
وأحيانا يكتفي بطرح المشكلة لأنه يبه الأتكار إليها ،
ويحظر على النورة عليها فتزويج فتاة على الرغم منها برجل
لا تحبه يؤدي إلى مثل العواقب التي تعرضت لها بطلنة
قصة (وداعا يا دمشق) . فانا لم أهرب من الحل كما
توهم الناقد ، انها طرحت مشكلة ما زالت قائمة في
بلادنا وكان في عرضي لها تحذيرا منها ، ودعوة إلى النورة
عليها .

أما قصة (ماتت قريبة العين) فبعد أن يلخص
الناقد القصة ويعطي ملاحظاته عليها يقول :

وبالاختصار فإن معاني الكفاح والنزوة والتضال لم
تنوضح أبدا في هذه القصة . ربما لامر ما أرادته المؤلفة
أن يكون غامضا ، هذا إذا لم نقل شيئا آخر .

أكاد لا أدرك ماذا يعني السيد الداعوق بقوله هذا ؟
ما هو هذا الأمر الذي أردته أن يكون غامضا ؟ وما هو
هذا الشيء الذي لم يقله الناقد ، ولماذا يحجم عن قوله
وقد وجدناه في نقده أكثر من صريح

كان الناقد أراد أن يتهمني في شعوري الوطني
بوجودها كبيرة ... فراح يهجم .

لا أدري كيف يسوغ له ضميره أن يتهم الناس في
أعر شعورهم بمثل هذا اليسر واللامبالاة !!

وأحب أن أخبر الناقد أن قصة (ماتت قريبة العين)
التي يقول عنها ما يقول ، قد أذيعت من المذاعة الجزائرية
ضمن برنامج الأدب التضال الذي كتب عن ثورة الجزائر ،
ولم يجد القائلون على المذاعة هناك أن قصتي تنافي معاني
الكفاح والتضال وهم في اعتقادي أكثر تفهما لملامني
النورية ، وأشد غيرة من الناقد عليها .

أما قصة سراپ فبعد أن يلخصها ، وما من شيء
كالتلخيص يشوه القصة القصيرة ويفسدها ، يقول عنها :

من الغريب جدا أن تسمى هذه القصة قصة .

أما كان الأخرى بالناقد أن يكتب لنا في مطلع
مقاله عروضا عن تصنيف الأدب القصصي الساسي في سورية
شيئا عن طابع القصة عنده ومقاييسها ، وإبعادها ، وعن
الفن القصصي ، وما هي هذه المقاييس التي يقاس بها ، وكيف
وعند الإبعاد والحدود التي يزعم أنه عليه بها ، وكيف
يطبقها على القصة المتلونة لها بكتابتها بعد أن يشوه القصة
بالتلخيص التي يشح بقلمه بأن هذه قصة وتلك ليست
بقصة وعليها نحن والقراء . أن نلحن لكراره صاغرين ..

ثم يعطينا ملاحظات عامة على القصص اشبه ما تكون
بكتليشيات جاهزة للنقد ينثرها حيث شا . وكيفما انفق
دون أن يعقل أو يفند أسبابها والدواعي إليها .

وعلى الرغم من ذلك كله لا يسعني إلا أن أشكر
السيد عدنان الداعوق لانا اعترف أنه لم يبخل على حين
قال :

كل تلك الملاحظات لا تمنعنا من أن نقر أن المؤلفة
تنجح إلى حد كبير وصف وتصوير ... وقد لا يستطيع ذلك
غيرها . الصور التسمية القديمة والتقاليد والعادات
والاعراف التي كانت متبعة في يوم من الأيام لم دمشق .
ثم ينهي السيد الداعوق مقالته هكذا : إن التفاعل مع
الزمن ... والتفاعل مع الجو ... واستيعاب العادة (قال
ناقد كبير) هي المعيار الصمم لبناء قصص رابع .

لذا لم يذكر لنا اسم الناقد الكبير ، وعهدنا به
مولى بالاستعلامات ؟؟

أما تراه يلحق لنا بأن الناقد الكبير ما هو إلا نالدا
نفسه ؟؟

«أ.ب» والمسرح الوثائقي

قدم مسرح الجيب أخيراً مسرحية « سيف ديموقليس » - أو « أ » ب - للشاعر التركي الجنسية العالى الولاء « ناظم حكمت » . وهي تعرض قصة اندحار شاب طيب في مجتمع رأسماني عات لا يعترف الا بالقوة والمال ، ولا مكان فيه للقيم الاخلاقية او للشاعر الانسانية الصادقة . ويكاد بطل المسرحية في قمة تآزمه ويأسه أن يدمر العالم بقبيلة ذرية فائكة ، لولا أن تغلب عليه طبيئته ، فيعدل في اللحظة الاخيرة عن عزمه الجهنمي .

إن الهدف السياسي للمسرحية واضح لا يحتاج الى تأكيد ، ومع ذلك فهي خالية من كل أثر لوعظ مباشر أو خطب حماسية ملتزمة مما يحفل به عادة هذا النوع من المسرحيات . فقد اختار لها مؤلفها شكلاً مسرحياً محكماً ، تغلب عليه الحركة والتشويق واستطاع بواسطة الاحداث المتلاحقة ، وبعض حيل « الفودفيل » و « الميلو دراما » أن يعرض مأساة فرد في بيئة اجتماعية معينة ، نراينا من خلالها مأساة الانسانية المصاهرة كلها ، دون أن نفقد ، لحظة واحدة ، استمتاعنا وتحفيزنا للمشوق لقامعة ما يدور أمامنا .

واستطاع مخرجنا الشاعر « نجيب سرور » أن يغير كل امكانيات النص ، واستفعل مسرح الحيلة أحسن استغلالاً ، حين حول حركة الممثلين الى حركات دائرية متلاحقة أقرب ما تكون الى مطاردات الملاكين وتلاحيمهم فوق حلبة الملاكمة . وعاونوه في تحقيق أهدافه ، وإبراز افكار المؤلف مجموعة من الشسباب المثقف المتأزم هم أعضاء فرقة مسرح الجيب ، الذين يكونون معاً فريقاً متلاحماً متماولاً ، لا شك أننا نعتز بجهوده ، ونتوقع منه الكثير في المستقبل .

ورغم ذلك ، فقد خرجت من المسرح وأنا أنساها : لماذا قدمت هذه المسرحية في مسرح الجيب الذي يقتصر جهوده على صفوف المثقفين مع أنها مسرحية تقليدية بكل معاني الكلمة ، ومضمونها انساني بسيط خال من كل تفلسف أو تعقيد ، أو أى محاولة للتجريب ؟ لقد أن لهذا المسرح الصغير ، الحافل بالامكانيات الفنية أن يدرك دوره الطليعى في ارتياد مناطق فنية جديدة ، واستكشاف أشكال مسرحية غير مألوفة لدينا ، وتجريبها عملياً . وسواء حققت هذه الأعمال نجاحاً يغرينا بنقلها الى المسارح الجماهيرية أم لم تحقق فهي في الحالين تسهم في تطوير مفاهيمنا المسرحية وتطعيم انتاجنا المسرحى بخامات وافكار جديدة .

وحين أقول « التجريب » أو « الطليعية » لا أعنى فقط مدرسة اللعب والاغراب الحديثة التي تنصرف اليها الأذهان عادة عند ذكرها تين الكلمتين . فما أكثر الاتجاهات التجريبية التي عرفها المسرح خلال عمره الطويل ، وما أحوجنا الى التعرف عليها والتمرس بها ، وبخاصة ما يهتم منها بالتوعية السياسية والاجتماعية ، وقد سبق أن أشرت في هذا المكان الى اتجاهين من هذه الاتجاهات الاخيرة ، وهما « مسرح الدعوة والاثارة »

الشعب العريضة وتوعيتها ، والمخرج بها من سلبيتها للمشاركة في معركة الانتاج وغيرها من الممارك السياسية التي نخوضها بكل قوتنا .

وقد ذكرت وفاة العالم الامريكى الشهير روبرت اوبنهايمر ، بشكل مسرحى ثالث قرأت عنه نبذة موجزة منذ بضعة أشهر في النشرة الدورية التي تصدرها هيئة المسرح العالمية .

ويمثل هذا الشكل المسرحى الجديد احدى الاستجابات الفنية لأزمات العصر وحرص الجماهير على متابعة قضاياها والتعرف على حقائقها . فبعد قضية « اوبنهايمر » الشهيرة (وتجد قصتها مفصلة في مكان آخر من هذا العدد) ألفت عنه قصائد وقصص ومسرحيات عديدة ، تدافع عنه ، وتشيد بموقفه ، وتدين المتآمرين عليه وعلى كرامة العلم في شخصه . ومن أهم هذه الأعمال مسرحية الفها الكاتب الألماني « هينار كيههارت » ، وقد حققت نجاحا كبيرا دفع عددا من المشتغلين بالمسرح الى العمل على تقديمها في عواصم بلادهم . ومن بين هؤلاء كان الممثل والمخرج المسرحى الكبير « جان فيلار » الذى شرع يستعد لتقديم المسرحية على « مسرح الايتنى » ببازيس . ولكن الدكتور « اوبنهايمر » أعلن اعتراضه على بعض أجزاء المسرحية ، فاضطر « فيلار » الى مراجعة نصها لتعديلها بما يتفق مع رغبة اوبنهايمر ، ولكنه ما لبث أن استبعد نص « كيههارت » بأكمله ، وفضل أن يرجع الى النصوص الأصلية لمحاكمة اوبنهايمر ، ومن هذه النصوص كتب « فيلار » مسرحيته الجديدة ، موجدا بذلك شكلا مسرحيا جديدا أسماه « المسرحية الوثائقية » أى التى توضع على أساس وثيقة قريئة ، والوثيقة هنا كانت ملف التحقيق مع دكتور اوبنهايمر ومحاكمته ، وهو يستغرق أكثر من ألف صفحة ، تتطلب ما يقرب من مائة ساعة لعرضها ، اختار « فيلار » من بينها ما يزيد قليلا عن ساعتين .

ومعنى هذا أن المسرحية الوثائقية لا تتطلب إلا قدرا ضئيلا من التأليف الابتكاري الخلاق أولا تتطلب أى قدر منه كما يرى « فيلار » نفسه ، غير أن « الاختيار » يقوم هنا بدور خطير ، اذ يجب أن تختار المادة الوثائقية بطريقة تستحوذ على اهتمام الجمهور ، وتقدم له الشخصيات في صور متنوعة ومقنعة .

وقد سبقت عدة مسرحيات محاولة « فيلار » فى نفس الاتجاه ، لعل أهمها مسرحية « النائب » لرولف هوتشهاوت ، وإن كانت لا تنطبق عليها بدقة مواصفات المسرحية الوثائقية كما حددها فيلار .

وقد حققت أول مسرحية وثائقية نجاحا ضخما ، اذ ظلت تعرض موسما بأكمله ، الأمر الذى دفع « فيلار » الى التفكير في اعداد مسرحيات جديدة من نفس النوع ، وقد فكر فى ثلاث شخصيات رأى أن وثائق حياتها تصلح مادة لمسرحيات وثائقية ، وهم ديفوس ومارشال بيتان ، وغاندى ، ويبدو أنه سيبدأ بالشخصية الأخيرة ، اذ كلف أحد مساعديه بجمع كل الوثائق المتصلة بحياة غاندى .

ترى هل يقدر لنا أن نرى نماذج لهذه الاتجاه المسرحى الحديث على خشبة مسرح الجيب ؟ . قلعله يحقق نجاحا يحفزنا الى تقديمه على نطاق أوسع ، ولعله يحفز مؤلفينا الى استلهم وثائق تاريخنا ونضالنا لتقريبها الى جموع الشعب ، فلا شك أن مشاهدات الأحداث الهامة على خشبة المسرح أسهل وأقرب للنفس وأقوى تأثيرا فيها من قراءتها مسطورة فى الكتب . هذا اذا تصورنا أن باستطاعة الكتب أن تصل الى سواد شعبنا الأمي .